

Twitter: @alqareeh
13.12.2015

سارة كوتتر نسخة معيبة

ترجمة وتقديم
ناهد الديب



المركز القومي للترجمة

2139

سلسلة
الإبداع
القصصي

نسخة معيية

(رواية)

نسخة معيبة

(رواية)

تأليف: سارة كوتنر

ترجمة وتقديم: ناهد الديب



2013

المركز القومي للترجمة

تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحي

سلسلة الإبداع القصصي

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2139

- نسخة معيبة

- سارة كوتنر

- ناهد الديب

- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة:

MÄNGELEXEMPLAR

Von: Sarah Kuttner

Copyright © S. Fischer Verlag GmbH, Frankfurt am main, 2009

Arabic Translation © 2013, National Center for Translation

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤-٢٧٣٥٤٥٢٦، فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

EL Gabalaya st. Opera House· El Gezira· Cairo

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com 27354524 – 27354526. Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

كوتنر، سارة
نسخة معيبة (رواية) // تأليف: سارة كوتنر، ترجمة وتقديم:
ناهد الديب.
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣
٣٤٤ ص، ٢٤ سم
(أ) الديب، ناهد (مترجم ومقدم)
(ب) العنوان
٨٣٣

رقم الإيداع ٨٨٥٧ / ٢٠١٢
الترقيم الدولي: 2 - 079 - 216 - 978 - 977 - I.S.B.N

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي، وتعريفه بها. والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المحتويات

| | |
|-----|-------------------------------------|
| 9 | تقديم المترجم |
| 25 | الاكتئاب حدث سخيف يا للسماء!! |
| 31 | منذ عام مضى |
| 337 | خاتمة |

السعادة لا تترك خلفها ندبات

لا تتعلم من السلام الكثير

شاك بولانيك (*)

(*) كاتب أمريكي وصحفي حر، اسمه الحقيقي تشارلز ميشيل بالانيوك، من مواليد عام ١٩٦٢. تم تحويل باكورة إنتاجه الروائي "نادى القتال" *Fight Club*، والذي صدر عام ١٩٩٦ إلى فيلم سينمائي لاقى نجاحاً كبيراً. تمت ترجمة روايته الثانية *Diary* إلى اللغة الألمانية بعنوان: البروتوكول الأخير.

تقديم المترجمة

تتسم الثقافة الألمانية بطابع معين له خصوصيته، مما يجعلها جديرة بالدراسة، حيث مرت دولة ألمانيا خلال القرن الماضي بحربين عالميتين، ثم عانت لفترة من تقسيمها إلى شطرين، تبعتها مرحلة إعادة توحيد الألمانيين، وكان لكل هذه المراحل التاريخية مردود واضح على الثقافة والأدب الألماني، بالإضافة إلى كون اللغة والثقافة الألمانية ليست مقصورة على دولة ألمانيا الاتحادية فحسب، بل تضم كلاً من النمسا وسويسرا ودولة ليشتن شتاين.

لقد عُرف عن الألمان على مدى القرون أنهم شعب أنجب الفلاسفة والأدباء والموسيقيين، الذين تركوا بصمة واضحة في تاريخ الثقافة البشرية؛ فقليل عنهم: إنهم شعب "الأدباء والمفكرين"؛ أمثال: جوته صاحب قصة "فاوست"، وشيللر مؤلف مسرحية "دسياسة وحب"، وكذلك الأخوان هاينريش وتوماس مان، كاتباً ثلاثية "بودن بروكس"، وبرتولد بريشت الذي اقترن اسمه بالمسرح الملحمي، ومن الفلاسفة: ليبنتز، ونييتشه، وإيمانويل كانط، وشوبنهاور، وغيرهم..

أزعم أن القارئ العربي لم يتعرف على الثقافة الألمانية بالقدر الكافي، بسبب قلة عدد الكتب المترجمة عن اللغة الألمانية مباشرة-

أعتبر نفسي ضمن من قصّر في هذه المهمة - وقد حاولت من خلال ترجمة الكتاب، الذي أضعه بين يدي القارئ، أن أقوم بتعريفه بإحدى الكاتبات الشابات، التي أرادت أن تقدم للقارئ الألماني مثلاً واضحاً على عدم اقتناعها بالحديث الدائر في الأوساط الثقافية عن الكتابة الأنثوية أو أدب المرأة، باعتباره أدباً يختلف عن الأدب الذي يكتبه الرجل.

الأدب الألماني بين الرجل والمرأة

ارتبط في أذهان الكثيرين أن الأعمال الأدبية التي كتبتها المرأة تدور في مجملها حول تيمات محددة ومكررة، أهمها الظلم والاضطهاد الذي تتعرض له المرأة، والمعاناة التي يسببها لها الرجل. ربما كان يمكن قبول هذه المقولة حتى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي، عندما تحقق بالانفتاح الثقافي والاجتماعي نتيجة من نتائج التطور الحضاري الذي شهده العالم، نشطت على إثر ذلك في الغرب عامة أصوات تنادي بتحرير المرأة.

صحيح أن المرأة قد نالت بعض حقوقها، كي تتساوى مع الرجل، إلا أنها في كثير من الأحيان ظلت أسيرة للنظام البطريركي، الذي يفرضه الرجل في كثير من مجالات الحياة بدءاً من الأسرة

وانتهاءً بالمؤسسات. ربما لا يعرف الكثيرون أن المرأة الألمانية ما زالت تتقاضى راتباً أقل من الرجل، رغم تساويها معه في نوع العمل وساعاته.

بعد قرون انفراد فيها الرجل بكتابة الأدب، بدأت المرأة تشاركه الكتابة الأدبية؛ لأنها على يقين أنها تملك الإمكانيات الإبداعية نفسها التي يظهرها الرجل.

وقد تشعبت آراء الأوساط الثقافية الألمانية حول سؤال مهم وهو: هل يوجد فعلاً خطاب أنثوي في مقابل خطاب ذكوري؟ مع الأخذ في الاعتبار أن مفهوم الأدب العام يكمن في تصوير المشاعر وتشغيل المخيلة من واقع الخبرة الفنية والجمالية.

مر تعريف مصطلح الأدب النسائي الألماني بمراحل متعددة، بدأت في نهاية القرن الثامن عشر، عندما صدرت رواية "حكاية الأنسة فون شتيرن هايم (1771) لصوفي فون لا روش" دون ذكر اسمها. وكانت هي أيضاً أول امرأة تصدر مجلة نسائية ألمانية اسمها "بومونا لفتيات ألمانيا" 1783 - 1784 *Pomona für Deutschlands Töchter*. استمر دور المرأة الأدبي هامشياً على مدى الحقب الأدبية المختلفة، حتى المرحلة الواقعية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فكانت كاتبات هذه المرحلة يكتبن الروايات ولكن بهدف التربح وكسب العيش في المقام الأول.

ارتبط مسمى الرواية النسائية الألمانية في الثلاثينيات من القرن العشرين بالترويج للموضوعات التي ترتبط بحياة المرأة عامة، حتى لو كانت من تأليف الرجال. كانت المرأة خلال هذه الفترة هي المتلقي الأساسي، تكتب عنها ومن أجلها الرواية.

شهدت الفترة بين الستينيات والثمانينيات من القرن العشرين تحولاً جذرياً في الموضوعات الأدبية عامة بسبب الأحداث السياسية التي سادت العالم، وأصبحت مقاومة كل أشكال الاضطهاد سمة عامة في الأدب، ومن ثم فرضت موضوعات؛ مثل: الظلم الواقع على المرأة في المجتمعات، وأثر مشاكلها الحياتية نفسها على الأدب.

وبدأ من ناحية أخرى النقاش يحدد عند تحديد الفرق بين الجنس والنوع *Sex and Gender*، وطرح السؤال: لماذا التفريق في المسميات؟ هل الأدب هو نوع ذكوري في الأساس، حتى نحتاج مسمى للأدب النسائي؟

أعادت مرحلة ما بعد النسوية خلال التسعينيات من القرن الماضي طرح مسمى الأدب النسائي، واتفق على تعريفه باعتباره: الأدب الذي تسطره يد النساء. وأثبتت الكاتبات الألمانيات من خلال أعمال أدبية عديدة أنهن قادرات على استخدام اللغة بوصفها وسيطاً، لكي يثبتن أنفسهن ككاتن يفكر، ويفصح عن وجوده وعن ذاته، وأثبتن

أيضًا من خلال كتاباتهن، أنهن يملكن القدرة على خلق مسافة داخلية بين الأنا الواقعية وضمير المتكلم في كتاباتهن. صدرت في ألمانيا على مدى سنوات أعمال أدبية رفيعة المستوى، شهد لها القاصي والداني. ورفع من شأن الأدب النسائي الناطق بالألمانية فوز عدد من الأديبات بجائزة نوبل مثل ألفريده يلينك (النمسا، ٢٠٠٤)، هيرتا مولر (ألمانيا، ٢٠٠٩).

أما القرن الحادي والعشرون فقد حمل معه، بعد أن أصبح العالم بأكمله قرية صغيرة، معالجة موضوعات جديدة فرضها عصر العولمة على الرجل والمرأة على حد سواء. إلا أنه لا أحد ينكر أن المرأة أثبتت من خلال أعمال أدبية عديدة، أنها قادرة على التعبير عما يدور حولها كما يدور بداخلها مثلها مثل الرجل على حد سواء.

جاءت رواية سارة كوتتر "نسخة معيبة" خير دليل على أن العبرة في نجاح العمل هي في الأساس اختيار الموضوع، وكيفية معالجته؛ والدليل على ذلك أن الساحة الأدبية في ألمانيا استقبلت الرواية بترحاب شديد، ولم يتطرق أحد إلى كون الكاتبة سيدة.

لقد اختارت كوتتر موضوع روايتها وعنوانها بذكاء شديد، يدل على أنها قد لمست وترًا حساسًا لدى الإنسان، الذي يعيش اليوم في ظل الظروف الحياتية المتشابكة، والتي فرضت على الجميع الانخراط في دوامتها.

ما النسخة المعيبة؟

ينص القانون الألماني المنظم لتسعير الكتب على تعريف النسخة المعيبة بأنها: نسخة من كتاب به عيب خارجي ظاهر، نتج عن التخزين أو النقل - وليس أثناء عملية التصنيع - مما يسمح ببيعه بسعر أقل من السعر المحدد، على أن يظهر ذلك للمشتري في شكل علامة واضحة للعيان.

لماذا اختارت الكاتبة الألمانية سارة كوتتر "نسخة معيبة" عنواناً لأولى رواياتها؟

لم تطلق كوتتر هذا الاسم على نسخة الكتاب، ولا على الرواية، وإنما قصدت بها بطلّة روايتها التي اختارت لها اسم كارو هيرمان.

ولما كانت الثقافة الألمانية تهتم بتتبع أصل الأسماء فقد وجدت بالبحث أن اسم كارو هو اختصار لاسم كارول؛ وأصله في اللغة الجرمانية القديمة كارلا. ثم تحور في اللغة اللاتينية إلى كارو لا، ويعني السيدة الحرة والقوية، وكذلك يعني السيدة الحاملة. فإذا حاولنا إيجاد تفسير لاختيار الكاتبة لاسم كارو لبطلّة رواية بعنوان "نسخة معيبة"، لوجدنا أنها قامت ببتّر الاسم الأصلي الكامل، ومن ثم أصبح ناقصاً ومعيباً.

فكارو تقول عن نفسها إنها إنسانة متعبة (بكسر العين).
ويصفها صديقها الوفي بأنها نسخة معيبة، لما لمسه منها من عصبية،
ونفاد صبر، فضلاً عن ثورتها لأتفه الأسباب، وكذلك شعورها
بالحزن وبكانها بصفة مستمرة.

إذن، فالقارئ يعرف من الصفحات الأولى للرواية أنه أمام
شخصية، تقر بما فيها من صفات معيبة، ومن ثم يستشف أن الكاتبة
أرادت بذلك أن تقترب من موضوع شائك، اعتبر لفترة طويلة من
التابوهات الممنوع الاقتراب منها، وهو موضوع الاكتئاب الذي
انتشر بين فئات متعددة من المجتمعات، خاصة الغربية منها، بعد أن
فقد الفرد شعوره بالطمأنينة على يومه وغده، مما جعله فريسة
للاكتئاب، ذلك الشبح الذي أصبح يشكل تهديداً للنفس البشرية، تلك
النفس البشرية التي تشبه جبل جليد، يخفي الجزء الأكبر منه عن
العيون، ولا يبدو منه على السطح سوى الجزء الأصغر.

فهناك كثير من البشر يعانون في صمت من اضطرابات نفسية
متعددة، يمكن إرجاع أسبابها إلى طبيعة الحياة اليومية ذات الوقع
السريع، وتعقيداتها المتنامية. يأتي على رأس هذه الأمراض
الاكتئاب؛ ذلك المرض الذي أصبحنا نطلق عليه مرض العصر، الذي
لم يعد يفرق بين كبير وصغير، ولا بين غني وفقير، الرجل والمرأة

أمامه سواء. ومن المعروف أن البعض يطلق على الاكتئاب "المرض الأخرس".

طالعنا مؤخرًا بعض الإحصاءات التي تشير إلى أن هناك ١٤٠ مليون مريض بالاكتئاب على مستوى العالم، وفي مصر لا يقل العدد عن مليون و٤٠٠ ألف مريض بالاكتئاب. (راجع جريدة الأهرام ١٩/١٠/٢٠١١) مما يتضح معه أننا لسنا بمنأى عن هذا المرض اللعين الذي أخذ يزحف إلينا.

من منا لم يمر بمرحلة حزن شديد أو إحباط!! من منا لم يتعرض لهزة عصبية أو عاطفية، غير أن هذا لا يعني بحال، أن كل من مر بهذه التجارب يعاني من اكتئاب مرضي، إنما هي أعراض اكتئابية يمر بها الأشخاص بين الحين والحين بسبب ما يعانونه من أعباء الحياة وكروبها، لا تلبث أن تزول دون الحاجة إلى تدخل طبي.

ما الفرق إذن بين هذا وذاك؟ ماذا نعرف عن الاكتئاب بصفة عامة، وكيف صورته قلم الكاتبة الألمانية سارة كوتتر في روايتها الأولى "تسخة معيبة"، بصفة خاصة؟ ولماذا اختارت معالجة هذا الموضوع بالذات في الوقت الحاضر؟

حاولت كوتتر من خلال بطلتها روايتها المرأة الشابة "كارو هيرمان" تناول موضوع الاكتئاب، الذي ربما اعتبره البعض

موضوعًا مكرراً، بأسلوب جديد، جعلها تلقى نجاحًا كبيرًا وتتصدر به قائمة الكتب الأكثر بيعًا لعدة شهور.

تعرضت كارو، بطلة الرواية، لعدد من المشاكل والأزمات، جعلتها لا تقوى على الاستمرار في حياتها اليومية بشكل عادي، فقررت أنها بحاجة إلى علاج نفسي متخصص، إلا أنها ترددت كثيرًا قبل الإقدام على هذه الخطوة، مثلها مثل كثير من المرضى النفسيين. فرغم أن الاكتئاب قد انقض عليها بوجهه القبيح، وأحال حياتها إلى جحيم لا يطاق، فإنها آثرت أن تعاني في صمت، في محاولة لإخفاء مرضها عن المحيطين بها، حتى لا توصف بالجنون.

يرجع السبب في هذا الخلط بين المرض النفسي والجنون إلى نقص المعلومات الصحيحة عن مرض الاكتئاب، الذي انتشر بشكل ملحوظ خلال السنوات الأخيرة، وأصبح يعالج كغيره من الأمراض مثل ارتفاع ضغط الدم أو السكر على سبيل المثال، إذا ما خضع للعلاج في مراحله الأولى. فالإكتئاب درجات يبدأ بفترات طويلة من القلق، ويتدرج إلى أن يصل إلى حالات الإكتئاب الشديد.

أما سارة كوتتر فقد استطاعت بقلم الأديب أن تنقل للقارئ صورة واقعية متناهية من الدقة العلمية عن أعراض الإكتئاب وأسبابه، وكذلك إمكانات علاجه، ولكن دون أن تخلو الرواية من

لمحات من المرح والفكاهة، مما يجعل الرواية مادة ثرية للمعرفة والتسلية في ذات الوقت.

نتعرف على بطلة الرواية في الصفحة الأولى من الرواية وهي جالسة أمام طبيب نفسي لتطلب منه العون. فتصف البطلة على مدى الرواية الخوف الذي ينتابها، كما لو كان بركاناً ثائراً، أخذ يصب حمماً من الحزن واليأس وخيبة الأمل بداخلها، بعد ما تعرضت له من صدمات متتالية، فاقت طاقة احتمالها.

تستعرض الكاتبة أعراض المرض من خلال وصف البطلة للمشاعر المتباينة التي تنتابها، بأسلوب أدبي متميز. شعرت بطلة الرواية كارو برغبة في الانطواء والبعد عن حياتها اليومية المعتادة، وكذلك دائرة معارفها؛ بل وأصبحت تنظر نظرة تشاؤمية إلى حاضرها ومستقبلها، مما انعكس عليها في شكل أعراض عضوية؛ فأصبحت تعاني اضطرابات في النوم، وفي ضربات القلب، وكذلك فقداناً للشهية وانعدام الرغبة في الحركة أو ممارسة أي نشاط.

أما أسباب المرض، فقد تمكنت سارة كوتتر بحرفية أن تدخل بعض المعلومات العلمية الموثقة في نسيج الرواية، بلغة أدبية بالغة البساطة. فانطلاقاً من المعلومات التي أثبتتها الأبحاث العلمية بالأرقام؛ جاء فيها أن المرأة أكثر تعرضاً للإصابة بالاكتئاب من الرجل، وأن الاكتئاب مرض وراثي.

قامت الكاتبة بتصوير شخصية أم البطلة باعتبارها مريضة
اكتئاب سابقة، تعرف معنى معاناة المرأة من هذا المرض المزعج،
وتسعى جاهدة إلى إقناع ابنتها بطلب المساعدة الطبية دون حرج، بل
وتقوم بدور المرشد لها أثناء فترة العلاج.

لم تغفل كوتتر دور التربية الخاطئة، وما تتركه من جروح
غائرة في نفس الطفل، وكيف أنها لا تطفو على السطح، إلا عندما
تظهر حالة الاكتئاب الفعلي. جاء على لسان الطبيبة النفسية المعالجة
لكارو، بطلة الرواية، أن والديها كانا يتركانها وحدها لفترات طويلة،
وهو ما تذكرته بطلة الرواية بالفعل، لقد استرجعت بطلة الرواية
إحساسها الشديد بالوحدة، ذلك الإحساس الذي لم يفارقها، حتى وهي
تعيش وسط الناس.

تذكرت كارو أيضًا أن أمها كانت تعاملها أثناء طفولتها بقسوة،
لما كانت تعانيه من اضطراب مزاجها أثناء فترة الاكتئاب، التي
مرت بها الأم، ومن ثم فإنها لم تمنح ابنتها الدعم العاطفي الذي
يحتاجه الطفل من والديه.

يعد انفصال الوالدين أحد أهم الأسباب التي تؤثر في نفسية
الأبناء بصورة سلبية. ربما يستغرق ظهور تأثيرها بعض الوقت، إلا
أنه لا يمكن إغفالها، ولا تلبث أن تطفو على السطح، ويظهر تأثيرها

السلبى عند التعرض لهزة نفسية شديدة. يظهر ذلك واضحاً وجلياً في حالة كارو، بطلة الرواية. فبعد انفصال والديها شعرت الابنة أنها تفقد الأب في حياتها. حاول الأب أن يظهر لابنته حبه وحنانه بطريقة الخاصة، إلا أنه لم يستطع توصيل هذه الأحاسيس إلى ابنته.

جاء قران البطلة باللجوء إلى طبيب نفسي، بناء على نصيحة الأم - مريضة الاكتئاب السابقة - كأكبر دليل على زيادة وعي المجتمع الغربي بأهمية وضرورة الاستعانة بمختصين، ليتولى العلاج بأسلوب سليم، أملاً في الشفاء الذي لم يعد بعيد المنال.

أيدت الكاتبة هذه الفكرة من خلال اطلاع القارئ على أساليب العلاج الحديثة، ووصفتها بصورة أدبية، لتزيل رهبة هذه الخطوة عن الذين يترددون في بدء العلاج، ولتكسب تعاطف القارئ مع البطلة، ومشاركتها معاناتها أثناء فترة المرض والعلاج، ثم ليسعد معها باقترابها من الشفاء.

حازت التجارب العاطفية التي مرت بها بطلة الرواية على نصيب كبير من الرواية؛ فاستطاعت الكاتبة أن تعرض أنماطاً مختلفة من الرجال، ولكن دون العزف على وتر ثنائية الرجل والمرأة، التي طالما طرحت للنقاش، ولا لفكرة الاضطهاد الذي تتعرض له المرأة في المجتمعات الذكورية.

يلعب الرجل في الرواية أدواراً متعددة؛ فهو الأب الذي يهمل دوره في تربية ابنته، وهو الصديق الوفي، الذي يقف بجانب صديقه، ليظهر المعنى الحقيقي للصديق وقت الشدة، ثم هو صورة أخرى من الصديق الذي تقف سلبيته وأنايته حائلاً في طريق ارتباطه برفيقته. وأخيراً تبث البطل على رجل يحتويها، بكل ما لها وما عليها، ويشاركها معاناتها بسلوكة المتحضر، دون أن تشعر أنه يمن عليها.

ابتعدت الكاتبة في روايتها "نسخة معيبة" عن الإشارة بإصبع الاتهام إلى الرجل، باعتباره هو المسئول عن كل مشكلات المرأة ومعاناتها، ولم تحاول الانضمام إلى طابور طويل من الأدبيات، يطلق على ما يكتبه "الأدب النسائي" أو "الأدب النسوي"، وإنما اختارت لنفسها أسلوباً خاصاً بها جعلها تفرض اسمها على الساحة الأدبية في ألمانيا.

من هي هذه الكاتبة الشابة، التي اقتحمت الساحة بروايتها الأولى؛ فاستطاعت أن تتقدم قائمة الكتب الأكثر بيعاً لعدة شهور؟

ولدت سارة كوتتر في برلين الشرقية في ٢٩ يناير عام ١٩٧٩. سافرت خلال سنوات دراستها إلى لندن للعمل كجليسة للأطفال، حيث منحت لها الفرصة للتدريب في مكتب مجلة "شبيجل" الألمانية في لندن.

تعرف المستمع الألماني على سارة كوتتر عام ٢٠٠٠ من خلال صوتها كمقدمة لبرامج الشباب في إذاعة برلين، مفتدية في ذلك بالدهاء، الذي يعمل مذيغاً في الإذاعة الألمانية. ثم عرفها المشاهد الألماني منذ ٢٠٠١ كمقدمة لبرامج حوارية متميزة. كان لسارة كوتتر حضور طاغ وقبول كبير لدى جمهور المشاهدين في عدد من قنوات التلفزيون الألماني.

اختصت كوتتر إلى جانب هذا النشاط بكتابة عامود ثابت في جريدة "زود دويتشة تسيتونج" المعروفة. لاقى هذا العامود نجاحاً كبيراً، دفع دار النشر المعروف "فيشر" لإصدار المقالات مجمعة لما سبق نشره في كتاب من جزأين.

وفي عام ٢٠٠٩ فاجأت كوتتر الجميع بنشر أول رواية لها بعنوان: "تسخة معيبة". وعلى الرغم من أنها باكورة إنتاجها الروائي، فإن الرواية استمرت لعدة شهور على رأس قائمة الكتب الأفضل في ألمانيا. ربما يمكن إرجاع نجاح الرواية إلى كونها ليست مجرد وصف تجربة سيدة شابة، تفقد عملها، ويتركها صديقها فتصاب بحالة اكتئاب، استمرت لمدة عام، ولكنها جاءت في الواقع لتلمس روح العصر بصدق متناهٍ، وتخطب الرجل والمرأة والشباب والشيوخ على حد سواء.

نالت الرواية إعجاب الجميع بسبب قدرة المؤلفة على استخدام لغة سهلة، استخدمتها في وصف أحداث الرواية وتصويرها، وثانيًا وهو الأكثر تمييزًا: قدرتها على وصف الحالة النفسية للبطلة، وخاصة نوبات الخوف التي تنتابها.

وصف بعض النقاد أسلوب كوتنر بالسهل الممتع، لدرجة جعلت البعض يتصور أن الكاتبة تصف تجربة شخصية تعرضت لها، مما جعلها تؤكد على الملأ، أن الوصف من وحي خيالها، وما جمعت من معلومات عن مرض الاكتئاب.

قدمت الكاتبة الدليل على تمكنها من أدواتها في حفل التوقيع على النسخ الأولى من الكتاب، الذي حضره ما يزيد على خمسة آلاف مشاهد. أدارت فيه الحوار بنفسها باقتدار كوتنر المذيعة والصحفية اللامعة ومؤلفة الكتاب في ذات الوقت، فاستطاعت أن تسيطر على الجمهور لمدة ساعتين كاملتين؛ تقرأ من روايتها والحاضرون يستمعون لها بانبهار شديد.

ملحوظة:

تفرض على الأمانة العلمية في ترجمة الرواية أن أقر، بأنني سمحت لنفسي أن أحرر في بعض المواقع - القليلة جدًا - من الترجمة الحرفية، فحاولت أن أوصل للقارئ المعنى الذي قصدته

المؤلفة، بأسلوب يتوافق مع طبيعة ثقافتنا العربية، ولا يחדش حياء القارئ، مسترشدة في ذلك بقول الكاتب الألماني الشهير جوته في شأن الترجمة، حيث قال ما معناه: الالتزام بالحرفية بقدر الإمكان، والتصرف بحرية عند اللزوم.

الاكتئاب حدث سخيؑ

يا للسماء!!

يُتصرف طبيبي النفسي الجديد كما لو كان أحد نجوم البوب؁
يجلس خلف مكتبه بكل ثقة وثبات؁ وأمامه زجاجة مشروب من النوع
الجديد "بيوناده"؁ ويرسم على وجهه ابتسامة شماتة.. تشبه ابتسامة
مقدم البرامج الوسيم نيلز روف.

أفكاري تتشتت؁ فرغم أنني أعرف مشروب بيوناده كما أعرف
نيلز روف من واقع الحياة اليومية؁ فإنني لا أتصور أن يوجد في
العيادة النفسية التي أتردد عليها.

أتوقع أن تكون العيادة النفسية التي أعالج فيها مكانًا أقل
عصرية من هذه العيادة. لا أعرف ماذا يعني كل ذلك بالنسبة لي؟
أفكر فيما إذا كانت مصارحتي للطبيب بما يجول في خاطري سوف
تخفف من توتر الموقف. قلت له:

- تشبه نيلز روف بعض الشيء ولكنك أكثر منه رجولة!

يبدو أنني عندما نطقت العبارة بدت كما لو كانت إساءة أكثر
منها دعابة.

رأيه مشابه لرأبي.

بدأت أوجز في الكلام وأؤكد أنني أعتبر نيلز روف شخصاً
ذكياً جداً وشديد الحضور، أما هو - أي طبيبي النفسي الجديد - فهو
أقل من نيلز روف عجرفة، ولكنه على العكس منه تماماً، فهو يتمتع
بثقة بالنفس، وذلك برابطة عنقه الأنيقة مع قميصه الوردي ورأسه،
بقصة شعره الشبابية.

عموماً، فأنا أرى طريقته غير التقليدية في اختيار كلماته ليست بالأمر
السيئ، ثم لو كان الاكتئاب حدثاً سخيلاً فإن الأمر بالتالي يعتبر عادياً.

والآن أريد أن أعيد بيع تذكرة دخولي لهذا الحدث لدى وسيط
إعلاني، فهل هذا ممكن؟

للأسف لا!

لذلك فأنا هنا، أنا هنا مرة أخرى.

لقد عدت أعاني من نوبات الخوف الذي ينتابني فضلاً عن
شعوري بالتعاسة والحزن.. يزيد هذا الخوف من خوفي ومن حزني
وتعاستي.

ربما يمكن أن نصفه بأنه شكل حلزوني من الخوف، إنه الخوف من الخوف.

أعرف كل ذلك وأفهمه جيدًا.

ومن الناحية النظرية، فطبيبي النفسي الذي يشبه نجوم البوب يعرف هو أيضًا كل ذلك ولكنه - وهو الأهم - لم يعرفني أنا بعد، أما أنا فقد اعتدت على عيادته وممرضيه؛ لذلك فأنا أستشعر ميزة ألفة المكان.

فهذا الطبيب ما هو إلا بديل لطبيبي النفسية الدكتور كليفه التي تعرفني منذ عام كامل، تعرف حكايتي وأوجاعي كما تعرف خوفي الحلزوني ودموعي، ولكنها لا تعرف مقدم البرامج نيلز روف. كانت طبيبي تشرب المياه وتسمعي باهتمام وجدية، كنت معجبة جدًا بالدكتورة كليفه، ويبدو أن زوجها كان هو أيضًا معجبًا بها؛ فهي الآن ومنذ عدة شهور في إجازة لرعاية الطفل.

لقد بدأت معالم هذا الحدث السعيد تظهر عليها منذ عام، وقتها فرحت معها بهذا الحدث السعيد؛ فقد كنت مثل معظم المرضى في بداية مراحل علاجهم أعتقد أنني لن أكون بحاجة إليها بعد عدة شهور.

وداعًا يا دكتورة كليفة، حظ سعيد مع أطيب التمنيات للقادم الجديد، من المؤكد - وأنت الطبيبة النفسية - أن تربية طفلك ستكون على أفضل ما يكون. لن نلتقي خلال الفترة القادمة، وأعتقد أن ذلك أفضل! أليس كذلك؟

واليوم وبعد مضي عام، ها أنا ذا في الغرفة نفسها وفي عيني دموع جديدة، والخوف الجديد القديم في ذات الوقت يملؤني في حضور طبيب نفسي جديد.

أنا من أنصار التشخيص الواضح المحدد كالسيف؛ لأنه يعد بالشفاء، نسمع وعودًا كاذبة بأنهم - أي الأطباء - قد تعرفوا على أصل المشكلة وأن أمك سوف تتولى كل شيء إلى أن تتزوجي، وقتها سيكون كل شيء على ما يرام.

أنا شخصيًا أفضل - مثلاً - بتر ساق بسبب التشخيص الدقيق، عن إصابة بنوبات الخوف المتلاحقة والتي لا يفهما أحد ولا يمكن بترها ولا التخلص منها!

الواقع أن هذا هو الوضع بالنسبة لي؛ فأنا ما زلت أسير على قدمي ولكنني منغمسة في دورة جديدة من الخوف.

الأمر يبدو كما لو كان الفرد قد فاز بتذاكر غالبية الثمن لحضور حفل غنائي لأحد المهرجانات، بينما هو ليس لديه رغبة في حضور هذا الحفل أصلاً.

إن حالة الاكتئاب تشبه حفلاً لمادونا: فهو فعلاً حدث عيادي ولكنه حدث فظيع ولا ضرورة له. يبدو أن الطبيب النفسي يفهم عمله كما يجب.

لا بأس، لأنني مذبذبة وخائفة فقد خارت قواي وامتلأت بمعلومات عن نفسي من كل شكل ولون، معلومات تجمعت في رأسي وراحت تتأرجح على مدى عام من العلاج النفسي.

لقد كنت على مدى العام مطيعة، تناولت عقاقير ضد الاكتئاب، نظمت حياتي، وأحسنت لِنفسي، كما حاولت أن أشعر بنفسي بدرجة أكبر؛ ولذلك ويا للعنة! فأنا أشعر بالرضا للمرة الأولى منذ فترة طويلة وربما بالسعادة. وفي هذه الفترة الرائعة من إحساسي بالرضا في مرحلة بدأ الحظ فيها ينمو ببطء، في هذه اللحظات الجميلة يطل الخوف الكئيب بوجهه القبيح بين قدمي اللذين ما زلت أسير عليهما فأنكب على الأرض بينما الخوف يسخر مني.

أنا فعلاً جادة؛ فأنا على استعداد أن أستقبل تشخيصاً بتاراً قاطعاً، ولا مانع أن يكون مفرغاً، أنا فعلاً على استعداد لاستقباله فهو كخبز الذبيحة في الكنيسة، لا طعم له ولكن وجوده أمر مؤكد.

يبدو أن طبيبي النفسي - نجم البوب - يملك أدواته وعنده
رغبة في تحديد التشخيص القاطع.

المشكلة الوحيدة: أنه ليس لديه فكرة عني، لا يعرف شيئاً عن
التاريخ الخاص بالسبعة وعشرين عاماً التي هي سنوات عمري،
وخاصة العام الأخير منها بكل ما ترتب عليه وكل ما أنا فيه في مثل
هذا الزمن اللعين!

يبدو أن الأمر سوف يستغرق بعض الوقت وليس عشر دقائق
فقط؛ فالطبيب النفسي لديه وقت، وزجاجة المياه الغازية ما زالت
ممتلئة.

منذ عام مضى

أنا إنسانة متعبّة

يبدو أن الموضوع أمر عرضي.

يبدو الأمر طريفاً ومداعباً بعض الشيء، بل وساخراً من ذاته.

في واقع الأمر يبدو الموقف مثل صورة الحبيبة كما يريدتها الحبيب: لا هي شديدة الظرف والعصرية. وكوول (كما يقول الشباب)، ولا هي بالمرأة الناضجة، ربما يريد الطبيب أن أشترك معه في تجربة فريدة.

أنا إنسانة متعبّة:

فأنا سريعة الغضب، حزينة، يمكن شحني بسرعة، فضلاً عن كوني جمهورية الصوت.

يبدو الموضوع في أول الأمر لطيفاً بالفعل؛ فكارو - التي هي أنا - إنسانة حساسة جداً؛ فبينما يشاهد بعض الشباب عنق زجاجة الكوكاكولا وهو يطير على شبكة الإنترنت دون أن يظرف لهم رمش، فمن الجميل أن يكون هناك من لا يزال مرهف الإحساس.

ولكني أستطيع أن أؤكد أن هذا الأمر مرهق للغاية، مرهق لمن حولي، ومرهق لي أنا على وجه الخصوص.

الأحاسيس مجهدّة؛ فالكل يعرف أن الحزن والألم والصدمات كلها أمور صعبة جدًا، الكل يتفق على ذلك. ولكن الفرح أيضًا مجهد، فلا شيء يثير الإنسان أكثر من أن يكون بجانب شخص حبيب إلى نفسه ولكنه في ذات الوقت يشعر بحاجة شديدة إلى أن يكون أكثر قريبًا منه، حتى لو عانق هذا الشخص واحتضنه بشدة فهو يحتاج إلى الاقتراب منه أكثر وأكثر. إنه ما يسمى بالتسلل داخل المحبوب (باستثناء التلاحم الجسدي عند الاتصال الجنسي) فإنه لا يمكن التسلل داخل المحبوب، وبالتالي لا يمكن الوصول إلى القرب المنشود.

الشوق إلى المحبوب، يا للرومانسية التي يوصف بها الاشتياق إلى الحبيب كريس دا بوج *Chris-de-Burgh* (*)!

الاشتياق إلى المحبوب شيء فظيع، فإذا شعرنا بالاشتياق، فلا شيء يلهينا عن التفكير ولا حتى بالذهاب إلى السينما؛ لأن الأفلام تنتهي دائمًا نهاية سعيدة عندما يلتقي الحبيبان.

(*) اسمه الحقيقي كريستوفر جون دافيسون من مواليد عام ١٩٤٨. مؤلف أغاني ومغني بريطاني، ذاعت شهرته بعد أغنية "السيدة ذات الرداء الأحمر" ١٩٨٦. (المترجمة)

أما فرحة اللفظة إلي اللقاء فليست هي الفرحة الكبرى كما يظن البعض، فما هي إلا الأخت التوأم للاشتياق، وبالتالي فهي أيضاً كلام فارغ. هذه أنا، وهذه طريقة تفكيري. أنا إنسانة متعبّة، ولا أدعي الظرف بقولي هذا، فأني إحساس داخلي سواء كان إيجابياً أو سلبياً يتضاعف في فترة وجيزة ليتحول إلى مأساة، فتتكون بداخلي كرة من نار، وأهيج كالثور لا أرى أمامي إلا اللون الأحمر.

الأشياء الصغيرة تثيرني، بل ويمكن أن أصبح كالفيل بسبب ذبابة، ليس أي فيل وإنما الفيل الذي يقتل للانتقام.

حدث ذات مرة أن أخذ شخص مكاناً لركن السيارة كنت أنا الأحق به وذلك بعد بحث استمر ثلاثة أرباع الساعة، فما كان مني إلا أن نزلت من السيارة وبدأت أقارع السيدة التي أخذت المكان بالحجة، ولما فشلت في ذلك بدأت أبكي من شدة ثورتي وأخذت أسب السيدة بأفبح الألفاظ. وحيث إنها كانت أمّا كما اتضح لي من بعض مقاعد الأطفال الموجودة داخل السيارة فقد أمطرت الأطفال رغم عدم وجودهم بالسيارة بوابل من السباب والشتائم. في هذه المواقف لا أستطيع التوقف، فالعرض يستمر بين صياح ونزاع، صراخ ووعيد، إلى أن تخور قوى الشخص الذي أمامي ويضطر إلى

الاعتذار. ولما كان هذا الاعتذار لا يرضيني في حالات كثيرة فأنا دائماً لست راضية، بل وثائرة وأشعر بخيبة الأمل والحزن.

تسبب الضوضاء التي أثيرها ضيقاً لمن حولي، أما المشاهد للوضع عن بعد فالأمر مسلّ جداً: انظر تعال لتري كارو تخرج دخاناً من أذنيها، انظر كيف اكفهر وجهها واحمرّ وهي تصيح وتقفز، إنه حقاً مشهد ظريف!!

ربما كانت مراقبة الموقف عن بعد فعلاً شيئاً لطيفاً وظريفاً إلا أنني لا أقبل أن يراقبني أحد عن بعد. مجرد التفكير في كوني قد وقفت وأنا أشتعل غضباً أمام أم تقود سيارتها الصغيرة بداخلها كرسي للأطفال وأسبها بأنها خنزيرة، مجرد هذا الإحساس يثيرني ويزيد من غضبي.

اعتاد الأشخاص الطبيعيون في مثل هذه المواقف أن يسارعوا بالعد من واحد إلى عشرة، أما أنا فلا يمكنني الوصول حتى إلى رقم ٢، وإنما أنفجر فوراً، كما لو كنت أنطلق بسيارة على الطريقة "الأمريكانية" - كما يقولون - من سرعة صفر إلى مائة، فلو كنت أقود سيارة سباق لالتف حولي شباب القرية لتشجيعي.

وبمرور الوقت أشعر بالحرص الشديد من اضطرابي وقلقي؛ صحيح أنني لا أشعر بالحرص ساعة أن أسب أطفال السيدة - سارقة

مكان ركن سيارتي - وأدعو عليهم ألا يتلقوا تعليمًا أبدًا وابقوا
جهلاء، كذلك لا أشعر بالحرَج بعدها بعدة ساعات أمضيها في
الاتصال بأصدقائي كي أحكي لهم الظلم الذي وقع عليّ، أما عندما
أخلو إلى نفسي فإنني أبدأ في الإحساس بالخجل، ولكن بمجرد ظهور
عدو جديد فإنني أنطلق بأقصى سرعة كما لو كنت أسرع موتور
على وجه الأرض.

أنا لا أتعلم من أخطائي.

قررت الذهاب إلى طبّية نفسية:

الواقع أنه ليس لديّ مشاكل كبيرة بالمعنى المتعارف عليه،
ولكن هذا لا يعني أنني خالية من المشاكل؛ فذاتي الغاضبة والثائرة
باستمرار تتعبني جدًا وتسبب لي نوعًا من عدم التوازن، لقد فقدت
وظيفتي في وكالة لإدارة المناسبات. كانت وظيفة ممتازة، فبعد فترة
التدريب تم تعييني، مما أسعدني أيما سعادة. كان عملي هو بيتي،
ولكنني فقدت الوظيفة منذ ثلاثة أشهر، والآن تقوم جدتي سرًا بتحويل
قيمة إيجار المنزل الذي أعيش فيه، وأعمل أنا بين الحين والحين
جرسونة في حانة.

كوني بلا عمل جعل لديّ من الوقت ما يمكنني من تنظيم
حياتي؛ فبدأت بتصنيف بعض العلاقات التي كانت قد انقطعت، فمنهم

من أخذ جانبًا من تلقاء نفسه، ولدى إحساس - لكي أكون أمينة في العرض - أنهم أرادوا أن يبحروا بعيدًا عن الكائن المخيف الذي هو أنا.

بالسلامة، لا بأس فأنا لست بحاجة إلي من لا يقدرني ويحبني، لن أتعثّر بل سوف أصرف أموري بنفسى بأي شكل كان، لا مفر من ذلك.. لا مفر.

جمرة أخرى تشتعل من مرتفعات حياتي ومنخفضاتها يشعلها صديقي فيليب. الواضح أننا لم نخلق لبعضنا، ولكننا نحاول منذ ما يزيد على عامين بنجاح أن نتغلب على هذه الخلافات البسيطة. في الواقع أن كل واحد منا يتصور أن الآخر أحمق، فكل شيء في فيليب يثيرني، بينما يجد هو في كثير من تصرفاتي ما يغضبه. يفكر كل منا في الفراق ولكننا لسنا قادرين على اتخاذ هذه الخطوة، أتصور أننا نشعر بالخوف من الشعور بالوحدة، فالأفضل أن نستمر في علاقة مليئة بالخلافات وتقتصر على الاهتمامات المشتركة عن ألا تكون بيننا علاقة.

هكذا نحن الشباب المتحفظين نحتاج للشعور بالأمان رغم أننا نتسم بالكسل والجبن. لست راضية عن حياتي ولكني لا أستطيع أن أقول إنني أشعر بالمعاناة، بالمعنى التقليدي، بل يمكن أن أقول إنني

لم أصل بعد إلى مرحلة النضج التي تسمح لي بتلقي العلاج. كل ما هنالك أن ندى وقتاً طويلاً وفضولاً شديداً.

أريد أن أعرف رأي طبيبة متخصصة في شخصي أنا وكيف تقيمني، يبدو كما لو أنني أريد أن يطرح لي أحد أوراقي أمامي على المائدة، أما أمي فهي خبيرة في الشؤون النفسية عامة والاختئاب خاصة، فهي ترحب بفكرة أن أتحدث إلى شخص متخصص؛ لأنها تعتقد أن شيئاً ما يدور بداخلي منذ فترة، وبالتالي رشحت لي طبيبة نفسية تعالج زميلة لها؛ وهي الطبيبة النفسية الحاصلة على شهادة التخصص.. إنها السيدة جورليس.

حصلت على موعد بالتليفون لإجراء اختبار، استخدمت الطبيبة مصطلحاً غير "اختبار" ولكن دعنا نقول الصراحة، فالمقابلة بالفعل هي بمثابة اختبار لتحديد وضع معين: هل أنا معتلة بما فيه الكفاية ليكون لي الحق في تلقي العلاج؟ هل في حياتي من العقبات ما يجعلني أحتاج إلى مساعدة؟ كل هذه الأفكار دارت في ذهني قبل اللقاء الأول مع الطبيبة، بل لقد وضعت بعض الموضوعات في الاعتبار وبدأت التجهيز لها، إلا أنني فشلت بسبب ما أحفظ به من مخزون للملابس وعلى وجه الخصوص بسبب قلة خبرتي. ماذا يجب أن يرتدي الفرد بحيث يبدو أنه فعلاً بحاجة إلى مساعدة نفسية؟

والأهم من ذلك: هل أرغب فعلاً في أن أظهر بحاجة إلى مساعدة؟
ليس من الأفضل بالنسبة لي أن يبدو كل شيء لدى على ما يرام؟
ربما تسري هنا أيضاً نفس القاعدة المستخدمة مع باقي
الأشخاص: أن يبدو الشخص طبيعياً بقدر الإمكان.. كن نفسك! أريد
أن أبقى كما أنا! *Make the most of now* (استفد أقصى استفادة من
الوضع الحالي).

استند إلى أربع دعائم للإفادة من الحاضر:

ارتديت ملابس عادية جداً، ولكنني أعددت قائمة مكتوبة بدقة
وضعت فيها نقاط الضعف في شخصيتي وعددت فيها مشاكلي (فأنا
أميل إلى نسيان الأشياء المهمة، فأنا واحدة من هؤلاء الذين يعيدون
الاتصال بالشخص الذي تعاركت معه لكي أقول له: أريد فقط أن
أضيف أن ..) كذلك أضفت للقائمة التي أعددتها ملخصاً عن أهم
الأحداث التي مرت بي خلال فترة طفولتي وشبابي. هذا ما أخذته
معي وأنا ذاهبة لأول جلسة نفسية في حياتي.

ليس لدى أي تصورات مسبقة أو مخزونة في ذاكرتي عن
شكل الطبيب النفسي عموماً، إلا أنني من الذكاء بمكان بحيث
لا يمكن أن أتوقع وجود شيزلونج للاسترخاء عليه، ولا أن أتوقع

سيده عجوز ترتدي نظارة طبية وتمسك بيدها دفترًا تدون فيه ملاحظاتها، فأنا مثقفة وواعية.

أنا مؤمنة بأن العلاج النفسي ليس عارًا كي نخفيه، فأنا أعلم أن كل واحد من بين عشرة مواطنين يعاني من الاكتئاب أو من مرض نفسي آخر، وأعلم كذلك أن الروح يمكن أن تمرض، تمامًا كما تمرض المعدة أو الأوعية الدموية، كما أعرف جيدًا أن الشخص لا بد أن يكون على استعداد كامل لأن يكون واضحًا وصريحًا كي يتلقى المساعدة.

صعدت درجات السلم الحلزوني في طريقي إلى عيادة الدكتورة جورليش، يملؤني الحماس ولكنه ربما لم يكن بالقدر الكافي لأنني بدأت أشعر بالدوار. وجدت الطبيبة في انتظاري عند الباب بقولها:

- مهلاً، مهلاً!

لقد التقطت بذلك أول عيوبي، فأنا قلقة جدًا وقليلة الصبر، فكل شيء عندي لا بد أن يتم بسرعة وبدون انتظار، كل شيء لا بد أن يتم في التو واللحظة؛ فأنا أشتري ملابس دون أن أجربها، وأعرف ما يناسبني ويليق بي، فليس لدى وقت لدخول غرف البروفة. أنا مثلاً لا أطبخ الطعام، ليس لأنني لا أجيد الطهي ولكن أعصابي لا تتحمل

الجهد المبذول. أفضل البوفيه المفتوح، فالأكل جاهز باستمرار. إذا انزلت من يدي البيضة أثناء القلي عن القالب المخصص لها، اشيتعت غضبًا لذلك فأنا أدفع في البوفيه المفتوح كي يكون كل شيء متوفرًا في التو؛ ففي هذه الحالة عليكم إعطاء الطباخ تعليمات أن تكون البيضة البديلة جاهزة في الحال، وهكذا.... إذن شكرًا!!

هذه السرعة لا تعني أنني لا أولع بالأشياء؛ فأنا أحب الملابس وأحب الطعام، السرعة عندي تعني أكثر من ذلك.. شراء ملابس جميلة أكثر والتهام طعام شهوي أكثر، لا وقت لدى لأضيعة، لن أنتظر أكثر من ذلك.

جلست في مقعد جلدي أمام الطبيبة وأنا أشعر ببعض الدوار. المقعد الذي أجلس عليه لا يشبه تلك المقاعد الوثيرة التي كان الأجداد يجلسون عليها، وإنما كان مقعدًا من المقاعد الحديثة مثل ذلك الذي يظهر في المسلسلات، مقعدًا دوارًا يقف على رجل واحدة. أعتقد أن المقعد يناسبني تمامًا؛ فأنا قلقة ومتململة وأحتاج دائمًا أن أحرك أي شيء؛ فأثناء وجودي في غرف الانتظار على سبيل المثال أتأرجح بالكرسي إلى الخلف وإلى الأمام. لو كنت أتأرجح على كرسي جدي العميق لتصور البعض أنني أعاني من التوحد، ولكنني لا أريد أن أترك هذا الانطباع عند أول مقابلة مع الطبيبة، رغم أن ذلك يمكن أن

يكون تذكرة مرور لمنحي فرصة للعلاج. ولما كنت أريد أن أظهر مشاكلي الحقيقية فإنني اكتفيت بأن أدير الكرسي يمينا ويساراً ببطء.

السيدة جورليش لها عينان زرقاوان واسعتان حادثتان ووجه عريض؛ دار في ذهني تساؤل: هل يحدد اختيار اللجان الطبية للأطباء النفسيين الجدد الذين يتعاملون مع المرضى بناء على مظهرهم؟ إذا كان الأمر كذلك فلا عجب أن تمتلك هذه الطيبة عيادة خاصة، فهي في الأربعينيات من عمرها، تسريحة شعرها القصير المموج بطبيعته، تسريحة جميلة، كل شيء فيها يبدو طبيعياً بحيث شعرت بجانبها أنني ضخمة وملبسي غير منسقة. بدأت الطيبة حديثها قائلة:

سيدة هيرمان، لماذا حضرت إلى هنا؟

لقد استعددت لهذا السؤال على أكمل وجه؛ بدأت الحديث كما لو كنت فتاة في الثانية عشرة من عمرها طلب منها أن تلقي محاضرة مملة. سردت لها مشكلاتي الحالية مع نفسي، وظيفتي التي كنت أحبها وفقدتها، ثم الأصدقاء الأغبياء الذين لم يعودوا أصدقاء، والصديق الذي لا أحبه ولكنني ما زالت مرتبطة به، حكيت لها كل ذلك بالإضافة إلى ذلك الجزء من حياتي الذي أعتقد أنه مهم نفسياً، لقد عشت طفولة مملة مع أم تشعر بالتعاسة، تذكرت أما كانت تنزلق

من بين يديها بين الحين والآخر صفعات لتستقر على وجهي، كذلك استرجعت صورة أب حنون كان خلال سنوات صباي الأولى والتي كنت فيها بحاجة شديدة إلى بعض الحب، يهتم أن يعرفني بأهميات كتب الأدب العالمي.. بالمناسبة فوالدي ووالدتي منفصلان وبعد أن تزوجت أمي أصبح لي زوج أم يحبني كابنته ولكن كما لا يجب أن يكون الحب. أما جدي الحبيب فقد توفي عندما كنت في السابعة.

أخذت نفساً عميقاً ثم اتكأت بظهري على المقعد.

هذه عينة بسيطة من العثرات التي وضعت في طريق إنسان في مستقبل حياته وبصحة جيدة. لا أعتقد أنني قادرة على أن أقنع أحداً بأنني أحيأ هذه الحياة منذ عدة سنوات. حالي على ما يرام، لقد مررت بكل هذه المراحل، ولكن كان ذلك منذ فترة من الزمن.

أعتقد أن جزئية زوج أمي تحتل مكان الصدارة في هذه الموضوعات، ولكني - والحمد لله - قد تمكنت من أن أنهى هذه المرحلة بسلام.

أما حياتي الجنسية فهي رغم كل شيء سليمة وتسير بلا مشاكل، بعد أن قاطعت هذا الجزء الكئيب من عائلتي نهائياً، رغم أن ذلك جاء متأخراً بعض الشيء.

ألقيت نظرة مبرّدة على القائمة التي أعدتها خوفاً من أن
أكون قد نسيت شيئاً منها وأنا انتظر أول رد فعل متخصص في شأن
حياتي.

أنا راضية عن أدائي اليوم ولكني قلقة، هل أحمل على ظهري
ما يكفي من البلاء لأمثل بين يدي آخرين؟ هل يكفي أن أثبت أنني
وصلت لهذه الدرجة من المعاناة كي أطلب من التأمين الصحي أن
يدفع للدكتورة جورليش مائة يورو في الساعة؟ أم أن مشاكلي تعتبر
مشاكل رفاهية زائدة؟ فأنا لست الوحيدة في هذه الدنيا التي انفصل
والداها، ووالدها مريض، فضلاً عن أن بداية حياتها الجنسية مشكوك
فيها. هل يعالج كل من له مثل هذه المشاكل على نفقة التأمين
الصحي؟

في البداية لم تقل الدكتورة جورليش أي شيء ثم قالت لي:

- خذي نفساً عميقاً!

مدهش!! فالتنفس يعتبر بالنسبة لي من الأشياء القليلة التي
أجيدها دون الحاجة إلى مساعدة. ولكني أريد أن أكون مطيعة وغير
متضجرة، لذلك فقد أطعت وأخذت نفساً عميقاً.

- والآن: حاولي التنفس إلى الداخل!

لا بأس، إذا كان ذلك سوف يتعديني؛ ولكنني في الحقيقة
لا أفهم معنى أن أتنفس إلى الداخل. ثم إنني في الوقت الحالي ليس
لدي من الأعصاب ما يجعلني أمارس تدريبات للتنفس، أنا في حاجة
إلى تشخيص!

لكي أملاً رثتي بالهواء اضطررت أن أبرز بطني إلى الأمام،
أجيد ذلك فأنا كما سبق أن ذكرت أحب الأكل، فإذا كان الأمر كذلك
فباستطاعتي أن أتنفس من مؤخرتي، ولكن لم يطلب مني أحد ذلك.
وأخيراً، تنطق السيدة جورليش بشيء صحيح، شيء مفاجئ
لشدة بساطته.

- يبدو أنهم كانوا يتركونك وحدك مدداً طويلة!!

لدي ما يكفي من الوقت كي أتعجب من هذا التشخيص
المختصر. ثم، ثم انخرطت في البكاء، كما لو كان شيئاً قد انفجر
بداخلي فانهمر فجأة خارجاً مني فأجهشت بالبكاء مثل الأطفال. كل
شيء بداخلي كان ضئيلاً وحزيناً، اجتاحتني موجة كبيرة من الألم؛
ألم العالم بأسره، شعرت بأنني مثل الذي يمسك بلوح خشبي لركوب
متن الأمواج المنكسرة فابتلعت الأمواج، المياه تحيط بي من كل
جانب؛ مياه منهمة.

ولأنني لا أريد أن أضيع الوقت فقد فكرت أثناء انهماج
الفيضان: كيف وصلت إلى قاع المياه؟ يا للعجب!! لا أعلم كيف
وصلت إلى هنا. راجعت كل مشاكلي المهمة كي أتوصل إلى الوعاء
المناسب لهذا الغطاء المبلل، ولكنه لا يناسب أيهم. فالماضي أصبح
بعيدًا بحيث لا أشعر بأي ارتباط به؛ لذلك استمررت في البكاء دون
الوصول إلى نتيجة مرضية. إن محاولتي تحليل الذات جاءت في
شكل طاعة متعجلة لم أتوقعها من نفسي.

تأملتني الدكتورة جورليش في هدوء وناولتني منديلًا فما كان
مني إلا أن ضحكت؛ لأن الموقف يبدو نمطيًا؛ علبة المناديل على
مقربة مني، ولكنني لم ألبث أن انغمست في حاضري المبلل.

الواقع أنني لا أعاني من شيء ولا أشعر بالألم، ولكن البكاء
يعتبر عيدًا كبيرًا وارتياحًا شديدًا بالنسبة لي.

لقد شرح لي أحدهم ذات مرة أن الرأس تفرز عند التوتر
الشديد دهونًا ومواد أخرى بغزارة، وتساعد الدموع على إخراجها من
الجسم، تمامًا مثل غسل المعدة ولكنه غسل للرأس، بعدها يشعر
الشخص بالهدوء ويكون مستعدًا لمصائب جديدة.

ولكنني عندما تكون لدى الرغبة للبكاء، فإنني أريد أن أعرف

لماذا.

أما الآن، وحيث أنا، فالأمر ليس كذلك.

استمرت الدكتورة جورليش في النظر إلى بهدوء وتركتني
أذرف الدمع للنهاية.

وبعد مضي فترة، عندما تحرك مفتاح الإغلاق في جهاز
الطرد الخاص بي، انزلقت مني كلمة "هه" (خلاص).

ابتسمت الدكتورة جورليش ولكنها لم تقل أي شيء. لقد نظر
جهاز التحكم العجيب بداخلي من منطلق الإحساس بالمسئولية إلى
الساعة، فجفت دموعي وحاولت إحياء الحديث السابق وقلت:
ماذا بعد؟

- خذي نفسًا عميقًا مرة أخرى!

حسنًا، توفيرًا للوقت بدأت مرة أخرى أتسفس إلى الداخل،
ولكني الآن أريد إجابة قاطعة.. مم أعاني؟ لماذا حدث ذلك؟ ماذا
سيحدث بعد ذلك؟ هل اجتزت التجربة؟ هل يمكن مساعدتي؟

ابتسمت الدكتورة جورليش ابتسامة خبير.

أتمنى أن أكون قد أعجبتها جدًا، ولكني أعرف أنها تبتسم
بسبب قلة صبري. لقد كنت هذه المرة أيضًا أسرع مما يجب، فقالت
في هدوء:

- راقبي نفسك على مدى الأيام التالية، كيف سيكون حالك بعد جلسة اليوم. ثم فكري إذا كنت ترغبين في الحضور إلى هنا بانتظام، هل تشعرين أنني الشخص الصحيح بالنسبة لك؟ إن هذا شيء مهم جدًا.

وددت لو أنني صحت قائلة: نعم أريد، أريد جدًا! كيف تسألين مثل هذا السؤال؟ متى يمكنني أن أحضر مرة أخرى؟ ومتى تتصورين أنك يمكن أن تشفيني؟

إلا أن مشاهدتي للتليفزيون على مدى سنوات طويلة منعتني أن يكون رد فعلي على النحو الذي كنت أريده.

أنا الآن في حالة استدعاء إلى هنا مرة أخرى، ولكن هذا لا يعني بحال أننا سوف نشترك في تسجيل ألبوم معًا. إن الاستقامة الجديدة تكمن في الاسترخاء، لذلك قلت لها:

حسنًا. وسجلت لنفسي الموعد التالي بعد أسبوع.

لقد تعلمت من أخطائي وهبطت السلم الحلزوني بهدوء وبخطى منتظمة.

وعلى الرغم من أنني بكيهت بما فيه الكفاية وأصبحت منهكة القوى، فقد شعرت وأنا أسير في الشارع كما لو كنت نسخة مصغرة

من فيلم درامي فرنسي لمخرج متواضع من هوليوود، فيلم درامي ولكنه ليس بالكئيب؛ فأنا أذهب الآن إلى جلسات العلاج النفسي. هكذا! الأمر إن لم يكن مؤلماً.

سيطر على الأسبوع التالي شعور بحزن عميق، بما يمكن أن أشبهه بالبطانية الصوف البنية اللون عليها رسومات رؤوس أحصنة. أشعر باستمرار بأنني مثل جمرة النار.

انقبض قلبي فجأة أثناء جولة للتسوق مع صديقي وملأت الدموع عيني، فقررت على سبيل الاحتياط أن نجلس معاً في أي مكان ونشرب قهوة، اعتدنا أنا وفيليب أن نجلس متقابلين في صمت، يدخن هو وأدخن أنا أيضاً، فالتدخين يعتبر من الأشياء القليلة التي تجمعنا. بدأت محاولة متأنية أن أشركه في تفاصيل حياتي فأخذت أحكي له عن جلسة العلاج النفسي الأولى وما أشعر به من اكتئاب. بدا رد فعله كأداء ممثل غير محترف جال بنظره بسرعة ما بين جبهتي وشيء ما خلفي. أخذ يدق بأصابعه على سطح المائدة الزجاجية المتسخة التي نجلس حولها ثم بدأ الحديث ونطق ببعض العبارات التقليدية دون أن يتدبرها:

- يعني أن أمورك لا تسير على ما يرام، انتظري ماذا سيحدث، فعداً يوم آخر!

يا سلام! فكرة رائعة يا أيها البوق الأجوف.

صحتِ قائلة بصوت عال: غذا يوم آخر، يوم آخر لا يمكنني

فيه أن أتوصل إلى سبب هذا الأسى الذي يزحف إلى داخلي.

لا أجد ما أقوله في سري سوى: فعلاً يا صبر أيوب معك

يا فيليب!

أعتقد أننا ضللنا الطريق داخل غرفة المرايا التي تعكس

صوراً ضاحكة، فعندما نكون معاً لا يكون الواحد منا هو ذاته، وإنما

يصبح صورة ممسوخة لما يريد الواحد منا أن يرى الآخر عليه؛

فبينما يقوم فيليب بمحاولات لإرضائي لا أفكر خلالها فيما يقول،

ولا ينطق إلا بكلمات كفقاعات الصابون. بينما هو يفعل ذلك يمنعي

عنادي أن أرضى بما يقول وأحاول دائماً أن أضعه تحت الاختبار

على أمل أن أجد فيه شيئاً يفاجئني ويمكن أن أحبه من خلاله،

إلا أنني كل مرة لا أجد فيه أي شيء.

في الواقع أن هذا سبب كاف للحزن الذي أشعر به؟ إلا أن هذا

في الواقع ليس هو السبب الحقيقي، فأنا أحاول باستمرار أن أرتب

هذا الإحساس الملعون وأوازن بينه وبين حياتي الحالية ولكن بلا

جدوى، تماماً مثلما أمسك بقطعة من لعبة البازل *Puzzle* لأضعها في

مكانها الصحيح. أحاول أن أجد في حياتي المكان المناسب لهذا

الحزن فلا أتعرف على مكانه. أحمل الهم وأشعر بالتوتر عندما أتذكر
جملة الدكتورة جورليش التي ظلت تدور في رأسي طول الوقت:

"يبدو أنهم كانوا يتركونك وحدك مددًا طويلة!"

وأخيرًا فهمت! أنا أرثي لحال نفسي، أنا حزينة على نفسي؛
فأنا أرثي لحال الطفلة الصغيرة كارو التي كانت أمها تضربها بحذاء
المنزل عندما لا تقوم بترتيب سريرها!!

أرثي لحال كارو الصغيرة التي كانت بحاجة إلى حضن أبيها
قبل أن تحتاج لمعلومات أدبية!!

أرثي لحال كارو الصغيرة التي استطاعت أخيرًا وهي في
الثانية عشرة من عمرها أن يكون لديها الجرأة على مصارحة زوج
أمها بأنها لن ترضى بعد الآن أن يقبل مؤخرتها.

لقد بدأت دون وعي أخلج من نفسي؛ فرثاء الشخص لنفسه
يؤدي إلى حزن لا يمكن أن يتحملة أحد وهو مرفوع الرأس، رثاء
الذات ليس من الأناقة في شيء ولا يزين صاحبه إنما هو كئيب
وممسوخ.

في الوقت المناسب، وقبل أن أسمح لنفسي أن أحمل رثائي
لنفسي مثل تاج على رأس وأبدأ في العويل جالت بخاطري المعلومة

التالية: ربما كنت مثل ضرس العقل المزمّن الذي اختبأ طول الوقت تحت الجلد وجمع الصديد، إلى أن جاء شخص ما وفتح الجرح. من المؤكد أنه سوف يؤلم في البداية ويخرج صديدًا ورائحة عفنة، ولكن المهم أن نعرف جذور المشكلة ونبدأ بتطهير الجرح كي نساعد على التئامه.. من هنا تكون البداية، الخطوة الأولى نحو التحسن.

فالجرح الأول هو الأعمق *The first cut is the deepest* ولكن ماذا يعرف كات استيفنز^(*) *Cat Stevens* عن هذا الموضوع؟!

قمت بتحويل الأمل الجديد إلى عمل متصل وبدأت في أداء تدريبات منزلية لنفسيتي، واجبات لم يكلفني بها أحد.

أريد أن أزور قبر جدي.

لقد توفي وهو في السابعة والخمسين من عمره، كنت وقتها في السابعة ولم أشارك في جنازته ولم أزر قبره حتى الآن. أعتقد أنني كنت في البداية ما زلت صغيرة في السن، ثم بعد ذلك كان عدم الزيارة بسبب الكسل أو النسيان. الواقع أن هذه وقاحة مني؛ فقد كان جدي شخصية قوية وعنيفة.

(*) ستيفن ديمتري جورجيو، من مواليد عام ١٩٤٨، اشتهر باسم كات استيفنز: مغن إنجليزي ومؤلف أغان وعازف على أكثر من آلة موسيقية.

لقد عرفت- مما يُحكى لي- عنه- أنه اعتاد أن يلعب البوكر مع جدتي وبعض المعارف في حديقة المنزل الصغير الذي يقضون فيه عطلة نهاية الأسبوع وهم جميعًا عرايا، كذلك اعتاد أن يختبر شجاعة أبنائه ويقدم لهم الرشا؛ فعلى سبيل المثال كان يطلب من أمي وخالي أن ينزلقا من فوق جبل مرتفع أو أن يقفا مددًا طويلة على ساق واحدة.

أما أنا فقد كان يصطحبني خلفه على دراجته ونسير داخل الغابة حتى نصل إلى الحانة التي اعتاد أن يرتادها وكان يحكي لي عن الحرب وعن الطبيعة. وهناك كنا نأكل الستجق وسلطة البطاطس فيأكل هو وجبة الكبار كاملة، بينما يقدم لي مشروبًا خفيفًا. كنا نراقب معًا الخنازير الوحشية ونجمع عش الغراب من الأرض.

عندما كان يحين وقت النوم كان يلفني في لحافي المحشو بالريش ويقول لي إنني أنا المرابي الحلوة داخل الكعكة.

أذكر أيضًا أنني كنت أرفض تناول الساندوتشات التي كانت جدتي تعدها لي للعشاء فكان جدي يختبئ ويأكلها هو نيابة عني.

كانت هناك وجهات نظر مختلفة للحكم على شخصية جدي؛ فأمي مثلًا تعطيني انطباعًا أنه كان أبًا صارمًا جدًا كما كان قاسي

القلب كزوج. ربما كانت هذه ذكريات مؤلمة لدى الآخرين عن جدي،
أما أنا فلا أحمل له سوى أجمل الذكريات.

وهذه الذكريات الجميلة هي أكثر ما يؤلمني الآن ويشعرنني
باستمرار بتأنيب الضمير بسبب عدم وداعي له الوداع اللائق.

الآن جاء الوقت لأعوض كل ذلك، فالخضوع للعلاج النفسي
يعني إعادة البحث في الماضي ومواجهة شخصياته، وما إلى ذلك مما
اعتاد الناس أن يقولوه في هذه الحالة.

أريد أن أفعل كل ذلك، أريد أن أكون أفضل، أريد أن أكون
شجاعة وأن أفعل كل ما هو صواب. أريد أن أصل إلى مواقع الألم
والخوف حتى لو لم أكن أعلم ماذا يعني ذلك؟ المهم هو التغلب على
الماضي.

الواقع أنني لا أعرف المكان الذي دفن فيه جدي، طلبت من
أمي أن تصفه لي فرسمت لي رسمًا كروكيًا للموقع، فهي تجيد رسم
المواقع.

ذهبت إلى المقابر فوجدت نفسي أترنح على غير توقع، يبدو
أنني تصورت أنني سوف التقى بجدي، أن أظهر أمامه بعد كل هذه
السنين. ها أنا يا جدي، أنا المربي الحلوة داخل الكعكة - يعني

للحاف - وقد أصبح سني ستة وعشرين عامًا. على الجانب الآخر انتابتي مخاوف أن جسمي يدعي أنه يهتز خوفًا، بينما هو يتمنى أن تكون هذه الحركات مصحوبة في السر بإيقاع موسيقى Coldplay^(*)، فالواجب في مثل هذه المواقف أن يشعر الإنسان بالرهبة. خجلت من نفسي بعض الشيء وحاولت أن أبدو طبيعية بقدر الإمكان.

رغم رسم أمي الكروكي لم أستطع أن أعرثر على قبر جدي، وبغض النظر عن صبري الذي ينفذ بسرعة فقد لاحظت أنني كلما استمررت في البحث زاد بداخلي شيء يريد أن يفاجئني ويتغلب عليّ. ولكنني أعرف أن هذا الوحش المتربص بي لن يتمكن مني إلا عندما أعرثر على قبر جدي، ومن ثم أخذ هذا الوحش يعتمل في جوفي ويهددني، يتحفز للوثب بينما أنا أسير في خطوات مرتعدة كسيدة عجوز حاملة في يدي الورقة التي رسمتها أمي وأتفحص القبور واحدًا تلو الآخر. وأخيرًا وجدته؛ عبارة عن قبر بسيط، له شاهد كبير من المرمر الأسود مكتوب عليه اسم جدي وتاريخ ميلاده ووفاته بحروف ذهبية، ثم جاء ما كنت أتوقعه، ولم أدهش له:

(*) فريق موسيقى الروك، تكون عام ١٩٩٦ بقيادة المغنى كريس مارتن. فاز الفريق بالعديد من الجوائز، ويعتبر واحدًا من الفرق الأكثر مبيعا، وزع حوالي ٥٠ مليون نسخة على مستوى العالم.

انطلق الوحش الكاسر الذي يكمن بداخلي؛ فقد جاء وقت تقديم العرض. انتهت المقدمة وعلى صاحب الدور الرئيس أن يظهر قدراته، وأي قدرات؟ لقد انخرطت في البكاء، بكيت بصوت عالٍ بينما أنفي يفرز بغزارة، تفوهت بعبارات مؤلمة؛ لأنني رغبت في أن أتحدث إلى جدي، ثم أصمت لحظة؛ لأنني لا أعرف كيف السبيل إلى الحديث معه، هل أومن بمثل هذا الأمر، هل نتحدث إلى الموتى؟ أم أننا نفكر فيما نريد أن نقول، آملين أن يصل ما نقول إلى العنوان الصحيح؟

بدأت أتوتر وأرتبك لأنني لم أعد أقتنع بما أقصد وما أشعر به؛ هل أبكي حزناً أم رثاء على نفسي؟ هل هو الشوق أم أنني أفعل ذلك لأنني أشاهدهم يفعلون ذلك في التلفزيون؟

هل أريد بالفعل التواصل مع جدي؟ أم لأنه يناسب *Coldplay* ومتوقع منه؟ وإذا كان الأمر كذلك، من الذي يتوقع؟ وماذا يتوقع؟ فليس في المكان سواي أنا.

هذا شيء بغيبض.

بينما أنا أفكر في كل ذلك لم أتوقف عن النحيب بشدة. تدور في رأسي أفكار لا أصدقها، وأشعر بأحاسيس لا تقنعني مائة في المائة.

جاء مواعدي الثاني في عيادة الدكتورة جورليش بعد أسبوع من الموعد الأول، بدأت الجلسة في جو لطيف؛ فقد عرضت عليّ الطبية أن أخاطبها باسمها الشخصي أي "أنيت" إذا رغبت، وفي المقابل سوف تتاديني باسمي أيضًا وهو كارو، عرضت عليّ هذا الأمر وهي تنظر إليّ نظرتها التي تشع طيبة وهدوءًا وعيناها الزرقاوان لا ترمشان أبدًا.

الحقيقة أنني لا أعرف إذا كان هذا الأمر يمكن أن يريحني، ولكن اختصارًا للوقت قلت لها: لا مانع يا أنيت.

نطقت اسمها بوضوح وابتسمت ابتسامة المضطر لها. أردت أن أبدأ الجلسة بمرح وهدوء ولكني رأيت أنيت تبتسم ابتسامتها المعتادة.

عاهدت نفسي ألا أتحدث إلا في المفيد وأن أكون أكثر أمانة في الحديث، أليس هذا هو الهدف من وجودي هنا، أن أتجرد أمامها؟!

فعندما سألتني أنيت: كيف كان حالي خلال الأسبوع الماضي، بدأت أحكي لها بحماس كيف أنني كنت أشعر بالحزن المفاجئ طوال الوقت وأذكر لها المعلومات التي اكتسبتها. كنت أحكي لها وأنا أشعر بالفخر، أعجبت أنيت بالتشبيه بضرر العقل جدًا، لم تعجب للحزن الذي شعرت به وتتصور أننا التقينا معًا عند نقطة حساسة وأن علينا أن نتبعها، ثم قالت:

- هذا إذا كنت تعتقد أننا يمكن أن نسير في هذا الطريق معًا.

إذن، لقد قبلت أن تعالجي؛ لأنها تتصور أن قليلاً من العلاج سوف يساعدي.

بينما نحن في جلسة العلاج الجادة جال في ذهني أن أتصل بأمي لأبلغها الخبر، وتصورت أنها سوف تصرخ فرحاً خلال سماعه التليفون وتقفز سروراً. ولكنني لم أفعل، بل بدأت في مناقشة بعض الأمور الإدارية مع أنيث.

لقد جهزنا بعض الأوراق المطلوبة لتقديمها إلى التأمين الصحي كي نطلب منه السماح بدورة علاجية قصيرة تستمر جلساتها على مدى خمس وعشرين ساعة. اتفقنا على ألا أحضر بانتظام بسبب عدم إمكانية تخصيص موعد ثابت لي في الوقت الحاضر، وأكدت لي أن كل شيء يحتاج إلى وقت خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالحالة النفسية، فلا يمكن ربط (صامولة) هنا أو فكها هناك فيدور المحرك وانتهينا!!

فالسلك المعتاد والمخاوف التي تساور الإنسان راسخة بداخله، فنحن نحملها بداخلنا على مدى سنوات وسنوات ولا يمكن التخلص منها، الأمر كله يكمن في إمكانية التعامل معها. قلت في

نفسى: معك حق، فعلاً، سوف نستطيع أن نفعل شيئاً؛ فالأمر ليس بهذه الصعوبة، وفي النهاية فأنا مستعدة للعلاج ولدى الوعى الكافى لذلك.

مضى الأسبوع التالى بدون مشاكل تذكر؛ فليس لدى أعمال كثيرة أقوم بها، اقتصر الأمر على عملي فى الحانة خلال فترات كرهية إلى نفسى، فضلاً عن ضيقي من صديقي. أشعر فى معظم الأحيان بالحزن بينما بدأت حدة القلق تقل بعض الشيء، وأنا أعلم الآن لماذا؟ فأنا ضرس ملتهب وأتلقى الآن العلاج المتخصص.

تحدثنا أنا وآنيث كثيراً خلال الجلسات التالية، وتعرفنا أنا وهي على نفسى بطريقة أفضل، حكيت لها بالتفصيل عن حياتى السابقة، وتعرفت بفضلها على بعض الأنماط التى ظهرت أمامى كخطوط حمراء تمر عبر تصرفاتى.

لقد أكدت لى آنيث أننى أخاف من الشعور بالوحدة وأفتقد إلى الوعى بذاتى والاعتداد بنفسى. ولما حكيت لها عن خجلي من الرثاء لذاتى قالت لى بحماس:

- وما العيب فى ذلك يا كارو؟ أنت حزينة على نفسك، حزينة على موقفك من الحياة، وحزينة على ماضيك!!

لقد أدانتني آنيّت بذلك فحاولت أن أوضّح موقفِي. لا أعرف الأمر بالضبط ولكنني أشعر بأن شيئاً ما غير صحيح؛ فالرّثاء للذات من صفات الأشخاص المنطويين والبلهاء.

رمقتني آنيّت بنظرة خاصة كما لو كانت تقول لي:

- هذا هراء يا كارو وأنت تعلمين ذلك جيّداً.

فهي ترى أن لي كل الحق أن أحزن وأن أرفع الظلم عن نفسي في معظم الحالات، وأنني أستهيّن بأحاسيسي.

أشعر بعد كل جلسة أن رأسي تدور بشدة. كل هذه البدايات، كل هذه الأنماط، كل هذه الإمكانيات، وكل واحد منها له معنى ولكنني أشعر بالقليل منها فقط وأنفهمه أو حتى أتتبعه، إلا أنني رغم ذلك أرغب بشدة في التقدّم في العلاج.

ورغم كل شيء فقد وقعت في غرام كوني في مرحلة علاج؛ فأنا أوّمن بمبدأ المعاناة من أجل النجاح وكلي ثقة في ذلك. أتحدّث كثيراً إلى الأصدقاء الذين ظهر منهم من تصور أنه خبير في هذا المجال، فبدأنا في تنظيم جلسات لهواة العلاج النفسي استمرت على مدى ساعات. وفي النهاية بدأت أفكر كثيراً في ذاتي بهدف الوصول إلى نجاح علاجي النفسي في أسرع وقت.

ولكن الحقيقة أنني لا أفعل إلا كل ما هو خطأ.

تعرفت على فيليب منذ عامين فني لقاء نظمته المؤسسة الإعلامية التي أعمل بها. تلتقي في مثل هذه اللقاءات، مختلف الوكالات الإعلامية بينها ممثلات بلا عمل، ومقدمو برامج مغمورون (نجوم الدرجة الأولى يعرفون جيدًا أن مثل هذه اللقاءات لا يحضرها سوى الصعاليك من العاملين في حقل الإعلام الذين لا توجه لهم الدعوى لحضور المناسبات الكبرى). هؤلاء من أشباه الفنانين يحضرون إلى مثل هذه المناسبات لتقديم ما يعتقدون أنه يستحق الإعلان عنه. ولكنهم لا يجدون إلا مراسلين إعلاميين من الدرجة الثانية الذين يعرفون بدورهم أنه ليس من بين الحاضرين من يجذب الانتباه. يسعد الحاضرون لمثل هذه اللقاءات بشيئين: أولهما البوقية المفتوح، وثانيهما المشروبات المجانية التي يقدمها لهم زعاة مثل هذا اللقاء. في الحقيقة هذه هي الأسباب نفسها التي تجعلني أسعد لحضور مثل هذه اللقاءات؛ ففيها يمكن أن نتذوق أحدث المشروبات.

التقينا أنا وفيليب بطريقة تقليدية؛ أي عند البار، كنت أحسنني مشروبي المجاني الثالث، وكنت لحظتها على وشك الثورة بسبب بظء الفتاة المتدربة التي كانت تقدم المشروبات خلف البار والذي يختلف عن مفهومي أنا للسرعة.

كان فيليب يقف بالقرب مني فأطلق دعاية مهذبة استطاع بها أن يسحب البساط من تحت قدمي. بدأ بيننا الحديث واستمر ونحن واقفان نشرب من أكوابنا؛ وحيث إنني لست متجدثة لبقة فقد استأذنت للانصراف قبل أن يتأزم الموقف.. انصرفت وأنا أقول كلمات مبتكرة جدًا:

- "سأحاول العثور علي شخص أهو معه قليلًا، لينك تعثر لي على أحدهم. أنا في انتظار ردك!!".

لم يتقبل فيليب الدعاية علي نحو ما تصورت وبادرني بقوله:

- طبعًا، بكل سرور، سأكتب لك قائمة بالأسماء ونلتقي بعد ساعة بالضبط في نفس المكان عند البار.

لقد أعجبتني الموقف ولذلك سرت بعد ساعة أتسكع نحو البار، نظرت حولي فلم أجده، لذلك طلبت في حركة غير محسوبة مشروبًا آخر من هذه المشروبات البشعة، وبعد الكأس الرابع لم يعد شريط الفيديو الغنائي المرح *Doner Red Bull* مسليًا بالقدر الكافي.

ها هو مرة أخرى فيليب، فبادرته بالسؤال:

- يا ترى هل عثرت لي على أحد؟

وجاء الرد:

- للأسف، واحد فقط!.

- من هو؟

أشار بكل ثقة إلى نفسه.

قلت في نفسي: يا ولدا! ثم قلتها بصوت عالٍ: يا ولدا!

واضح أن الدعابة دارت وعادت مرة أخرى.

سعدت لهذا الاختيار الجديد، الواقع أنني لم أكن أسعى للوصول إلى أن تربطني علاقة بشخص ما، ولكني كنت أعتقد أن وجود مثل هذه العلاقة في حياة الشخص أفضل بكثير من ألا يكون على علاقة بأحد؛ ولما لم تكن تربطني علاقة بأحد فقد جاءت هذه العلاقة الآن في التوقيت المناسب.

بدأنا الحديث ونحن نلف وندور حول الموقف وتبادلنا المعلومات عن بعضنا بعضا.

يبلغ فيليب ستة وعشرين عامًا؛ أي أنه يكبرني بسنتين، يدرس تصميم الإعلان، نزع من الريف إلى المدينة ويقوم في شقة صغيرة من حجرتين بالقرب من هنا. يعشق فيليب الجانب الفني في دراسته ويهوى الرسم. أما أنا فلا أعرف أي شيء عن تصميم الإعلان من قريب أو من بعيد ولا أفهم عن الفن شيئاً، ولكن يستهويني الشيء الذي لا أعرفه.

شربنا كأسين من الفودكا المخففة ثم الفودكا المركزة، بينما نحن نخطط لباقي الأمسية التي سوف نقضيها معاً، لم يكن كل واحد منا متأكدًا من جدية الآخر إلا أن أحدًا منا لم يدعُ للنزال، وفي النهاية وجدنا أنفسنا نجلس في تاكسي ثم في شقة فيليب.

تلا ذلك احتساء بعض الكنوس ثم اتصال جنسي غير مكتمل، بعدها راحت عينانا في نوم هادئ، هذا هو الشيء الذي شعرنا بالارتياح إليه منذ أول يوم؛ فقد كان جسداً متناسقين وهما بجانب بعضهما بعضاً.

لم يكن الأمر مفاجأة؛ فقد عشقت فكرة أن أعشق، أما فيليب فقد تمنع لبضعة أسابيع إلا أنه رضخ في النهاية لفكرة الحب. لقد أصبحنا حبيبين وبدأت خلافاتنا بعد أسابيع قليلة، احتدت الخلافات بيننا بصفة مستمرة.

أصبحت أعتاظ لكل صغيرة وكبيرة منه؛ مثل الصوت الذي يصدره من أنفه وهو في الحمام، وإعجابه الزائد بنفسه. كذلك أثارني عدم استماع فيليب لي أثناء حديثي، فقد كان يتململ في عصبية وينتقل بنظراته بين أركان الحجرة. لم يكن ينظر في وجهي أبداً، فقد انتابني شعور بأنني أطارده أثناء حديثي، أما عندما يتحدث فيليب عن

نفسه فكان يطلب مني أن أكون كلي أذان صاغية خاصة وأنه كان كثير الكلام ولم يكن يمل الشكوى ولا النقمة على وضعه.

لم يكن من الممكن أن تذكر أي تشنيع أمام فيليب، فالتشنيع مرتبط بالدعابة وابتسامه شماته على استحياء. فيليب لا يستحي ولا يفهم الدعابة، كان فيليب يحب أن يكره. لم تكن نتحدث كثيرًا عني أنا شخصيًا؛ وذلك لأنني لم أعود أن أتحدث عن نفسي ما لم يسألني أحد. كنت أحب أن توجه لي الأسئلة لأعرف أن الشخص الذي أمامي مهتم بما أقول، حتى عندما يوجه لي سؤال فأنا أجيب بسرعة واختصار حتى لا يمل الشخص الذي أمامي، أما فيليب فلم يكن يسألني وإنما كان يحب أن يتحدث عن نفسه.

ففي ذات مرة وأثناء حديث تليفوني بيني وبين فيليب أثارني الموضوع؛ لأن فيليب لم يكن يعلم ماذا كنت أفعل أثناء حديثه الذي كان مفعماً بالرومانسية التي شعرت بها من صوته. صمت لفترة ثم قلت له: ماذا أفعل؟ فغضب لأنني لم أنصت إليه.

من المؤكد أننا قد عشنا أوقاتاً سعيدة أو أننا كنا نحاول أن نقنع أنفسنا بذلك. الواقع أننا كنا نحاول على مدى سنتين أن نكون معاً. كل واحد منا كان يعتقد أن الحال سيتحسن بمرور الوقت؛ فليس من الممكن أن نمحو سنتين طويلتين من عمرنا.

كل ما أحجته هو الشعور بالحنان والأمان وأن يكمل الواحد منا الآخر، أشتاق إلى عش هادئ. الواقع أن فيليب يرغب في الشيء نفسه، وبعد ذلك سوف يجمعنا لهيب الاشتياق. إلا أن الشيء الوحيد الذي جمعنا معًا هو تناسق أجسامنا أثناء خلودنا للنوم.

لم تبت أنيت في موضوعي مع فيليب رغم أنني تمنيت لو أنها فعلت وفصلت في شأنه. تمنيت أيضًا لو أنها قالت لي في حنو:

- كارو: الحقيقة أنني لا أفهم كيف تستطيعين تحمل مثل هذا الأمر؛ فتاة شابة وجميلة مثلك تستحق من هو أفضل منه، تستحق شخصًا يحملها على كفوف الراحة. إنما، ليس هذا الرجل الأناني!!

الواقع أن الأمر مختلف معها؛ ففي كل مرة أشكو وأنتخب كانت ترد عليّ قائلة: احتكاككما بهذا الشكل يؤلم الطرفين. أو تقول:

- واضح أن فيليب إنسان قلق.

أو تبادرني بقولها:

- كارو: أعتقد أنك تريد أن يكون كل الناس على شاكلتك

أنت!

إلى هنا ولا أستطيع الصمت فأرد عليها بقولي:

- آنيٲ، أنا هنا لأنني أعتبر نفسي غبية ولا أطاق؛ أنا لا أريد بأي حال أن يكون كل من حولي صورة مكررة مني.

أعتقد أنها تقصد أنني أتوقع حساً أخلاقياً عالياً من الجميع، والواقع أنها محقة في ذلك؛ فأنا هنا الرائدة في الأمر المطلق.

علمتي آنيٲ أن البشر يختلفون فيما بينهم؛ فما أراه أنا صحيحاً يبدو لغيري خطأً وسخيفاً؛ لذلك يجب أن أقبل أن يكون الآخرون مختلفين عني. ولكن: لا أستطيع أن أفعل ذلك، بل إنني لا أريد ذلك. كل ما أستطيع أن أقبله هو كون بعض الناس يفضلون أكل البيٲترا بالأناناس أو يحبون $R'n'B^{(*)}$ أو يتعاطون المخدرات.. أقبل كل ذلك، أما كون أن الشخص لا يستطيع أو لا يرغب في الاستماع إلى صديقه أو أن يكون شديد التشاؤم أو غير قادر على العطاء لمن يعطيه بسخاء؛ فهذا ما لا أقبله بحال.

فهذه في نظري أشياء خطأً من الأساس وليست أسلوباً آخر من أساليب الحياة أو ذوقاً مختلفاً، وإنما هي في نظري بكل بساطة وقاحة يستحق أن يكون جزاؤها عقاباً من العقاب الذي توقعه الشرطة على الجناة.

(*) اختصار لاسم *Rhythm and Blues* الذي يطلق على نوع من موسيقى البوب، سادت خلال الفترة بين ١٩٤٠ و ١٩٧٠، وتتسم بالإيقاع الأفروأمريكي.

كان فيليب قد سافر إلى أهله في الريف وسوف يعود اليوم، وما أقطع ما يحدث عندما يعود من زيارة مسقط رأسه! فهو هناك الكل في الكل. نعم هذا الشخص الذي استطاع أن ينتقل من القرية إلى المدينة، الشخص الذي يعمل في مجال الإعلام ويتردد على حفلات نجوم الدرجة الثالثة والذي يشاركهم الشرب، الشخص الذي يعتبر فناناً، كل ذلك هو فيليب الذي لم ينس أنه من القرية.

أتساءل في نفسي: هل يعرف أصدقاء فيليب القدامى أنه يبول في المواصلات العامة مثلما يرسم على الحوائط؟ أعتقد أنهم يعلمون ذلك وينحنون أمامه احتراماً لأن هذا الأمر كبير بحجم نيويورك في الثمانينيات، هل يعلمون فعلاً النحو الذي كانت عليه نيويورك في الثمانينيات؟

يحظى فيليب في قريته بالشيء الذي تمنى أن يجده في المدينة من احترام وتقدير؛ لا عجب فأننا لا أمنحه هذا أو ذاك. ربما كان هذا هو السبب في نظرات فيليب الزجاجة عند عودته.

وكان اليوم هو أحد هذه الأيام، فقط اصطحبت فيليب من محطة القطار وكنت سعيدة فعلاً بذلك؛ فبعد خمسة أيام بدون فيليب جعل قلبي يشعر أنه يحبه فعلاً، وأن علينا أن نبذل جهداً أكبر للاحتفاظ بعلاقتنا.

أشعر بأن مدة العامين ليست بالمدة القصيرة لاستمرار علاقة،
وأن عليّ أن أتحكم في نفسي وأن أكبح جماحي. عليّ أن أقتنع أن
فيليب مختلف عني، فهو ليس شيئاً ولكنه مختلف.

شعرت بنفسي فجأة وكأنني واسعة الصدر وحاذقة، فقد تمكنت
من اتباع نصائح طبيبتي النفسية وأستطيع الآن أن أتحكم في
تصرفاتي بلا خجل.

هذه الكارو الجديدة تسبب لعقلي بعض البلبلة، فجهازي
العصبي يتوقف للحظة عند توصيل المعلومات اللازمة، ولكنه
لا يلبث أن يعود إلى العمل كأن شيئاً لم يكن ويقوم بتوصيل الأكذوبة
إلى عيني التي تشع حياً.

أعلن ميكروفون المحطة عن دخول قطار فيليب إلى الرصيف
وتلقيت رسالة قصيرة على المحمول تقول: سوف أصل خلال خمس
دقائق، أنتظر لقاءك بلهفة يا حبيبتي.

- يا سلام، فيليب يشعر بسعادة اللقاء!

ثم قلت لنفسي: لماذا سوء الظن؟ ربما يشعر فيليب فعلاً
بسعادة للقاءني.

خجلت من نفسي للحظات مع دخول قطار فيليب إلى
الرصيف، دخلت أحاسيس ملؤها الحب إلى محطة قلبي. نزل عدد

كبير من الركاب من القطار ولكن أين فيليب؟ وكما هو الحال على سير الحقائق في المطار، حقيبتك آخر حقيبة تصل، الأمر ببساطة يحتاج أن يقف الشخص قبل الوصول إلى المحطة بفترة كافية بحيث يكون أول من ينزل من القطار. أما فيليب فعلى رسله، لا يعننا بأن حبيبته تقف بين مئات من رواد المحطة في انتظاره. لا أفهم لماذا يفعل ذلك، أليس من المفروض أن يفكر أكثر قليلاً؟ هل هذا طلب صنع؟.

أخيراً ظهر سيادته! وجهه يبدو عليه القرف. شعرت برغبة شديدة في ترك المكان، إلى أين، لا أعلم. حتى لو اضطررت لأن أصطحب الشاب الصغير الواقف بجانبني إلى منزله. وهناك يمكننا أن نستمع لبعض الموسيقى أو نرى فيلم عنف.

بدا فيليب أكثر امتعاضاً عندما وقع نظره عليّ، فقد كان يكره كل ما يتعلق بالأحاسيس. ربما تصور أنه وجد فيّ أنا من يمكن أن يعبر له عن كراهيته، ولكنني لست أنا هذا الشخص. فأنا أحب أن يتأبط ذراعي وأن يشعرني بذلك - حتى لو حدث له أثناء رحلة القطار ما يعكر صفوه - فلا يمكن أن تكون تعبيرات وجه أسوأ مما عليه وجه فيليب الآن.

يا للقرف! جلست في طريق العودة بجانب شخص تتبعث من

فمه رائحة كريهة، فضلاً عن أن الفحل كان يقرأ طوال الوقت صحيفة "بيلد" المعروف أنها جريدة نازية. لذلك لا أريد الجلوس بجانب مثل هذه الأشكال، ولكن المضطر يركب الصعب، فليس هناك مكان خال غيره. هذه هي بالضبط المواصلات في ألمانيا: كلهم رأسماليون وضيعون.

لقد عاد فيليب. أشعر بأنني اليوم قادرة على تفهم الأمور، فقلت له مداعبة: يا ليتك جلست ولو لنصف المسافة بجانب صاحب رائحة الفم الكريهة، أما أنا فقد غسلت أسناني اليوم خصيصاً لك، فلا روائح كريهة باقي اليوم، وتتفست في وجهه وضممت شفثاتي انتظاراً لقبلة كان المفروض أن تكون منذ وصوله، إلا أن فيليب لم يبتسم للدعابة وأرسل لي قبلة في الهواء.

قلت له: هل تريد أن أرسل لك خارطة لمعالم وجهي كي تتمكن من الوصول إلى الهدف في المرة القادمة؟ حاولت أن يكون صوتي هادئاً لأنها الفرصة الوحيدة، بينما كنت أود وللحق أن أصفه على وجهه.

قال لي: يا حبيبي، لا تغضبي، فالرحلة كانت طويلة ومرهقة وجلس بجانبها خلالها شخص رائحته كريهة، حتى فنجان الشاي لم يكن متوافراً في كافيتريا القطار، حاولت أن أتماسك وقلت له:

- يوسفنى أن رحلتك كانت متعبة، ولكن لا تجعل من كون شخص يفقد الوعي بصحة الفم قضية شخصية، المهم أنك معي الآن وأنا سعيدة بعودتك، هيا بنا نذهب كي نأكل أي شيء.

ما زال فيليب يطم فمه ممتعضاً وفي هذه المرة نجحت محاولة القبله بنسبة الثلاثة أرباع.

ذهبنا إلى أفضل مطعم إيطالي في المدينة (لم يفهم فيليب سبب إعجابي بهذا المطعم ويقول إنه أكل مكرونة أفضل في مطاعم أخرى. طبعاً مفهوم).

جلسنا في ركن مظلم من المطعم قليل الإضاءة أصلاً.

طلبنا الطعام وأكلنا وتحدثنا معاً. تحدثنا عن فيليب وعن قطارات ألمانيا، ثم تحدثنا طبعاً عن فيليب وعن ترحاب الجميع به في قريته، تحدث أيضاً عن مدى التخلف الذي يعيش فيه أهل القرية، ثم قال فيليب:

- أقصد التخلف الثقافي.

ملأت فمي بالمكرونة حتى لا أتقيأ، ولكن بعد فترة لم يعد هناك مكرونة في الطبق وأخشى أنها أخذت صبري معها. ثم ذكرته بأنه هو شخصياً قادم من الريف.

- ماذا تقصدين يا كارو. لا تنسي أنني أمضيت السبع سنوات الماضية تقريباً في المدينة، ثم إنني طورت من نفسي على عكس أهل القرية.

- لقد طورت من نفسك في مجال آخر وفي اتجاه آخر. من أين لك أن تعرف إذا ما كان أصدقاؤك قد طوروا من أنفسهم في اتجاه آخر! ربما كانوا قد تعلموا كيف يقودون الجرارات الحديثة أو أي عمل من الأعمال التي يقومون بها هناك.

- لكن الأمر يختلف فلا أحد منهم يعرف معنى *Tagging* ولا *Masterpiece* ولا حتى *Fill-ins*.

- ولا أنا أيضاً أعرف ماذا تعني هذه الكلمات، ورغم ذلك أعجبك وتجديني على ما يرام.

- إنك تشبهين شيئين مختلفين كالتفاح بالكمثرى:

قلت له مداعبة:

- أرجوك لا تقارني بالكمثرى، فأنا أتمتع بمؤخرة رائعة.

لقد كانت محاولة مني للسيطرة على الموقف رغم أنني كنت في قمة الغضب وخيبة الأمل؛ استخرجت آخر ما لدى من بواقى الرومانسية بعد أن قررت أن أغير من نفسي تماماً. لا أريد أن ألقى

العبء على فيليب وأتوقع منه أكثر مما يجب. حاولت أن أحول إحساسي بالشوق إليه إلى طاقة مشاعر إيجابية: وجبة حلوة، ثم لقاء غرامي، وفي النهاية نوم في وضع متناسق.

إنها بداية محاولة، سوف أكون لطيفة وحبوبية مرة أخرى ولكن بشرط أن يكون لدى فيليب الرغبة في الاستمرار. فلا أنا أخطأت ولا هو أخطأ، لذلك فالعلاقة يمكن أن تستمر، ولكن الواقع غير ذلك؛ فأنا أحاول منذ ساعتين أن أكون لطيفة، أما فيليب فكل تصرفاته خاطئة، لذلك لم أعد احتمل أكثر من ذلك.

بادرته قائلة:

- منذ اصطحتك من محطة القطار يا فيليب وأنت تمد شفتيك، وليس لديك إلا الشكوى، كل شيء عندك سيئ وكل الناس ضدك. ألا تستطيع ولو لمرة واحدة أن تنزل من برجك العاجي؟ أليس بإمكانك أن تداعيني قليلاً وأن تشعر بسعادة وجودنا معاً؟!

فتمتم فيليب قائلاً:

- ألسنت أنت التي بدأت النقاش؟.

- لم أناقش إلا بعد أن سمعت كلامك العنصري الغبي؛ ثم إذا كنت لا تطيق هؤلاء الناس، لماذا إذن تسافر بصفة مستمرة إلي

هناك؟ ربما لأنك تحصل على جرعة دفع مجانية من هناك. المؤكد أنك لست غيبًا ولا عديم الموهبة بدليل أن هناك أشخاصًا أقل شهرة منك. يمكن أن أسمى سلوكك هذا سلوكًا نرجسيًا عظيمًا!

جاء جرسوني المفضل في المحل واسمه زورا يو ليسألني وهو لا يشعر باندلاع الموقف:

- أي أوامر أخرى يا سيدة كارو؟

رددنا في نفس واحد:

- لا شكرًا، ولكن الحساب لو سمحت!

ذهبنا إلى السينما وكل واحد منا تائر على الآخر وبعيد كل البعد عن الرومانسية ورغم ذلك ذهبنا إلى السينما، اعتدنا أن نفعل ذلك كما لو كان كل شيء على ما يرام، تأملت الشارع بأسارير متقلصة بينما فيليب يتململ في غضب.

كنت أتمنى لو أنه سألني كيف أمضيت الأيام الخمسة التي غاب فيها عني، وهل ما زالت حالة اليأس والتعاسة التي كنت عليها تسيطر عليّ، كذلك تمنيت أن يسألني عن جلسات العلاج، وعمًا إذا كانت علاقتي بالطبيبة على ما يرام. ولكن فيليب لم يسأل عن أي من هذه الأشياء، وإنما كل ما جال بخاطره ليكسر الصمت الرهيب الذي

ساد بيننا هو أن صاح: يا له من أحمق وغبي! وكان يعني سائق
الدراجة الذي اضطر إلى الاقتراب من سيارتي أثناء تغيير الحارة
التي كان يسير فيها.

ثم بدأت في تغيير اتجاه السيارة كما ورد في تعليمات المرور،
تركت المشاة يتقدمون، ثم نظرت خلفي وأدرت السيارة في طريقي
إلى العودة من حيث أتيت.

- ماذا تفعلين؟

- سأعود إلى المنزل؟

- لماذا؟ ألن نذهب إلى السينما؟

- لا يا فيليب، لم نرد الذهاب للسينما، وإنما كنا ندعي الرغبة
في الذهاب إلى السينما! الواقع أننا نكره بعضنا البعض، ثم إنني مللت
منك، ومن مزاجك المنحرف، ومن شكواك المستمرة من تصرفات
الآخرين، وإحساسك أنك لا تخطئ، أو أن تهون من أخطائك.

لقد كنت أشعر بالسعادة لعودتك وقلت في نفسي إنني سأحاول
مرة أخرى تحسين العلاقة بيننا، ثم إنني منيت نفسي بيوم جميل معك
يقرب بيننا. أما أنت فلا يبدو عليك سوى القرف وتعكر المزاج! من
أجل كل هذا: أريد العودة إلى المنزل!

اغتاظ فيليب من كلامي وقال:

- هكذا أنت، إرضائك مستحيل، تنتقدينني باستمرار، كل شيء أفعله غلط في نظرك ولا يعجبك!

- أنت لا تعمل شيئاً سوى إظهار قرفك وكرهك! ولكن لا! هذا شيء أصبح صعباً جداً ولا يعجبني، ولم أعد أتحمّل تشاؤمك هذا، أنت تشدني إلى أسفل. كنت أتصور أنني شخص دائم الشكوى ولكنك تفوقت عليّ بكثير!

مم تشككي؟! حالك على ما يرام، تستطيع أن تدفع إيجار شقتك، وعندك دراستك التي تحبها وهوايتك والتي رغم أنني لا أفهمها تملأ وقتك. ماذا تريد أكثر من ذلك؟

وصلنا إلى منزلي، أوقفت السيارة ونزلت منها.

- سألني فيليب: ماذا بعد؟

- فرددت عليه: لا شيء، أنا أدخل شقتي وأنت تعود إلى منزلك!

- كيف أعود إلى منزلي من هنا الآن؟

- نحن في مدينة كبيرة بها حافلات وقطارات وسيارات أجرة وكذلك هناك عربات ريكشاس^(*).

(*) الريكشا: عربة نقل تعمل بقوة الإنسان حيث يجر شخص عربة لها عجلتين ومقعد لشخص أو شخصين. (المترجمة)

- كنا نريد الذهاب إلى السينما!

وددت هذه اللحظة لو أن كل ما دار بيننا الآن لم يكن سوى حلم، أو ربما تصورت أنا ذلك، وتصورت أنني ظلمت فيليب؛ لأنه لم يقل لي إلا كلمات لطيفة ومزاجه كان على ما يرام.

لهذا فهو لا يفهم لماذا أردت أن أعود إلى المنزل ولم أذهب معه إلى السينما.

سألته بلهجة خطابية: ألم تفهم كل ما قلته لك في الطريق إلى هنا؟ أنا لا أريد أن أراك أمامي الآن. ربما من الأفضل أن نبتعد عن بعضنا لفترة ما. نحن لا نصلح لبعضنا البعض.

قلت هذا وأنا أفتح باب العمارة.

كيف سيستقبل فيليب هذا الكلام؟ هذا شيء لا يعنيني!

أدرت ظهري وصعدت إلى شقتي وما أن وصلت إلى الشقة فإذا به يتصل بي، فلم أرد عليه؛ لأنني كنت فعلاً في منتهي الغيظ، ولكنني للحق أشعر بارتياح وفخر بنفسي. بعد فترة أرسلت له رسالة على الهاتف الجوال:

- ربما كان من الأفضل أن نبتعد عن بعضنا لعدة أسابيع، لم

أعد أحتمل، لا نستطيع أن نسعد ببعضنا البعض، وهذا لا يلزمني في الوقت الحاضر.

لقد قطعت نصف الطريق نحو النهاية. قلت لنفسي وأنا في سريري: ليس الموضوع بهذا السوء، انتظرت الألم الذي لا بد منه والذي لا يمكن تجنبه في مثل هذه الحالة، ولكنه لم يأتِ.

انتظرت خلال الأيام التالية ما يسمى ألم الفراق، ولكنه لم يأتِ، بل أشعر الآن بنشوة لدرجة أنني أضبط نفسي بين الوقت والآخر أدندن بكلمات بعض الأغاني.

ذهبت إلى عيادة الدكتورة أنيت وأخذت أحكي لها بصوت عال وبسرعة عن التقدم الذي أحرزته، وأني أخيراً جرؤت على التغلب على الخوف من الوحدة. ثم إنني أنهيت علاقتي بفيليب تقريباً والموضوع عادي جداً. أعتقد أنني أفضل مما كنت أتصور. وأنهيت بهذه الكلمات حوارني الداخلي وأنا أشعر بالخوف.

- لست سيئة على الإطلاق يا كارو. مخاوفك طبيعية واستطعت الآن لأول مرة بعد سنوات أن تواجهي هذه المخاوف، ثم ماذا تعنين بأنك أنهيت علاقتك تقريباً بفيليب؟

توقعت أن أسمع منها كلمات كلها أخوة ومودة تقول لي فيها: أحسنت! أخيراً تخلصت من هذا المخلوق؛ ولكنني وجدت نفسي الآن في موقف يحتاج مني تبرير هذا الانفصال.

حكيت لها عن الرسالة التي أرسلتها له على الهاتف الجوال،
وأن هناك صمتًا في الاتصال بيننا منذ ذلك الحين وأن الأمر بالنسبة
لي أكثر من عادي.

نظرت لي أنيت نظرتها المعتادة التي تتم عن هدوء متعقل.
خطرت لي فكرة ولكن قبل أن أعبر عنها كانت جلستنا قد انتهت.
داعبتها قبل أن أودعها، ولكنها نظرت إليّ كما لو كانت تقول لي:
أتوقع دعابات أقل وأحاسيس أكثر. خرجت من العيادة وقد كست
وجهي حمرة الخجل.

تنفست بعمق ليملاً الهواء رثنائي وأشعلت سيجارة، ثم خطرت
لي فكرة: لم أنه علاقتي بفيليب بعد، ولا حتى شبه أنهيتها، لقد تركت
الباب الخلفي مواربًا أو شبه موارب بالنسبة لي بحيث أستطيع العودة
في أي وقت، فلا عجب أنني لم أشعر بالأسى والحزن.

ثم فجأة بدأت أفنقه، أفنقه فيليب الغبي!

ملعونة هذه الدنيا!!

أجيد إثارة الاهتمام ولكني لا أجيد كيف أكون أنا نفسي مثيرة
للاهتمام؛ بمعنى أنني لا أعرف كيف أجعل نفسي أقل ترددًا. فأنا
دائمًا حاضرة الذهن، رأسي دائمًا واعية بحيث لا أستطيع أن أنكر

ذلك لا أمام نفسي ولا أمام الآخرين؛ فأنا من أشد مشجعي لعبة: لا تتصلي به وسوف يعود للظهور. ولكنني أشجع كذلك هؤلاء الذين يستطيعون استخدام الفهولة. إنه أمر رائع ولكن للأسف لا أجيده؛ لأنه يتطلب أن أعود على الصبر كي أتعلم ذلك. أما أنا، فأريد النجاح وفورا دون انتظار!

فلو كان لدى بعض الصبر لكنت قادرة على قفز الحواجز وعلى الغناء وعلى الاطلاع. ربما كان على أن أقبل المثل القائل:

You can get it if you really want (يمكنك الوصول إلى ما تسعى إليه إذا كنت تريده فعلاً). ولكن الواضح أنني لا أريده فعلاً بالقدر الكافي.

ولكن من ناحية أخرى أريد الوصول بما فيه الكفاية، بدليل أنني غير راضية عن عدم الوصول إلى ما أسعى إليه.

لقد مضت خمسة أيام على هذا الفراق السريع بيني وبين فيليب ولكن الأمر لم يعد يعجبني؛ لأنني أصبحت أشعر بالغربة بدونه، وأريد أن أعرف ماذا يفعل هو وأريده أن يعرف هو ماذا أفعل أنا، ولكنه لم يتصل بي. وهذا يعني أنه إما يعرف قواعد اللعبة جيداً، أو أنه مستريح للوضع الحالي وللبعد، ولكن مستحيل أن يكون الأمر كذلك.

قررت أن أتصل به ولا حرج.

- جاء صوته غير مبال: هاللو.

- وبعدين؟

- وبعدين؟

الأمور تسير إذن على ما يرام. واضح أنني كنت غبية.

سألته بصوت أهدأ:

- كيف حالك؟

فأنا لا أريد أن يأخذ انطباعًا خاطئًا.

- حتى الآن تمام التمام. معي الآن بعض الضيوف وأعد

الطعام لجيني وإيسا!

- جميل، هذا دليل على أنك على ما يرام إذا كنت تستقبل

زيارات حريمي، بل وتعد لهم الطعام، معنى هذا أن الأمور تمام التمام.

قلت لنفسي: مهلاً لقد ارتفع صوتك أكثر من اللازم.

- يا كارو، نحن نستذكر دروسنا معًا وقمت بإعداد بعض

الطعام لهما. تعرفين جيدًا أنه ليس بيني وبينهما أي شيء!

أعلم ذلك جيداً، فجيني وإسا زميلتان لفيليب. فتاتان ظريفتان وعاديتان، ولكن هذا لا يعني أنني لم أحسدهما؛ فأنا لم أشعر بالغيرة منهما ولكن حسدتهما على أنهما الآن بجانب فيليب وتمضيان الوقت معه بالقرب منه ويشتمان رائحته. هذه الرائحة تخص أنفي أنا، وحتى مزاجه المنحرف يخصني أنا، رغم أنني متأكدة أنه يتعامل بظرف شديد مع الفتاتين كعادته مع الآخرين؛ فالجميع يقدره.

النجدة. من الخوف؛ فحياة فيليب تسير بشكل عادي، ربما بدا صوته مرهقاً بعض الشيء ولكنه لا يحمل نبرة حزن تتم عن أنه يفتقني. النجدة. النجدة. النجدة.

قلت له بنبرة طفولية انطلقاً من خطة الطوارئ التي وضعتها:

-أفتقدك بشدة.

-كارو. ثم تصورت أن يكون رده هو:

وأنا أيضاً أفتقدك بشدة. تعالي حالاً وتناولِي الطعام معنا، هل تقبلين أن نتزوجيني؟ سوف أغير من نفسي من أجلك وسوف نعيش حياة كلها سعادة!

لكنني انتظرت ثانيّتين أو ثلاثاً لأسمع إحدى هذه الإجابات التي تخيلتها أو أن أسمع منه ما يفاجئني به لكنني لم أسمع سوى أصوات البنّتين في الخلفية.

ولما لم أسمع منه أي رد بدأت أشعر بالتوتر:

- ألم تشق إليّ؟.

- طبعاً وحشتني يا كارو.. ولكن..

سمعت ما يمكن أن يأتي بعد كلمة لكن ولو لم يقل شيئاً؛ فأنا أعرف أن ما سوف يأتي بعد لكن.. مجرد كلام لن يرضيني.. سمعت ما لم يقله. وفجأة شعرت أنني أريد أن أذهب لقضاء حاجتي؛ فأنا أعرف نفسي، إذا توترت أسرع إلى المرحاض؛ فذلك هو ما يطلقون عليه القولون العصبي.

سألته في هدوء:

- لكن ماذا يا فيليب؟ هل عليك أولاً أن تعد أطباق الحلوى

للبنات؟

- يا كارو: دعينا نتصل غذا في هدوء.

- لا أريد أن نتصل غذا في هدوء. أريد أن نتحدث الآن،

أريد أن أعرف ما مصير علاقتنا!

لقد ردد فيليب اسمي خلال الدقائق الثلاث الأخيرة أكثر مما نطقه على مدى السنتين الماضيتين.

- لا يمكنني الآن الحديث، لدى ضيوف. سوف أتصل بك بعد ساعتين مرة أخرى، أوكي؟.

ولما كان العند يلقي رد فعل عند الرجال، قلت له بصوت متكاسل:

- سوف أكون قد استغرقت في النوم.

- أرجوك، سوف أتصل بك عندما يسود الهدوء هنا.

- في المشمش. قلتها ووضعت السماعة.

تصاعد التوتر في داخلي تمامًا مثل الفقاعات التي تطير في كوب به مياه غازية.

ذهبت إلى المرحاض وتمنيت أن يكون ذلك تفرغًا من الطعام وتفرغًا من الخوف. ولكن للأسف الأمر ليس كذلك؛ فالخوف لم ينضج بعد لكي أتخلص منه.

فيليب لا يفقدني. فيليب راضٍ بالبعد عني. لقد كان الفراق بناءً على رغبتي، كنت أريد فترة ابتعاد عنه لأنني لم أكن سعيدة معه.

أما الآن فقد انقلبت الأمور لصالحه، حاولت أن أبدو أنني ألملم شتات نفسي. قلت لنفسي: اهدئي يا كارو، لا تكرهي النهار قبل أن يأتي المساء، هدئي للعب، الجزاء لا يكون إلا على قدر العطاء.

دعني أخص الوضع الحالي:

- ماذا أريد بالضبط؟

- أن يشعر فيليب بأنه يفتقدني.

- لماذا؟

- لأنني أنا أفتقده.

- لماذا أفتقده؟ هكذا!

- إجابة أكثر دقة إذا سمحت.

- لا أعرف، هكذا وحسب.

- هل يمكن أن أفتقده أنا بسبب أنه لا يفتقدني؟

- لا أعرف، ولكن الأمر سيان والمحصلة النهائية واحدة.

- هل أشعر بالخوف من الوحدة؟ اتركني في حالي.

لا أريد الاستمرار في التفكير، أريد فقط أن أدخن أكثر وأكثر،

ثم أستغرق في النوم قبل أن يتصل بي فيليب.

ولكن فيليب اتصل بالفعل حتى قبل أن أدخن بالقدر الذي أريده.

تركت جرس التليفون يرن لمدة خمس وعشرين ثانية وبعدها
بخمس ثوان فتح صندوق الرسائل المحمولة، لقد انتصرت، فرددت
بصوت منهك:

ألو:

قلت كسبًا للوقت:

- وبعدين؟

قال كما لو كان هو أيضًا يريد أن يكسب بعض اللحظات:

- وبعدين؟

- هل انصرفت السيدات الزائرات؟ أم أنهن ما زلن في
سريرك؟

وكما لو أنني سمعته يقلب عينيه وتصورته وهو يقول:

يا كارو؟ وفعلاً سمعت صوته يقول:

- يا كارو؟

قلت في نفسي: لكل مقام مقال؛ لذلك لا أريد أن أوجه لفيليب
أسئلة جادة لأنني أخشى أن تأتي إجابات جادة؛ لذلك سألته:

- ماذا طبخت لهن؟

وبينما هو يجيب عن سؤالي كنت أنا أفكر في السؤال التالي.
فكرت أن أسأله إذا كان قد بال مرة أخرى في المواصلات العامة؛
لأن ذلك سيحتاج إلى إجابة طويلة.

ولكن فيليب ليس من الحساسة بكمكان بحيث يشعر بمناوراتي
لصرف انتباهه؛ لذلك أخذ يتحدث عن تماسك الفاصوليا الخضراء
أثناء الطبخ.

- ما هذا الهراء! أنت لا تتحدث طوال الوقت إلا عن الطعام؟
ألم تستوعب أننا أمام مشكلة؟ هذا التباين والاختلاف بيننا؟ فبينما
علاقتنا تترنح ما زلت تتحدث عن نفسك!

أعلم جيداً أنني بذلك أظلم فيليب؛ لأنني لا أريد أن أواجه
الواقع. لقد قررت أن أبدأ بالهجوم؛ فهو خير وسيلة الآن، سأستخدم
الكرهية كمعطف للتموديع، سأستعمل الكراهية كسلاح جديد.

- ماذا تريدان أن أقول يا كارو؟ لقد طلبت أن نبتعد لفترة
وأنا... أعتقد أن هذا القرار كان صحيحاً!

- ولكن كنت أتحدث عن فترة استراحة ولم أقصد الفراق؛
الفراق الذي تجده حلاً بالنسبة لك كي تتمكن أن تطبخ للبلهائتين.

- الأمر ليس كذلك يا كارو، تتصورين. أنك كنت تريدين فترة استراحة ولكن الحقيقة أنك كنت تريدين الفراق. لقد قلت إنك لست سعيدة معي ولا أنا سعيد معك. وكان معك في ذلك كل الحق، أنا فعلاً تعس. ولا يمكن للحال أن يستمر على ما هو عليه. نحن لا نصلح لبعضنا.

لقد صدمتني هذه الكلمات، فليس هذا هو فيليب الذي أعرفه، لقد كنت أتصور دائماً أنه جبان.

- ولكنني افتقدك يا فيليب، وهذا سوف يغير الأمر تماماً.

وفجأة شققت كلمات الدكتورة أنيت في أذني: هل سيتغير الأمر فعلاً؟ رد فيليب بصوت لم أتوقعه: هل سيتغير الأمر فعلاً؟ أعتقد أن الفراق هو الأفضل بالنسبة لنا.

أن تستيقظ في الصباح مكتئباً أسوأ بكثير من أن تكون مكتئباً على مدى اليوم. الأفضل أن تكتب في المساء بحيث تستطيع أن تدخل سريرك وتخلد إلى النوم، ساعتها سيكون أمامك عدد من الساعات تكون فيها بعيداً عن الاكتئاب. وتحلم أثناء النوم أنك نجم أو لاعب كرة شهير (هذا ما يحلم به الشباب)، ولكن للأسف لا أرى هذه الأحلام. فعندما أمر بمشاكل عاطفية أحلم بأن الأمور سوف تعود إلى ما كانت عليه، بل ربما أفضل مما كانت؛ فأحلم مثلاً أننا

وفيليب قد عدنا إلى بعضنا وأنا نعيش قصة حب كما نراها في الأفلام، أرى فيليب دائماً في حالة مزاجية رائعة. أحلم أننا انتقلنا لنسكن معاً وأني حامل. ثم أرى الصديقتين جيني وإسا وهما تتظفان منزلنا وتدلكان لي قدمي، حتى لو لم تكن نظيفة بالقدر الكافي. أقصد قدمي وليس الصديقتين. أشعر أنني مننسية وسعيدة طوال اليوم، أرى كل ذلك في الحلم.

وفي الصباح، بعد أن أكون قد نمت لمدة ثماني ساعات، أشعر بأنني وحيدة. ينتابني هذا الشعور كل صباح، أستيقظ وكأني حيوية ونشاط ومليئة بهرمون السعادة، ولكني بمجرد أن أستيقظ، يتجشأ الواقع برائحة فمه الكريهة في وجهي صائحاً: لقد خدعتك! وسوف أمضي اليوم بأكمله معك. أرى أمامي اثنتي عشرة إلى ثماني عشرة ساعة من الألم والبؤس وهي تمتد أمام عيني كالبساط الأحمر.

أعرف نفسي جيداً عندما أمر بأزمة عاطفية، كما أعرف أن الحل هو أن أحاول تسليية نفسي وأن أتناسى. والتناسي هنا له قيمة عالية؛ فهو يجعل الشخص يستجمع قواه على مدى اليوم الذي تدق فيه كلمة النهاية على الباب.

أبكي لفترة في سريري ثم أقوم بتصوير نفسي من خلال التليفون المحمول وأكتب عليها: اليوم الأول، ثم أنهض من السرير،

أطلب من الحقيقة أن تتكرم بغسل أسنانها طالما أنها سوف تتصدر قائمة ضيوف قلبي على مدى الأيام (الأسابيع والشهور) التالية، ثم أتصل بصديقي المقرب نيلسون وأطلب منه أن يصطحبني أنا والحقيقة إلى البحيرة.

يوحي اسم نيلسون عموماً بمضامين غريبة، إلا أن صديقي نيلسون ليس كذلك على الإطلاق فهو إنسان أكثر من عادي، جسمه عادي، له عينان لونهما بين الرمادي والأزرق والأخضر، وشعره أشقر غامق يميل إلى البني، اعتاد أن يرتدي تي-شيرت عادياً وبنطلون جينز. وحذاء رياضياً، ونظارته عادية.

هذا هو المظهر الذي يرى نيلسون أنه يناسبه، حيث إنه شخصية معروفة، فإن هذا المظهر البسيط نادراً ما يجعل الناس يتعرفون عليه.

يعود تعارفنا أنا ونيلسون إلى وقت التدريب الذي أمضيته في وكالة الإعلان، كان هو أيضاً يتدرب في ذات الوقت إلا أنه ترك المكان لحصوله على وظيفة في قناة تليفزيونية للإعلان، استطاع خلال السنوات الماضية أن يصبح من أشهر مقدمي الإعلان في هذه القناة. أشعر بالفخر عندما يتعرف عليه الناس وأنا أسير بجانبه في الشارع. نحاول أحياناً أن نبدو كما لو كنا زوجين، وقتها أشعر بأن

بعض شهرته ينزلق ليصل إليّ، إن هذا لا يعني أن نيلسون ما زال أعزب فهو متزوج من سيدة رائعة اسمها كاترين.

ورغم ذلك نمارس لعبة المشاحنة بين زوجين على قارعة الطريق فيصرخ الواحد منا في وجه الآخر، إلى أن يسحب أحدهنا مخالفته؛ لأن الأمر أصبح مخجلاً فعلاً. ويعتبر الفائز منا هو الذي يصيح بحجة تضع الآخر في حرج بحيث يهمس له أن يصمت.

بالرغم من كون نيلسون إنساناً جاداً جداً ويستطيع أن يبعث في السيدات العجائز إحساساً بربيع ثان، فهو قادر على أن يكون مرحاً ولكن بخبث، فرغم أنني أعرف كل النكات والدعابات الخارجية، إلا أن نيلسون يستطيع أن يدهشني أحياناً.

أثناء إجازة مشتركة أمضيها منذ أعوام في البرتغال قررنا على مدى أيام أن نمارس رياضة القفز في الماء. استأجرنا سيارة وسرنا بمحاذاة الساحل، وكلما وصلنا إلى شاطئ نزلنا من السيارة وقفزنا في الماء لمدة خمس دقائق، ثم استقللنا السيارة واستمررنا في السير حتى وصلنا إلى الشاطئ التالي. وبناء على نظرية هرمان في الاسترخاء فإن الموضوع كان يهدف إلى الكم وليس الكيف.

وذات مرة ما بين الشاطئ العاشر والخامس عشر وقفنا أمام ميناء صغير به منطقة للسباحة. جذب انتباهي منظر الرصيف الأسمنتي الذي يبدو أنه مبني للمعوقين مستخدمين الكراسي المتحركة.

فما كان من ذهني إلا أن قفز بنكتة عادية حول مستخدمي الكراسي المتحركة على الشاطئ؛ وفجأة وجدت وجه نيلسون يتجهم ويقول: نكتة عادية جدًا يا كارو؛ فأبي وأمي يجلسان على كرسي متحركة.

تمنيت وقتها لو أن الأرض قد ابتلعتني واحمر وجهي بشدة، أدار نيلسون ظهره ونزل إلى الماء دون أن ينطق بكلمة واحدة، وفي هذه الأثناء خطر لي خاطر؛ أن أسنقل السيارة وأهرب بها حتى لا أضطر إلى أن يقع نظر نيلسون عليّ مرة أخرى.

يا للخجل الذي شعرت به وقتها!!

كان من المستحيل أن أبحث عما إذا كان الموضوع مجرد دعابة من دعابات نيلسون؛ فلو أنني سألته ولم يكن الأمر كذلك لكان الحل الوحيد بالنسبة لي هو الانتحار، فلم يعد أمامي حل سوى أن أخجل من نفسي أكثر وأكثر وأن أغير موضوع الحديث.

وبعد مدة طويلة وبعد أن سألت نيلسون عن نفس الموضوع قال لي إن أهله بصحة جيدة ولا يستخدمان كرسيًا متحركًا ولا يحزانان. وقال لي إنه تصور وقتها أنه بسبب عدم استيعابي لطرفته أنها لم تعجبني. رائع! هذا هو نيلسون الذي أعرفه، يجيد عمل المقالب في الآخرين.

والآن فليتفضل نيلسون ويسمح لي أن أصطحبه إلى الشاطئ؛
فالجو حار جدًا وأخاف أن أصاب بمكروه لو لم يغم أحد بتسليتي على
الطريق.

في السيارة سألني نيلسون:

- يا عروستي الجميلة، هاتي ما عندك من جديد.

بدأت فوراً في البكاء، فلم أعد أستطع أن أتحكم في دموعي في
الفترة الأخيرة. فلم يعد هناك تمهيد للبكاء، لا ارتعاش بالشفاه
ولا عيون مبللة أو صوتاً مبجوحاً، وإنما سفر الرؤيا (يوحنا) مباشرة.
لا يستطيع نيلسون أن يتعامل مع مثل هذه المواقف؛
فالأحاسيس الشديدة تربكه. لذلك فإن أول شيء يفعله هو أن يستخدم
عقله (فهو يجيد هذا) ثم يقول كلمات مثل:

- تحبين أن أقود السيارة بدلاً منك؟

قلت له باكية:

- لا، الموضوع لا يستحق.

الواقع مخالف لذلك تماماً. فالموضوع يستحق؛ لأنني حزينة
ومكتئبة، فأنا بلا عمل وبلا صديق أيضاً. ولكنني لست أنا التي تنقل
حزنها وكآبتها إلى الآخرين، ليس ذلك رغبة مني في عدم إطلاع

الآخرين على ما يدور بداخلي، وإنما لأنني لا أريد أن أكون عبئاً على الآخرين ولا أن يمل أحد وجودي؛ لذلك أغلق أجناني وأسحب إفرزات أنفي إلى أعلى وأحاول الابتسام ثم ألقى نكتة مفاجئة. لماذا أطلب المساعدة، بينما يمكنني مساعدة نفسي؟ سألته:

- كفى كلام عني أنا، نتكلم عنك أنت، ماذا عندك من جديد؟ ما هي السلعة المطروحة في العرض الخاص في محطتكم هذا الأسبوع؟ ربما تكون عصارة الفاكهة الرائعة المطروحة الآن، أحتاج لواحدة لأن عصارتي...

إلا أن نيلسون لم يرغب في أن أستمّر في الحديث وقال بصوت حاد:

- الواضح أن الأمور عندك سيئة للغاية، أرجوك أوقفني السيارة على الجانب الأيمن!

ولكنني لا أرغب أن أوقف السيارة على اليمين، فلم نتجاوز الشارع الذي أقيم فيه وبالتالي لم نصل إلى الطريق العام، ثم إنني أستطيع أن أتحكم في نفسي أكثر عندما أقود السيارة. هنا وفي مثل هذه المواقف يختلف نيلسون عن الشباب الذين يصادقون البنات ويقولون في مثل هذه المواقف:

- عذراً يا حبيبتي!-

ولكن نيلسون يتصرف تصرفاً ناضجاً ومتعقلاً ويقول بعصبية:

- أقول لك توقفي يمينا، ليس معقولاً أن تقودي السيارة وأنت

تبكي بهذا الشكل، أنا لا أأرغب أن أموت هنا!!.

ولما كنت غير متأكدة من ذلك، ولا أريد أن أغضبه فقد أوقفت

السيارة حتى نتبادل المقاعد ويقود هو السيارة، لم أوقف السيارة حتى

يتمكن نيلسون من معانقتي ولا أن يواسيني، ولكننا تبادلنا المواقع فقط.

فنيلسون يجيد تولي السيطرة على المواقف مثلي تماماً.

لا يعني هذا أنه لم يأخذ الموضوع بجدية، على العكس فقد بدت عليه

علامات القلق تماماً مثل الشرطي الذي يحقق في جريمة اغتصاب

بحرفية شديدة؛ فهو يريد أن يكون نظرة عامة عن الموضوع حتى

يتمكن من تقييم الأمور. فالشرطي لا يحتضن أحداً وكذلك لم يفعل

نيلسون، وبناء عليه بدأت أقص على السيد الضابط (!!) الموضوع

بتفاصيله، فأنا لا أريد إثارة مشاكل مع النيابة!!

وأعطيت أقوالي كاملة: بداية من أول جلسة مع الدكتورة آنيت

حتى الحلم الذي حلمته عن فيليب. وعندما انتهيت من الكلام كنا قد

وصلنا إلى الشاطئ، لم أشعر بأي تحسن في حالتي ولكنني لم أعد أبكي. كان الشاطئ مزدحمًا إلا أننا استطعنا أن نجد مكانًا مناسبًا، تبدو هذه الكبان الصغيرة كما لو كانت أقفاصًا، أخذت أبحث عن المفتاح في حقيبتي بينما نيلسون يرمقني بنظرة تعني: يا لهؤلاء البنات وحقائبهن! إلى أن حضر شخص وفتح الباب وسمح لنا بالدخول.

استلقينا في مكان ظليل. اتضح احساس نيلسون ورغبته مشاركتي في حل مشاكلي حيث تركني لمدة ثلاثة أرباع الساعة بينما هو يستمع فقط ويوجه لي بين الحين والآخر سؤالاً مختصرًا. وفي النهاية لم يعطني النصيحة وإنما أوما برأسه موافقًا وقال: في الحقيقة الموضوع معقد!

لم أكن أحتاج لأكثر من هذا، فالنصيحة لن تقيدني بشيء؛ فأنا أعرف كل الإمكانيات المتاحة لي وكل ما على فقط هو أن أختار أحدها؛ لا أريد أن أسمع أن انفصالي عن فيليب كان هو الحل الأمثل، كما لا أريد أن يقال لي: إن الأمر طبيعي في حالتي النفسية هذه، حيث إنني بلا عمل وأخضع لعلاج نفسي مما يضطرني أن أجتز مخاوفي.

أعرف كل ذلك كما يعرف نيلسون أنني أعرف ذلك. أعرف أيضًا أن هذا هو أسلوب نيلسون في معالجة الأمور، وأعرف أنه يعلم أنني أعرف.

والآن ها نحن الاثنان مستقلين على الشاطئ ونرسل على
نفس موجة الإرسال؛ لذلك نستطيع الآن أن نذهب بتفكيرى بعيداً.

وضعت لنفسي خطة ممتازة ضد الألم؛ فحيث إنني لا أستطيع
النوم لمدة طويلة فلا بد أن أترك المنزل فور استيقاظي من النوم؛
فالمثل يقول: إن ساعات الصباح تحمل في نفسها قرناً!! (*) لذلك فأنا
أنجز الكثير من الأعمال المترجمة علي؛ فأجدد جواز سفري وأقوم
بعملي في الكافيتريا خلال الفترة الصباحية (يرجع الفضل في ذلك
إلى ابتكار وجبة تسمى البرانش: وجبة الطعام نصف الصباحية تقوم
مقام الفطور والغذاء معاً، ثم أذهب إلى سوق أدوات البناء وأتعمد
دائماً أن أنسى شيئاً من قائمة مشترياتي؛ فقد نسيت مثلاً شراء بعض
المسامير من المحل المتخصص، لذلك سوف أضطر للذهاب غداً مرة
أخرى إلى هناك.

لقد حاولت أن أستلقي أثناء النهار على الكنبه ربما استطعت
أن أنام بهدف إضاعة بعض ساعات النهار؛ للأسف جاء ذلك بنتيجة
عكسية، فبمجرد أن أحاول النعاس تهاجمني الآلام بقوة، ويطبق
الحزن على صدري، فأستيقظ على نبضات قلبي السريعة وأسارع
بالخروج من المنزل.

(*) يقول المثل الألماني: ساعات الصباح تحمل في نفسها ذهباً (المترجمة).

التقي بالكثير من الأصدقاء والمعارف؛ فأحكي لهم بكل فخر
عن قطع علاقتي بفيليب وعن العلاج النفسي الذي أتلقاه، وأنه ليس
في الإمكان أفضل مما هو الآن.

يسبب لي كل ذلك آلامًا شديدة ولكنها آلام شاقية، أسمع من
يقول لي: سوف تكون الأمور على ما يرام، أو من يقول لي: ماذا
عندك من جديد؟

وبذلك أمضي اليوم كي أصل إلى نهايته وأنا منهكة؛ لأستيقظ
في اليوم التالي على نفس المعاناة.

أشعر طوال الوقت بالقلق والضعف في الوقت ذاته، بدأت
أطرافي ترتعش وأشعر دائمًا بحالة من الإرهاق. لقد أصبحت أنام
على مدى النهار رغم أن هذا الأمر لا يفيدني، ولكن ما باليد حيلة.

بدأت أعد العدة والحقائب لرحلة بحرية جديدة، ثم صرفت
نظرًا عن الموضوع. لا أستطيع أن أصلب طولي وأقف على رجلي،
رقدت في سريري ولم أستطع النهوض منه كما لو كان أحد يربطني
في السرير.

أخذت أنظر إلى الحقائب التي لم أعدها بعد وأفكر قائلة: يا
للعجب، أف مما أنا فيه!

بدأت أشعر بالقلق على نفسي؛ لذلك دخلت على شبكة جوجل كي أستطلع معني الأعراض التي أشعر بها، رغم أنني أعلم جيدًا أنه ليس من المفروض أن أفعل ذلك.

عدم الرغبة في العمل، التعب، قلق داخلي واضطراب المزاج، كل هذه أعراض واضحة للإصابة بالاكتئاب.

قمت بأداء اختبار على شبكة الإنترنت اتضح لي منه أنني أعاني من اكتئاب من الدرجة المتوسطة. هكذا تسير الأمور، أليس من حق الشخص أن يشعر ببعض الحزن دون أن يكون مصابًا بالاكتئاب؟ أليس كذلك؟

ربما يكون هذا الاختبار مجرد مؤامرة من شركات الأدوية التي ترغب فقط في الترويج لأدويتها، ولكن لا يمكن ممارسة هذه الأمور معي؛ فأنا أعرف جيدًا الفرق بين المشاكل العاطفية والأمراض النفسية. قررت تأجيل الرحلة إلى الشاطئ؛ فأنا لم أقم بإعداد هذه الحقيبة الملعونة.

ثم.. ثم إنني متعبة جدًا.

ذهبت لمتجر الأدوات المنزلية لأشتري حاملة المناشف الماصة للسوائل الذي نسيت أن أشتريه المرة السابقة، لا عجب في

ذلك لما أنا عليه من انشغال. منحت نفسي الوقت الكافي للمفاضلة بين الخاملة المصنوعة من البلاستيك الأبيض وبين اللون المعدني والمصنوع من البلاستيك أيضا. مثل هذه الأمور تحتاج إلى تأن وترو، صحيح أن المناشف التي أستخدمها بيضاء اللون، ولكن الصنوبر مصنوع من الصلب الذي لا يصدأ. يعني أن النوعين من المناشف يصلحان للحمام، ولكن ماذا يمكن أن يكون أفضل للمناشف ذاتها؟ فالبلاستيك الأبيض يبدو دائما من النوع رخيص الثمن بينما اللون المعدني ظاهر للجميع فضلا عن كونه سخيفا بما يسبب صدمة لمناشفي.

شعرت بعاصفة تنتشر في جسمي بأكمله.

وفجأة شعرت بها تقترب.

شعرت بقلق شديد مفاجئ، الواقع أن هذا الأمر أصابني عدة مرات خلال الأيام الماضية، أما الآن فهو شيء مختلف تماما. هناك شيء يتجمع بداخلي، قلبي يدق بسرعة شديدة وشعرت بأن شيئاً ضخماً يتدحرج نحوي، مثل Stampede (*) بدأت تجري جميعها بلا سبب محدد وليست في اتجاه واضح. هكذا تصفه الموسوعة، وهذا هو بالفعل ما أشعر به؛ حيوانات مفترسة بلا أي سبب. ففي داخلي

(*) اتحاد غريزي بين الحيوانات المفترسة (الترجمة)

يركض كل شيء نحوي، صوته عال، وسريع وخطير يهددني، لا أشعر بالخوف من شيء محدد، لا شيء منطقي ولكن كل شيء يدعو للخوف.

بدأت أتصيب عرقاً. لا بد أن أخرج من هذا المكان على الفور. ولكن لأنني أنا - كما أعرف أنا نفسي - فقد وقفت أمام الخزينة لأدفع ثمن أربعة حوامل للمناشف مصنوعة من البلاستيك الأبيض.

المرّة الوحيدة التي أصبت فيها بنوبة ذعر كانت منذ حوالي عام، وكانت ليلاً أثناء نومي في سريري، شعرت بالآم غير محددة في ساعدي، فكرت للحظات في تشخيص محتمل لما أعاني منه، ربما جلطة أو انسداد رئوي، ولكن فجأة بدأت أشعر في جسمي كله برغبة شديدة للهرش، لم أعد أستطيع أن ألتقط هواء لأتففس بل اضطراب في ضربات قلبي، وحيث إنني متابعة جيدة لبرامج التليفزيون فقد قمت بنفسني بإجراء إسعافات أولية لنفسني: خرجت إلى الهواء الطلق وتنفست بعمق وليس بتسنج. لقد وقفت لمدة عشرين دقيقة كاملة وأنا عارية تماماً في شرفة منزلي وتنفست حتى تجمدت من البرد، ثم فتحت الراديو لأسمع تمثيلية إذاعية لكي أستطيع النوم أثناء سماعها.

لقد تعلمت طوال حياتي أن أحل مشاكلني بنفسني. فأنا اعتبر

نفسى مثل مدينة نيويورك *If I can make it there, I'll make it any where* إذا كنت قادرة على أن أفعل ذلك هناك، فأنا قادرة على فعله في أي مكان.

عدت إلى داخل المنزل وأنا أرتعد أتصيب عرقاً. صحيح أنني لست على ما يرام، ولكن مهلاً، فأمامي أشياء كثيرة يجب أن أنجزها.

إنه عيد ميلاد نيلسون ونحن على موعد بعد ساعتين؛ يجب أن أغلف الهدايا بالشكل المناسب. لذلك لا وقت لنوبات الخوف، خاصة وأنه لا يوجد سبب محدد يدعو لذلك، ثم إنني لست مريضة نفسية.

تجاهلت كون جسمي لا يستطيع أن يهدأ، فنهضت كي أغلف هدايا نيلسون، لم أستطع أن أقبض على شريط اللصق فألقيت نفسي على السرير ولكن.. لا فائدة؛ فما في داخلي يشبه الغابات الاستوائية، أصوات عالية ومتزاحمة. حاولت أن أتنفس بعمق وأن أهدأ ولكن بلا جدوى.

وقفت لكي أغتسل ولكني لم أستطع أن أصلب جسمي وأقف على قدمي؛ خرجت من تحت الماء دون أن أجفف جسمي وأخذت أغلف الهدايا وأنا عارية، بينما أستمع إلى موسيقى لم أتعود على سماعها. وفجأة شعرت بالخوف من كل ما اعتدت عليه، لم أستطع أن أدير جهاز التليفزيون خوفاً من أن يخرج منه ما يؤذيني.. ربما!! أخذت أسير في الغرفة ذهاباً وإياباً ثم، ثم اتصلت بنيلسون:

- نيلسون، أقول لك إنني أشعر بشيء غريب، ربما يكون من الأفضل لو حضرت وأخذتني أنت بدل من أن أمر أنا عليك.. ممكن؟.

جاء رد نيلسون الطيب الذي لا يعرف أبعاد الموضوع:

- ماذا حدث؟

- لا شيء.

حاولت أن أهون من الأمر فقلت له:

- أشعر كما لو أنني سوف أصاب بنوبة خوف وفزع أو شيء

مثل هذا. لكن، سوف يكون كل شيء على ما يرام! متى ستحضر؟

- بعد ساعة تقريبًا، عندي ميعاد في المحطة.

حاولت أنا كارو هيرمان - والتي تقفز الكلمات على شفيتها -

أن أداعب نيلسون فقلت له:

- لو أنكم ما زلتم تقومون بالدعاية للجهاز الذي أعنيه،

أرجوك أن تقول لرؤسائك إنني سوف أنصح باستخدامه.

- حسنًا يا خنزيرة، إلى اللقاء.

لكنه ليس من السذاجة بحيث يتصور أن الأمور على ما يرام،

وبالرغم من ذلك تقبل دعابتي.

عدت لأسير داخل الغرفة، فنظرت إلى الهدايا ووجدت أن تغليفها فطيم؛ لأنني لم أستطع أن أقوم بذلك بصورة جيدة؛ الورق كله منبعج ومغلف بلا اهتمام.

يجب أن أفعل أي شيء، أشعر بنار داخلي. أخرجت حوامل المناشف من الكيس وذهبت بها إلى الحمام لكي تسعد المناشف بها. ولكنني لم أستطع أن أنتظر رد فعلها؛ فقد شعرت أنني أصبت بالجنون، فما يدور في داخل جسمي شيء فوق الاحتمال. أشعر بفوران شديد انضم إلى الخوف الذي أحسه ليطبعا معاً على صدري. لقد أحاطني هذا الغطاء الثقيل من كل جانب فلم أعد أجد الهواء الذي أتفسه.. أشعر بالاختناق.

وجدت على أرض غرفة المعيشة مقصاً ملقى على الأرض فأصابني الخوف منه فجأة، بل خوف من نفسي فأبعدته عن المكان، حتى الشرفة أصابتي بالذعر، فلو أنني قفزت منها لمت فوراً ولانتهى معي الخوف والحزن.

اتصلت بنيلسون مرة أخرى وقلت له هذه المرة وأنا أبكي:

- ممكن تحضر مبكراً بعض الشيء؟ أشعر بشيء غير طبيعي.

وقبل أن أكمل كلامي جاء صوت نيلسون الناضج الذي يبعث على الهدوء:

- سأحضر حالاً، أنا في الطريق إلى السيارة.

وددت لو عبرت له عن شكري وامتناني، إلا أن نيلسون لم يمنحني فرصة للكلام، بل أخذ يواصل كلامه:

- أنا خرجت من المحطة فعلاً وفي طريقي للسيارة، المسافة حوالي خمسين متراً، أنا داخل السيارة، أفتلت الباب وأدرت السيارة. سأكون عندك حالاً، حاولي أن تهديني قليلاً.

أجهشت بالبكاء فسالت كل أنواع السوائل من خلايا وجهي، فلم أجد قدرة على الكلام. أخذت أركض في جوانب الشقة مثل النمر الهائج، بينما سماعة التليفون ما زالت على أذني. أشعر بأن جسمي حقل للألغام. سمعت نيلسون يقول:

- أنا الآن أمر أمام المطعم الفظيع الذي تعاركت فيه من فترة مع الجرسونة لأنها أحضرت لك طعاماً غير الذي طلبته، تتذكرين ذلك؟

قلت له وأنا مستمرة في البكاء:

- نعم أتذكر أنني قلت لها أني لا أفضل الدجاج، لكنها أحضرت لي دجاج بالكاراي.

لم تعد خطة نيلسون تجدي معي، شعرنا نحن الاثنان أنه لم يعد قادرًا على أن يصرف انتباهي عما أشعر به؛ فلم يعد يحاول أن يسعى إلى أن يقدم لي بعض الإسعافات الأولية على طريقته الخاصة.

- أنا أمر الآن أمام المحل المجاور، وعلى وشك الدخول إلى شارعكم، سأكون عندك فورًا. لا تخافى شيئًا يا جميلتي فسوف تكون الأمور كلها على ما يرام.

- في انتظارك. . ووضعت سماعة التليفون.

دق جرس الباب، فاستخدمت جهاز فتح باب المنزل عن بُعد، وحملت هدايا نيلسون على ذراعي؛ ليته لا يرى سوء تغليف الهدايا. فتحت باب الشقة وحاولت، بينما أنا أبكي، أن أرسم على وجهي تعبيرات أغنية: عيد ميلاد سعيد. شعرت بالخجل من نفسي فقد استحوذت على كل الوقت، بينما المفروض أن يكون نيلسون اليوم هو محور الاهتمام؛ فاليوم عيد ميلاده هو.

بدا وجه نيلسون مهمومًا، فمددت له يدي بالهدايا بينما أنا أغغم بكلمات عن عيد الميلاد وورق التغليف وحامل المناشف.. إلخ. لم أتعجب عندما كنت أضحك ضحكة صبيانية وأنا أقول هذه الكلمات.

لم يقل نيلسون أي كلمة، بل أدخلني إلى شقتي وأخذني بين ذراعيه.

ثم، ثم انهرت تمامًا.

هيا بنا إلى طوارئ المستشفى.

استلقي نيلسون وأنا على الأريكة، أو على الأصح أن نيلسون كان يجلس وأنا مستلقيّة ورأسي في حجره. سألت دموعي وأنفي وفمي من شدة البكاء على بنطلونه فاتسخ، قلت له باكية:

- أنا آسفة، بنطلونك بهذا الشكل يضعك في موضع الشبهة.

- كارو، استعدي كي نذهب إلى المستشفى.

نهضت واقفة وأنا أترنح ودخلت إلى غرفة النوم. لبست حذائي وفي هذه الأثناء كان نيلسون يعد لي فرشاة أسناني.

وفي السيارة لم أكف عن البكاء. فالدموع تتساقط بلا انقطاع دون أن أستطيع السيطرة عليها، تمامًا مثل الموسيقى التي نسمعها في المصعد.

شعرت ببعض الهدوء أثناء سير السيارة ولكنني أحسست بالوحدة. أسندت وجهي المبلل على نافذة السيارة ونظرت إلى الخارج، إلى هذا العالم الجديد والقديم في نفس الوقت؛ فلم أعد جزءاً منه. أشعر أنني موجودة في مكان آخر، كما لو كنت داخل متاهة لا أستطيع الخروج منها، بل الخروج من داخل نفسي لو صح

التعبير. أنا في غرفة مظلمة بلا أبواب. وبها نافذة واحدة تطل على الأشخاص الآخرين، أستطيع أن أراهم ولكني لا أستطيع أن ألعب معهم بل يجب عليّ أن أقف في ركن الغرفة وحدي.

حاولت أن أفسر ما يحدث لي بطريقة منطقية، حاولت أن أفهم هذا الخوف المفاجئ من الموت رغم أنني لم أفكر مرة واحدة بطريقة جدية أن انتحر. على العكس، بل لقد فكرت في الارتباط. إلا أن هذا المقصّ أفرغني، ربما يمكن أن يكون هو الخلاص المغربي، فالألم الشديد يمكن أن يغير من الغرض الذي يستخدم فيه المقص في العادة، مجرد هذه الفكرة أصابنتي بالفزع المرعب.

وصلنا إلى قسم الطوارئ دون أن يكون لدينا تصور محدد عما يمكن أن يقدم لنا من خدمات هناك، ولكن المؤكد أنني في حاجة إلى مساعدة، ربما حقنة مهدئة، أنا شخصياً من أشد المؤيدين لهذه الفكرة، بينما استوقف نيلسون إحدى الممرضات اللاتي يهرولن في المكان وبدأ يشرح لها المشكلة بينما أنا أقف مثل الكم المهمل، وأبكي تارة بصوت عالٍ وتارة بصوت منخفض، سألت الممرضة بصوت عالٍ وواضح وهي تشير نحوي:

هل تضحك أم تبكي؟..

قلت في نفسي: يا أيتها العاهرة، ماذا تتصورين مثلاً؟ وحتى لو كنت أضحك، أليس هذا سبباً كافياً للقلق في هذا الموقف؟

طلبت منا أن نذهب إلى طوارئ الأمراض النفسية. يبدو أنني لا أنزف بالقدر الكاف؛ فالواضح أن الشخص لا يتلقى المساعدة إلا إذا أساء استخدام المنشار الكهربائي أثناء العمل.

وجدنا طوارئ الأمراض النفسية معدة بطريقة جميلة جداً وبها حديقة، الواضح أن المرضى النفسيين يجدون هنا المكان الفسيح كي يحدثوا أنفسهم ويركضوا على راحتهم.

هكذا سيكون المستقبل بالنسبة لي!!

جلسنا في حجرة الانتظار ثم كان علينا أن ننتظر. أردت أن أقضي حاجتي فذهبت إلى دورة مياه الزوار التي وجدت بابها مفتوحاً للأسف؛ لقد وجدت بداخلها رجلاً يجلس على المرحاض ويقضي حاجته، فقلت له من بين دموعي:

- أنا أسفة.

وأغلقت عليه، وعلى الرائحة الصادرة منه الباب. أريد أن أحكي لنيلسون عن هذا الموقف إلا أنني أشعر بهزال شديد.

جلست مرة أخرى وأنا أشعر بمثائتي الممتلئة، وتعجبت أن يكون جسمي ما زال يحتفظ بسوائل يريد إخراجها بعد كل هذه الدموع.

خرج علينا ممرض ممتلئ الجسم واتجه نحونا وسأل عما يمكن أن يقدمه لنا.

من الواضح أنه يعرف نيلسون لكثرة ظهوره في التلفزيون؛ لأنه اتجه بنظره نحوه أكثر مما نظر إلى.

قصصنا عليه القصة، فسألني بعض الأسئلة التي لم أتمكن من الاحتفاظ بها؛ فأفهمنا أنه سوف يحضر الطبيب المختص وتركنا وذهب.

سألت نيلسون في عصبية:

- متى سيحضر أحد بالحقنة المهدئة؟

ثم ظهر الممرض البدين ومعه الطبيب الذي يبدو صغيراً في السن، والذي أخذ هو أيضاً يدقق النظر في وجه نيلسون.

تم إدخالنا إلى غرفة الكشف، فكان علينا أن نقص القصة مرة أخرى. ولكن قبل أن أتلقى أي علاج، كان عليّ أن أبرز البطاقة العلاجية، وكذلك سداد مبلغ عشرة يورو؛ قلت في نفسي:

- تحت أمرك يا أيها الطبيب الشاب، بس كده، لا نريد أن نزعج أحداً بمشكلتي البسيطة. على مهلك، هل تحب أن أذهب إلى البيت وأحضر لحضرتك شهادة التطعيم الخاصة بي؟

بدأت أشعر بالغیظ ورغم ذلك أحسست بالفخر؛ لأنني استطعت رغم الانهيار العصبي الذي یقترب مني أن أشعر بالكراهية، هل من المعقول أن نجلس هنا نحن الأربعة في حالة استرخاء كما لو كنا نلعب الكوتشينة وننظر في عیون بعضنا.

بدأ الطبيب حديثه قائلاً:

- يا سيدة هيرمان، اسمحي لي أن أخص الموضوع:

لقد قلت إنك تخضعين لعلاج نفسي منذ عدة أسابيع، فضلاً عن ذلك فقد قطعت الصلة بصديقك وفقدت وظيفتك. هل كانت هناك محاولات للانتحار؟

سألته وأنا أتعمد أن أتجاهل أسئلته:

- ممكن أخذ حاجة مهدئة لو سمحت.

قال الطبيب وهو يشير للممرض البدين أن يحضر شيئاً:

نعم، طبعاً، طبعاً.

ترك الممرض الحجرة وقد خاب أمله؛ فلم يكن يريد أن تفوته بعض الدقائق من هذا الموقف. تبادلت النظرات التي تحمل التساؤلات مع نيلسون فهز كتفيه.

وفجأة خطر لي خاطر، ربما يخشى هذان الشخصان شهرة
نيلسون ويتصوران أنهما أمام الكاميرا الخفية.

ربما كان هذا هو سبب حرصهما الشديد في الكلام
والتصرفات، أو ربما تصورا أنني واحدة من هؤلاء النساء ذوات
الحساسية الشديدة اللائي يشعرن بالحزن ولا يستطعن السيطرة على
الأمر، يا للهول، كل هذه الأفكار دارت بخاطري أنا شخصيًا.

عاد الممرض البدين وأعطاني قرصًا من عقار اسمه "Talvor"
وهو مهدئ ضد الخوف لونه أزرق فاتح، طلب مني أن أضعه تحت
لساني وأتركه يزوب.

لست هذا الشخص الذي يناسبه هذا العلاج؛ فأنا شخص عديم
الصبر، لا أستطيع أن أتناول دواءً يحتاج لوقت كي يظهر تأثيره.
لذلك فأنا أفضل الحقن أو على الأقل بعض القطرات لشربها، أي
شيء يصل إلى الدم مباشرة، إلا أنني الآن في وضع لا يسمح لي
بالاختيار وفعلت ما أمرت به.

وكما هي عادتي سألت:

- متى يظهر تأثيرها؟

أجاب الطبيب الشاب وهو ينظر إلى نيلسون:

- بعد حوالي نصف ساعة يمكن أن تشعرني بأنك أهدأ.
وممكن أن تظهر عليك علامات التعب.

هذا هو حال السيدات ذوات النهود الكبيرة، لا ينظر الناس في
وجوهن أثناء الحديث معهن، وأنا أعتبر هنا أن نيلسون هو صديري
الناهد. سألت الطبيب:

- وماذا سيكون الحال بعد ذلك؟

رد عليّ قائلاً:

- أقترح أن تستمري في جلسات العلاج، ويمكن استشارة
طبيب نفسي ليقرر إذا ما كنت في حاجة إلى أقراص ضد الاكتئاب.

وددت لو أنني سألته: هل يمكن أن آخذ بعض الأقراص الآن؟

إلا أن نيلسون وضع يده على ركبتي وضغط عليها كما لو

كان يقول لي: اسكتي!!

- أما إذا حاولت الانتحار فسوف نضطر أن نبتيك معنا هنا
لفترة، هذه هي القاعدة المعمول بها.

- ليس هناك محاولات للانتحار.

فلتها كي يهدأ هو وأهدأ أنا أيضاً.

تراودني فقط أفكار عن فكرة الانتحار، ولكن هذا لا يعتد به بالطبع.

قرر الطبيب أن نخرج من العيادة، والواضح أن الاثنين يرغبان في الحصول على أوتوجراف من نيلسون، ولكنه اليوم في مهمة خاصة بحيث يبدو مثل هذا الطلب نوعًا من عدم الكياسة ولا نوق. هذا ما نعرفه نحن الأربعة.
أنا هنا الأهم.

أخذنا أنا ونيلسون نسير في حديقة عيادة الطوارئ حتى يأتي القرص بمفعوله. اتصلت بالدكتورة أنيت وتركت لها رسالة دامعة على جهاز الرد الآلي، ثم طلبت من نيلسون أن يتصل بفيليب. لقد كنت على قناعة كاملة أنه الوحيد الذي يستطيع أن يهدئني ويشفيني. لم يستحسن نيلسون هذه الفكرة، ولكن للضرورة أحكام.

وبالفعل اتصل نيلسون بفيليب في ذات الوقت الذي كنت أتلقى فيه مكالمة من أنيت ردًا على مكالمتي.

بدأت أحكي لها ما حدث لي وأنا أبكي وأنتحب، بينما هي تحاول أن تهدئ من روعي.

- يمكن أن تمرى على الآن إذا رغبت يا كارو.

ولكني لاحظت أن القرص بدأ يأتي بمفعوله فحددت معها موعدًا في صباح اليوم التالي. أنهيت المكالمة وبدأت أسير بخطوات

صغيرة داخل حديقة العيادة. لم أعد بحاجة إلى أن أبكي، وقفت أمام قفص للطيور لكي أبدو أنني أراقب ما في داخل القفص إلا أنني في الحقيقة كنت أراقب نيلسون والذي بدت عليه علامات الجد وهو يتحدث في التلفون، بينما هو يقطع الحديقة ذهاباً وجيئة، وبعد أن أنهى المكالمة أتجه نحوني دون أن تبدو علي وجهه أي تعبيرات وقال:

حقير وأنا أعرف ذلك؛ يرى أنه ليس من الصالح أن يراك في الوقت الحاضر.

كانت صدمة بالنسبة لي فسألت نيلسون:

- هل قلت له إننا في عيادة الطوارئ؟ وإن الموضوع خطير فعلاً وليس مجرد موقف بسيط؟.

كنت خائفة أن يتصور فيليب بغبائه المعتاد أنني أدعي كل هذا، أجبني نيلسون:

- طبعاً قلت له، وقلت له كذلك إنني أرى أنه من الضروري أن يكون بجانبك في هذا الوقت، فقال إنه خائف أن يتصرف تصرفاً خاطئاً في هذا الموقف.

يا للسماء! يا له من شخص فاشل صديقي السابق هذا!. حتى
في مثل هذا الموقف لا يفكر إلا في نفسه؛ فبينما أنا أدور بناكية على
عيادات الطوارئ في هذه المدينة وأخفي المقصات عن عيني لا يفكر
فيليب إلا في إمكانية أن يتصرف تصرفاً خاطئاً!

أنا لا أريد إلا أن أرتمي بين ذراعيه اليوم بل الآن، حتى أعود
إلى ذاتي.

سألني نيلسون إذا ما كنت أشعر ببعض التحسن وتأيط ذراعي
لكي يوصلني إلى السيارة. أشعر كأنني قطعة من الصلصال بين
يديه، الأمور كلها تتساوى بالنسبة لي الآن.

- أشعر بأنني مجهدة جداً.

عدنا إلى وسط المدينة وأوقف نيلسون السيارة أمام منزله وقال
لي بصوت أبوي واثق:

- سوف تمضين الليلة معنا!

لهذا أحضر فرشة أسناني معه إذن.

قلت له بصوت منخفض كما نشاهد مثل هذه المواقف في
الأفلام:

- لا أريد أن أسبب لك إزعاجاً أكثر من هذا.

كنت أعني ما أقول بالفعل. فرد على نيلسون بقوله:

- ليناك تتوقفين عن هذا الهراء يا كارو. لن تتسبيني في أي إزعاج؛ كارين زوجتي تعرف أنك ستحضرين معي. أهلاً وسهلاً بك عندنا.

وفعلاً نزلت أهلاً وسهلاً، فقد قامت كارين بإعداد طعام العشاء لنا وأعدت لنفسها سرير الضيوف؛ فقد قررت كارين أن أمضي الليلة بجانب نيلسون في سريره حتى لا أشعر بالخوف.

دمعت عيني، ولكن دموع هذه المرة كانت دموع التأثر.

وبعد أن أكلنا الساندويتشات والكريز وشربنا الشاي، جلسنا أنا ونيلسون على سريره وأخذنا نفض الهدايا، وفرح نيلسون بكل أفكار الهدايا التي قدمتها له.

اكتشفت، وأنا أبدل الملابس، بقعة فضلات طائر على الملابس التي أرتديها، فأخذنا نضحك أنا ونيلسون ضحكاً هستيرياً.

كان الصباح التالي صباحاً تقليدياً، بعد العشاء وبعد العاصفة، تحول القلق والتوتر إلى إجهاد ورائحة قم كريمة بعد أن نمت بعمق بما فيه الكفاية.

أعدت كاترين الإفطار وفكرت في أن أسألها أن تسمح لي أن أناديها "يا ماما" ولكني ترددت في ذلك ولم أسألها أصلاً، بل بدأت في تناول الطعام ولكنه أكل يشبه من يعاني من أمراض المعدة؛ أي أنني لا أبلع الطعام. فأخذت أقرب قطعة الطعام من فمي ثم أروح وأجيء بها على طرف الطبق، ثم أخذ رشفة من مشروب الكاكاو. لا أستطيع أن أكل، فليس لدي من القوة ولا من الشهية ما يساعدني على ذلك، النوم يطبق على أجباني وأذني أصيبت بالسمم، ولكنه نوع إيجابي من السّم. ولأنني لا أستطيع أن أشارك بفعالية في حياتي الخاصة فعلى الآخرين أن يأخذوا لي القرار. ماذا سأفعل الآن؟ فلو أنهم تركوا لي الأمر لدخلت إلى سريري، ربما إلى الأبد.

لذلك أخذ نيلسون القرار فذكرني قائلاً:

- موعدك مع طبيبتك بعد ساعة، سوف أوصلك إلى هناك، ادخلي وخذي حمامك، فرائحة الحزن تتبعث منك. ابتسمت ابتسامة متعبة وذهبت إلى الحمام.

جلست بجانب نيلسون ليقود هو السيارة فانتابني النعاس أثناء السير؛ لأنني أشعر بالاطمئنان ونيلسون بجانبني، لم يحاول أن يشغلني بالحديث فتركني أنعس.

وصلنا إلى العيادة فقال لي نيلسون:

- سوف أنتظر في السيارة، أريد أن أتكلم مع أنيت بعد الجلسة، إذا لم يكن لديك مانع.

رحبت بي أنيت قائلة: كيف حالك يا كارو؟

عيناها الزرقاوات كانتا ترقبانني وكلهما قلق. فعيناي متورمتان من البكاء حتى أصبحت أشبه الملاك بعد المباراة، ولكني لا أملك الطاقة كي أجعل من هذا التشبيه نكتة أو دعابة. جلست في الكرسي الجلد وبدأت في البكاء مرة أخرى.

فاجأتني أنيت بتغيير نظام العلاج. طلبت مني أن أستلقي على بساط على الأرض. جلست بجانبني على الأرض وأدارت جسمي حولها، بمعنى أنني نمت على جانبي بحيث تصبح بطني بالقرب من مؤخرتها وهي جالسة. أفخاذي تلامس فخذاها الأيسر، بينما ذراعي وصدري بالقرب من فخذاها الأيمن. بدا الأمر كما لو كنت حزاماً حول جسمها.

أمسكت أنيت رأسي بإحدى يديها و قدمي بالأخرى ثم قالت لي:

- انطقي.

فهمت في هذه الأثناء أنها لا تعني المعنى الحرفي لكلماتها، فانطلقت بالفعل، انطلقت في البكاء كالأطفال الصغار. أجهشت بالبكاء فأخذ جسمي يرتجف من آلام البكاء. بحثت عن الهواء كي أستطيع أن أتففس، وفي هذه الأثناء كانت أنيت تمسك بي بشدة وتمسح على رأسي وقدمي وهي تقول: أخرجي ما بداخلك.

بدأت أهدأ بعد أن خرج آخر ما بداخلي. لقد انتهى كل شيء؛ بدأت أسمع نبض قلبي في رأسي، عينايت متورمتان بشدة. أشعر بإحساس رائع، فراغ واسع، وهذا هو أفضل ما يمكن أن يحدث لي الآن. قلت لها كما لو كنت في غيبوبة: أشكرك جدًا.

ابتسمت أنيت واحتضنتني قائلة:

- يمكن أن تتصلي بي في البيت لو أحببت، لا تخافي، سوف نسيطر على الموضوع.

- سيكون هذا شيئاً رائعاً.

نزلت السلم ببطء وأرسلت نيلسون الذي اعتبره الراعي الشخصي لي إلى العيادة. بينما يناقش وليا أمري مشكلة طفلتهما - التي هي أنا - أخذت أدخن وأنا سعيدة بالفراغ الذي أشعر به بداخلي؛ فلم يعد هناك شيء بداخلي، لا خوف ولا حزن ولا حتى

أحاسيس. وأتحدى الآن أنني أستطيع أن أمشي بهدوء على نار مشتعلة، ربما كانت هذه فرصة كي أستغل هذا الأمر لكسب بعض المال، فكرت في تحديد سعر تذكرة الدخول لهذا العرض وكذلك عرض نموي على لوح المسامير، وبينما أنا أفكر في ذلك وصل نيلسون وسألني عما أريد عمله الآن.

- أنا بخير حقًا يا نيلسون وأعتقد أنني ممكن أن أكون وحدي. أنت كنت رائعًا معي خلال الأيام الماضية ولا أعرف كيف أشكرك. خجولة منك لدرجة أنني ممكن أن أبكي مرة أخرى، ولكن أيضًا أتصور أنني ممكن أن أقوم بدوري في الحياة بمفردتي.

- لا داعي لهذا الهراء، لقد أخذت الأسبوع القادم إجازة، لدى فقط بعض المواعيد في المكتب وليس هناك أي التزامات بعد ذلك. هكذا أصبحت من الآن فصاعدًا حارسك الخاص رسميًا. اعتبرًا هذا نوعًا من رعاية المسنين؛ يعني حين أصاب أنا بالجنون ساعتها، تولي أنت رعايتي.

أعرف جيدًا أن نيلسون ليس غيبًا؛ فهو متأكد أنني لا أتحمّل كل هذا العطف والرعاية، لذلك فهو يخفي صداقته في أوقات الشدة ويعرضها بصفتها صفقة. وهذا ما أحجته فعلاً. لم أثر ولم أعترض على ذلك؛ فقد كنت أضعف من أن أفعل، بل لقد فرحت جدًا بهذا العرض.

- رائع! لقد وجدت أخيراً من يستجيب لاستدعائي المحبة، ولكن لن أبيت عندكم الليلة، لن أكون مستريحة، ثم إنني المفروض أنني قادرة على المبيت وحدي.

- على راحتك، نتكلم في هذا الموضوع فيما بعد، دعينا أولاً نذهب إلى نزهة. أنت في حاجة إلى بعض الهواء النظيف.

رغم أنه مازح كبير إلا أن عنده حقاً.

تتزهنا بعض الوقت في الحديقة ثم جلسنا في المقهى وشربنا بعض المشروبات الساخنة ولعبنا الكوتشينة. بدأت أشعر بالثقة لدرجة أنني تواعدت مع بعض الأصدقاء كي نذهب إلى السينما. أطلقت صراح راعيّ الخاص نيلسون بعد نوباته عمل استمرت لمدة ثماني ساعات. شاهدنا في السينما فيلم رعب، إلا أن الأمور سارت على ما يرام لولا شعوري بنوبتين قصيرتين من الخوف تمكنت من التغلب عليهما بسرعة بأن أتنفس بعمق. من الواضح أنني لا أستطيع التعامل مع فكرة الموت. أنا بنت كبيرة وسوف أعود وحدي إلى المنزل وأدخل سريري بهدوء؛ لأن لدى في الغد الكثير الذي يجب علىّ عمله: سوف أشتري مسامير من محل باو هاوس (بيت البناء) وأذهب لتناول القهوة مع أمي، عندي كذلك دعوة على العشاء، وسوف أذهب على مدى اليوم إلى صديقي نيلسون كي نلعب الكوتشينة.

استغرقت في النوم بسرعة.

كان الصباح التالي فظيغاً، فظاعة أعرفها جيداً. فبمجرد أن استيقظت انهمرت علىّ التعاسة وغمغم بداخلي صوت يشبه صوت الراديو المنبه الذي يكرر صوت الحزن بصفة مستمرة. لم أنهض من السرير بل أخذت أحملق في سقف الحجرة وأدخن السجائر.

دق جرس التليفون وجاء والذي على الطرف الآخر، يتصل بي من مكان ما على بحر الشمال حيث يتولى رئاسة فرع شركة تأمين كبيرة هناك.

جاء صوته مبتهجاً: كيف حالك يا ابنتي؟

نتبادل كل شهرين مكالمة مشابهة، يحاول كل واحد منا خلالها أداء دوره كأب أو كابنه؛ صحيح أننا نحب بعضنا ولكننا لا نحتاج أن تكون العلاقة بيننا بصفة مستمرة، وهكذا الحال مع الأسرة كلها؛ فأنا نادراً ما ألتقي بأمي ولكننا نرى هذا أمراً عادياً بل رائعاً. رددت على أبي قائلة:

- ليس على ما يرام، افترقنا أنا وفيليب وأصبحت أمس الأول بما يشبه انهياراً عصبياً. وتوجهت إلى طوارئ المستشفى. كيف حالك أنت؟

كنت أثناء حديثي أبكي، لم أدري هل بدأت البكاء أثناء الحديث أم أنني أبكي منذ أن استيقظت في الصباح. عجيب أمرى، فرغم كل ذلك أشعر بأن عقلي لا يري سوى عالم سليم وصحيح.

ضمت والدي برهة. ثم اختلفت نغمة صوته وقال بصوت حازم:

..... - اسمعي يا كارو..

أجهشت بالبكاء قائلة: نعم.

- كارو، إياك تعلمي في نفسك حاجة، هذه أناينة سخيفة، فهماني؟

ما هذه اللهجة الحادة؟ ماذا حدث لأبي؟ قلت له:

- طبعًا لا، أنا بس أشعر بالبؤس ومش عارفة أتخلص منه إزاي؟ بس هذا مش معناه أنني أموت نفسي.

لم أذكر له بالطبع موضوع المقص. سألني أبي:

- جميل. ماذا سوف تفعلين اليوم؟

بدأت فجأة متتبيها جدًا.

همهمت قائلة بأنني تواعدت مع أمي لنشرب القهوة معًا.

رد قائلاً: جميل.

استطردت قائلة:

لازم كمان أشترى ورق تواليت وأقابل نيلسون وبعدين أذهب
أكل مكرونة مع أصحابي.

أردت أن أبين له أن الوضع ليس بهذا السوء، وأنني لن أملاً
بانيو الحمام بالماء وأجلس فيه ألهو بموس حلاقة. أعجب أبي بقائمة
الأعمال التي سوف أقوم بها، وكرر سعادته بأنني سوف ألتقي بأمي.
- طيب، أنا لازم أقفل الآن كي أخرج، فلدى فعلاً الكثير
لعمله.

فقال: - كارو تذكرى ما قلته لك. أنا احبك جداً جداً.

- أحبته: وأنا كمان يا بابا.

والآن أرجو ألا أبدأ في البكاء مرة أخرى، فلا أحد يريد ذلك؛
البكاء أصبح الآن هو السمة الأساسية لي، فهناك فترة ما قبل البكاء
وفترة ما بعد البكاء والفترة بين الاثنين تكون بلا مشاكل بسبب الفراغ
الموجود فيها. لذلك أحاول استغلال هذه الفترة بأن أخذ حماماً
وأرتدي ملابسى ثم أذهب إلى أمي؛ فليس لدى اليوم وقت كاف.

لم تكن أمي على وفاق في حياتها مع أبي، فقد تزوجت في سن العشرين ورزقت بابنة بعد عام من الزواج، لقد كنت أمل الأسرة؛ لأنني عرفت أنهم سعدوا بي جدًا.

صحيح أن أبي لم يكن مهياً لأن تكون لحياته صفة الاستمرار. كان ما زال يدرس واكتشف خلال هذا الوقت سحر السيدات غير المتزوجات، فانفصل والدي عن والدتي وأنا في سن الثامنة. لا أعرف الكثير عن نوع المشاكل التي كانت بينهما، ولكنني أتذكر أنني كنت ألاحظ أن أمي تعيسة تعاسة أنستها أن تحنو عليّ.

فذكرياتي عن أمي في طفولتي كانت تثير في داخلي الخوف أكثر من الحنان، فكانت دائماً إنسانة تدعو إلى الاحترام، كان صوتها يعلو بين الحين والحين، وكانت يدها تنزلق بسرعة لتصفعني. لقد تعودت على الاستقلالية في وقت مبكر؛ ففي أول يوم دراسي في حياتي لم يصاحبني أحد إلى المدرسة ولكنني ذهبت بمفردي.

يومها استيقظت وأعددت لنفسي طعام الإفطار وبللت الفوطة ليبدو وكأنني أخذت حماماً فعلاً، أثناء ذلك كانت أمي لا تزال نائمة.

أتذكر مشهدًا يرتعد له أي طبيب نفسي: كنت وقتها في الثامنة، وأردت ذات مرة أن أذهب إلى أمي في سريريها وأنكمش بين ذراعيها، أو أن أمنحها قبلة لأودعها بها قبل الذهاب إلى المدرسة أو ما شابه. فما كان من أمي إلا أن أدارت ظهرها لي وقالت:

- لا، من فضلك، أنا لا أحب هذه الطريقة!.

فما كان من الجندي الشجاع الذي هو أنا إلا أنني انسحبت ولم أقل شيئًا.

حُفر هذا الموقف في ذاكرتي واستوعبت الدرس، لا انكماش في الأحضان بعد ذلك، ربما كان هذا هو التصرف الصحيح. قلت في نفسي: تمام يا أفندم! ولا أتذكر بعد ذلك أنني طلبت من أمي مثل هذا الأمر. لم ألح ولم أترجّ بل وضعت الأمر موضع التنفيذ.

يمكن أن أقول بشكل عام إن تربيته كانت صارمة، فإذا حدث ونسيت قبعتي مرة في مكان ما، فإن العقاب كان حسي في المنزل لمدة أسبوعين. وإذا حدث وعثرت عليها بعد عدة أيام في المدرسة فلا يغير ذلك من العقاب شيئًا. أما إذا حدثت وفقدت مفتاح المنزل الذي كان معلقًا في رقبتي، فقد كنت أحرم من مشاهدة التلفزيون، ولو نسيت يومًا أن أرتب سريري وكان مزاج أمي في ذلك اليوم

ليس على ما يرام فالنتيجة كانت صفة محترمة على وجهي.
هكذا عبثاً.

أما فترة مراهقتي التي لم يكن هناك مناص منها فقد كانت فترة مجهدة لي أنا ولأمي على حد سواء. بدأ صوتي يعلو، وبدأت أتذمر وأتضجر ولم تعد العلاقة بيني وبين أمي تطاق. كانت آخر صفة نزلت على وجهي وأنا في سن السادسة عشرة.

ولكن إحقاقاً للحق فقد كانت أمي في بعض الأحيان إنسانة رائعة، كانت تعد لي بنفسها كل عام لعبة يحبها الأطفال في فترة أعياد الميلاد وهي عبارة عن نتيجة تضم بداخلها هدايا صغيرة. وعندما كنت أذهب إلى المعسكر الصيفي كانت تكتب لي خطابات ملونة وطويلة.

وكان الاحتفال بعيد ميلادي يمثل مناسبة خاصة لها بهجتها، أهدتني أمي مع أول دورة شهرية أصيصاً للزهور وقالت لي: لا بد للمرأة الحقيقية أن تتلقى زهوراً حقيقية. وذهبت معي لشراء الفوط الصحية اللازمة.

وفي عيد ميلادي الثامن عشر كتبت لي أمي خطاباً مؤثراً ووضعت على مائدة الاحتفال. ووصفت لي في هذا الخطاب كيف أمضت فترة حملها ومخاوفها خلالها، وكذلك عملية الوضع وسنوات

عمري الأولى، كتبت لي عن حبها لي وعن كيف أنها ما زالت تحبني وتفخر بي أنا ابنتها الجميلة الذكية، كتبت لي أيضاً عن أمنياتها بأن أحيا حياة سعيدة وطلبت مني في خطابها أن أسامحها على قلة صبرها وصرامتها معي. لقد أرادت أمي كما جاء في خطابها أن تربيني بطريقة أفضل مما تربت هي عليه. ولكن الواضح أن القِذرة قد كفيت على فمها كما يقول المثل (*).

أعلم جيداً أن أمي تحبني، لقد عانت كثيراً في حياتها ولا أحد يفهم أكثر مني مدى صعوبة احتفاظ الشخص بهدوء أعصابه في وقت تبصق فيه الحياة في وجهه.

استقلت بالسكن وأنا في سن التاسعة عشرة بما تسبب في تحسن العلاقة بيني وبين أمي بسرعة مذهلة. تركت أمي الشقة التي أمضيت فيها طفولتي وارتبطت بشخص جديد لمدة خمس سنوات ثم تركها ورحل.

أحضرت لأمي بعض الحلوى وشرائط موسيقية وحاولت أن أواسيها في مشكلاتها العاطفية بكلمات ذكية. فرحت أمي جداً بحضوري وقالت: إنها فخورة بي جداً.

(* يقول المثل الألماني: إن التفاحة لا تسقط بعيداً عن شجرتها. (المترجمة)

هناك بعض الأشياء لا يفهمها الشخص بالقدر الكافي. فذات مرة مرضت أُمِّي، تصورت أنها تعاني مرضًا عضويًا ولكن الواقع أن نفسيّتها هي التي كانت تعاني، كانت تصاب بنوبات من الخوف وتبلع بعض الأقراص، انتقلت أُمِّي للإقامة مع جدتي لمدة ستة أسابيع كانت خلالها تحاول في مكالماتها معي أن تتجاهل الحديث عن نفسها وتحاول أن يدور الحديث حولي وتُسالني عن حالي.

الاكتئاب يورث، هل تعاني جدتي من الاكتئاب؟، ولكن الواضح أنني كنت أوجه السؤال في الاتجاه الخاطئ، أما اليوم فقد عرفت أنني أشبه أُمِّي أشد الشبه. نريد أن نتجاوب بل لا بد أن نتجاوب، لا مجال للجدال في ذلك.

دعّتي أُمِّي لتناول القهوة في شقتها الصغيرة ذات الحجرتين، لا يحدث ذلك بصفة منتظمة، ولكن عندما نلتقي ندخن كثيرًا ونشرب كميات من القهوة بينما نتحدث عن هذا وذلك. أحيانًا يكون اللقاء وديًا وأحيانًا أخرى يكون اللقاء روتينيًا.

لم يكن لدىّ خلال الشهور الأخيرة ما أحكيه لأُمِّي، ماذا أحكي لها وأنا بلا وظيفة ولا صديق، وبالتالي ليس عندي أي حكايات شيقة. دققت جرس الباب وأنا أرجو أن ننهي مقابلة اليوم بسرعة، فتحت أُمِّي الباب فقلت لها بابتسامة شامتة كي أعيظها:

- هاللو يا ماما.

وقبل أن أنظر إليها، انهمرت الدموع من عينيّ المتورمتين. لم تتطرق أُمي بكلمة بل أخذتني في أحضانها وبدأت عملية إخلاء محترفة. خلعت ملابسني ووضعنتني في السرير ثم استلقت بجانبني؛ تصرفت بطريقة سليمة: ضمتني إلى صدرها وبدأت تمر بهدوء على بطني بينما لم أكف أنا عن البكاء. لا أذكر على مدى عمري كله أنني اقتربت من جسمها كما أفعل الآن. ثم أعَدَّتْ لني بعض القهوة ووضعت لي سيجارة مشتعلة في فمي. لم أقل شيئاً ولم تسأل هي عن أي شيء. أخذت أدخن بينما هي تمر بيدها على شعري، وفجأة قالت لي:

- بابا اتصل بي منذ قليل.

شعرت في لحظة أن سري قد أفضي، فقد تحدثنا معاً عني من وراء ظهري، تحدثنا عن الحالة النفسية لابنتهما المشتركة، إذن لقد استعدت أُمي لحضوري بينما تصورت أننا سوف نشرب القهوة فقط، وددت لو كنت أنا أيضاً مستعدة لنفسني.

قالت أُمي بصوت يشبه القرار: أنت سوف تسكنين من الآن معي هنا.

اعترضت قائلة: ما هذا التخريف!؟

ردت أُمي: أنت التي تخرفين، أنت الآن مريضة، يعني ستبقى معي هنا، وغداً سنذهب لدكتور نفساني ونرى ماذا سيقول.

ثم شرحت لي طبيعة حالة الاكتئاب وأن أول خطوة هي أن نقبله ولا نحاول مقاومته.

قلت في نفسي علينا أن نقبله تمامًا مثل نزلة الأنفلونزا، إذا ما بدأت فسوف تمر ويشفى الإنسان منها. حكّت لي أمي كيف أصيبت هي بالاكتئاب بعد أن افترقت عن صديقها، وكيف يصل الإنسان إلى مرحلة لا يستطيع تحملها لدرجة تفقده أي سيطرة على نفسه حتى يقوم الجسم بضرب الشخص في قسبة رجله لكي يوضح له أن الحال يجب أن يتحسن.

حزنت لما قالته لي وخجلت من نفسي؛ لأنني لم أعرف مدى سوء حالتها في ذلك الوقت، ولكنني أحسست بالخوف لأن أكون في المستقبل مثل أمي. فقالت لي أمي:

- لقد وصلت إلى أقصى مدى للمرض وليس في الإمكان أسوأ مما كان.

شعرت بالهدوء فالآن تهتم بي أمي، أمي أنا.

يخلط بعض الناس بين طبيب الأمراض النفسية والعصبية وأخصائي العلاج النفسي، صحيح أن لطبيب الأمراض النفسية والعصبية الحق أن يعالج المرضى ولكن هذا الجزء من تخصصهم لا يعنيني الآن؛ لأنني أخضع بالفعل للعلاج النفسي لدى طبييتي أنيت.

طبيب الأمراض النفسية والعصبية متخصص يقوم بتشخيص المرض على طريقة الدكتور "هوزه" الذي نراه في التليفزيون، فبناءً على دراستهم الطبية يستطيعون الوصول إلى ما يعاني منه رأس الإنسان أو مخه ومراكز التوصيل العصبي لديه، متأثرين في ذلك بطبيب الأمراض النفسية والعصبية الذي يؤدي دوره في الحلقات التليفزيونية بطريقة غير تقليدية. يستطيع أطباء الأمراض النفسية والعصبية تشخيص المرض بطريقة شديدة الدقة وتحديد العلاج بالأدوية.

الدكتورة كليفة طبيبة الأمراض النفسية والعصبية هي اختيارنا الثالث؛ فمذ الساعة التاسعة صباحاً وأنا أجوب المدينة مع أمي للبحث عن طبيب لديه وقت لي. الأول وهو طبيب أبي المعالج والثاني طبيب أحد معارفها، لم يكن لديهم مواعيد في هذا اليوم أو أنهم لا يأخذون مرضي جدداً.

قررنا أنا وأمي أن نجعل حالتي أكثر مأساوية مما هي عليه. ربما كنت أشعر ببعض الضعف ولكنني نمت هذه الليلة نوماً عميقاً لذلك أشعر بهدوء وثقة. ورغم كل ذلك أخذت أحكي لمرضة العيادة عن نوبات الخوف الشديدة التي تتابني، فنجحت خطتي وحصلت على موعد للمقابلة والكشف.

تذكرني الدكتورة كليفة بجودي فوستر وهذا ما طمأنني جدًا. كانت طبيبة جادة وواعية. تأملتني بدقة ونظرت في عيني، ثم سألتني أسئلة محددة عن بعض الأعراض وعن بعض ظروف الحياة بوجه عام. أستطيع الآن أن أجيب عن هذه الأسئلة بصورة جيدة بعد أن اعتدت عليها ممن حولي. اغتظت جدًا من عدم الاحتفاظ بمونولوجي هذا على شريط؛ بحيث أستطيع أن أعيده على مسامع الأطباء الآخرين في المستقبل؛ كي أتمكن في هذه الأثناء من اللعب في أنفي أو تدخين سيجارة.

شرحت لي الدكتورة كليفة باستفاضة وموضوعية أن الحياة المتوازنة تقوم على خمس دعائم: الأسرة والحياة العاطفية والسكن والوظيفة والأصدقاء. يعني ذلك أنني فقدت خلال الفترة الماضية عددًا من الدعائم مما يسبب عدم توازن لا يقدر البعض على تحمله، وبالتالي من المنطقي أن تكون حالتي على ما هي عليه.

ثم شرحت لي الطبيبة المبررات الطبية للاكتئاب؛ فعلى حد فهمي أنه عند حدوث حالة اكتئاب يقل في الجسم لسبب ما إنتاج مادة السيروتونين - وهي مادة ناقلة مسئولة عن توصيل الانفعالات وغيرها إلى المخ، مثل: الغضب والحزن والخوف، فلا يتم توصيلها أو إعادة إرسالها إلى نقطة الاشتباك العصبي بالشكل السليم، وبالتالي

فالنتيجة تكون تخزيناً للأنفعالات تماماً كما في حالة الإصابة بالإمساك. في مثل هذه الحالات يتم وصف بعض مضادات الاكتئاب لتنظيم إنتاج مادة السيروتونين في الجسم.

لقد وصفت لي الدكتورة كيفية كل هذا بالتفصيل بل ورسمت لي رسوماً توضيحية إلا أنني لم أحتفظ إلا بالمعلومات التي تهمني. فهمت أنني أعاني من الإمساك، فلم تعد رأسي تقوم بالتصريف بالطريقة السليمة، وبالتالي فلم أعد أميز في عواطفى بين ما هو مهم وما هو غير مهم.. أرجوك أعطني هذا الدواء.

ولكن الدكتورة كيفية كانت ترغب في معرفة بعض المعلومات عني، وأنا أيضاً أريد معرفة المزيد فسألتها:

- هل أعاني فعلاً حالة اكتئاب؟ وكم من الوقت سيستمر هذا الوضع؟

أجابتنى بقولها:

- الموضوع ليس بهذه السهولة، الأعراض عندك غير واضحة؛ فمن أهم أعراض الاكتئاب مثلاً كثرة التأمل، هل تتأملين كثيراً يا سيدة هيرمان؟

تأملت كلماتها لبرهة ثم قلت لها:

- لا أعرف، لا أعتقد، ليس أكثر من العادي، أو على الأقل ليس بالقدر الذي أتصور عليه التأمل التقليدي؛ عن مغزى الحياة مثلاً، لا..لا أعتقد.

سألتني الطبيبة: هل لديك مشاكل في النوم؟

أجبتها: لا، في الواقع كان لدى في الظروف العادية مشاكل في النوم، ولكن منذ بدأت حالتني تسوء أستطيع أن أنام جيداً، أغط في النوم، بل وأنام الليلة بطولها دون انقطاع. ما أعاني منه هو الاستيقاظ في الصباح.

وشرحت لها مدى فظاعة صباح كل يوم بالنسبة لي.

قالت لي د. كليفة: إن الأعراض الطبيعية لهذا المرض أن يعاني الشخص في المساء.

وبعد عدد من الأسئلة الأخرى استبعدت الطبيبة أن تكون الحالة هي حالة اكتئاب، ولكنها اعتبرتها حالة اضطراب مزاجي، والأرجح أن يكون ذلك بسبب ظروف في الحياتية كما اعتبرت أنني أعاني اضطراباً في التكيف.

أؤيد هذا التشخيص بشدة، فأنا أخاف من كل ما هو جديد بنسبة لي.

كُتبت لي الدكتورة جودي فوستر كليفه دواءً خفيفاً ضد الاكتئاب ويقلل كذلك من حدة الخوف. أكدت لي الطبيبة أن تطور صناعة الأدوية قد حقق نجاحاً كبيراً في هذا المجال بحيث لم تعد هذه الأدوية تسبب إدماناً، كما أنها ليس لها أعراض جانبية لو استخدمت على المدى الطويل. طلبت مني أن أتناول هذا الدواء لمدة ستة أشهر؛ لأن مادة السيروتونين تحتاج لمدة طويلة كي تنتظم. كذلك قالت لي: إن عليّ أن أتوقع خلال الأيام الأولى من استخدام الدواء أن تطرأ عليّ بعض الأعراض الجانبية ولكنها في معظم الحالات لا تلبث أن تزول خلال الأسبوع الأول من الاستعمال. كما أضافت أنه عليّ أن أتوقع خلال الفترة الأولى تقاوم بعض الأعراض الموجودة بالفعل مثل القلق والحمول. إلا أن تأثير المادة التي تخفف من حدة الخوف سوف يظهر بسرعة، أما تأثير المادة ضد الاكتئاب فسوف يظهر بعد ثلاثة أسابيع على الأكثر. وزيادة في الاحتياط سوف تكتب لي روصتة بالأقراص المهدئة التي كتبها لي طبيب عيادة الطوارئ، ولكن عليّ الحرص في استخدامها في الحالات القصوى فقط لأنها تسبب إدماناً في حالة سوء استخدامها. اتفقنا.

قررت الدكتورة كليفه أن أعود إليها بعد ثلاثة أسابيع إلا إذا طرأت عليّ مشاكل بسبب الدواء فيمكنني أن أمر عليها في أي وقت،

وأشارت علىّ أن أستمّر في جلسات العلاج النفسي. ولما سألتها: متى سأشفى تماماً؟ أجابتني ولأول مرة بابتسامه:

- لا أحد يستطيع أن يجزم بذلك. ولكن مشاكلك العاطفية قد تكون خلال ستة أشهر أفضل بكثير.

كفاني هذا الكلام الآن على الأقل.

كانت العودة للحياة مع أمي شيئاً غريباً وجميلاً في ذات الوقت. بدا الأمر كما لو كنا نعيش أنا وهي في مسكن مشترك للبنات؛ فسرعان ما اتفقنا على طقوس معينة. تستيقظ أمي في الصباح قبلي لأنها تحتاج مدة نصف ساعة تشرب فيها القهوة في هدوء كي تعثلي مسرح اليوم الجديد، في هذه الأثناء أتقلب أنا في سريري وأحاول أن أبقى على تعبي كي لا أشعر بانقباض مبكر، وعندما ألمم شتات نفسي وأجر ساقِي إلى الحمام، تضغط أمي على زر غلاية الماء لتعد لي القهوة المصنوعة من البن المخلوط ببعض الحبوب، فشدّة قلقي تجعلني لا أحتّم شرب القهوة العادية؛ لأنّي أصبح بعدها كالذي يسير على فحم مشتعّل، وهو أمر غير مطلوب حتى بدون وجود اكتئاب.

أستحب إلى المطبخ بأنفاس منتعشة ورأس مطأطأة، حيث تعد لي أمي كل صباح قطعة من التوست وتضع عليها حشواً ولكني في كل مرة لا أكلها، فمن المحال أن أكل شيئاً في الصباح، إحساسي في

الصباح يشبه من هو مُقدم على عملية قلب مفتوح. وذلك لمدة ساعات، فلا أحد يستطيع وقتها أن يأكل،

ولكن أُمي ككل الأمهات ترجوني وتتوسل إليّ أن أكل حتى ولو نصف قطعة من الخبز، ثم نتفق على أن أخذ قسمة واحدة ولكن بعد أن أقول بطريقة مسرحية: يا ساتر.

ولكننا لن نترك تموتين جوعاً، لذلك اشترينا مشروب الحليب بالشيكولاتة وعصير خضراوات؛ لأن شرب السوائل أسهل وأكثر تقبلاً.

وأثناء تناولنا مشروباتنا الساخنة نبتلع معها أقرصنا إياها، والتي توضع بجانب بعضها كأصدقاء في وعاء فخاري صغير. منظر نضحك له أنا وأُمي، ثم بعد ذلك نجري القرعة على مدة البقاء في الشرفة، فبينما تريد أُمي البقاء هناك المدة التي تدخن فيها سيجارة فقط (وقد كانت عائلتي دائماً تقيس الوقت بطول مدة تدخين السيجارة) كنت أنا أريد أن أبقى بها طوال مدة الصباح، حيث يمكنني أن أجلس في الشمس وأرشف في مشروب الكاكاو وألاحظ أنني أهدأ شيئاً فشيئاً.

أقرأ كل يوم أشياء بلهاء، عناوين كتب تحمل اسم "شيكولاتة على الإفطار" أو "قم الفراولة" أو "الحواء جديد"، أما أكثر العناوين بلاهة فهو اسم كتاب "براد، بومس وبودرة الأطفال" من

شدة خجلي من هذا العنوان أخفيته في ورقة جريدة. إن الأدب النسائي هو المناسب لي هذه الأيام؛ لأن التلفزيون والإنترنت أصبحا يسببان لي خوفاً شديداً، لا أعرف لماذا؟ كل ما أعرفه أنني أشعر معهما أنني مهددة، فهما شديداً القرب من الواقع ومن الحياة اليومية. أما أنا فلا أشعر بأنني واقعية، لذلك فأنا لا أريد استيعاب شيء من حياة ليس بمقدوري أن أشارك فيها.

حين لا يكون لدى أمي وقت لي يأتي حارسي الخاص نيلسون ويرعاني فنلعب الكوتشينة ونتنزه داخل الحديقة.

وبعد ثلاثة أيام أحسست بأنني قد شفيت تماماً رغم أنني ما زلت متعبة وأشعر بقنوط شديد، ولكنني في النهاية لا أعاني سوى من اضطراب مزاجي بسيط وبعض المشاكل العاطفية، كل هذا لا يضر منه.

قررت أن الوقت قد حان لأعود للسكن وحدي؛ كتبت ذلك على ورقة وتركتها لأمي ثم انصرفت إلى منزلي، هناك تصرفت بحذر على سبيل الاحتياط وقمت بكل الأعمال التي نراها في التلفزيون والمجلات النسائية إذا ما كان الأمر يتعلق براحتنا.

أخذت حماماً للاسترخاء وأوقدت في كل مكان حولي شمعة ثم انكشيت على الأريكة. ولم يبق سوى جورب صوفي واسع وفنجان

من الكاكاو الساخن كي أصبح على بعد خطوات من بطلات الكتب
البلهاء التي أقرؤها. وحتى يكون هناك توازن في الأمر، فقد أخذت
أدخن بشراهة. (حاولت أن أمارس العادة السرية التي كنت أجيدها
ولكن بلا جدوى) لذلك خلدت للنوم.

قالت لي أمي إن الوضع لا يمكن أن يسوء أكثر مما هو عليه،
إلا أن أجدادنا قالوا: الأسوأ لم يأت بعد. وقد جاء الدليل على صحة
هذا الكلام في منتصف الليل.

استيقظت على سخونة شديدة في صدري، استيقظت فجأة.
أحسست بالقلق لدرجة أنني شعرت أنني سأنفجر، دق قلبي مثل قلب
عصفور صغير. نهضت واقفة في سريري وحاولت أن أسيطر على
الموقف وأن أهدئ نفسي. وقفت عارية في الشرفة بلا فائدة وكذلك لم
يفلح التنفس بعمق. أخذت أجري في أنحاء الشقة إلا أن حرقان
صدري امتد إلى ذراعي الأيسر، ثم شعرت بحرارة شديدة تنتشر في
نصف جسمي الأعلى. نار، نار، نار، كل شيء مشتعل. ربما أصبت
بأزمة قلبية، ماذا علي أن أفعل الآن؟ الاتصال بطبيب الطوارئ؟ ماذا
لو سخر مني؟ بحثت بيدين مرتعدين عن أقراص الطوارئ
الزرقاء التي أعطتها لي الدكتورة كليفه، فإذا كانت
لا تستخدم إلا في حالة الطوارئ فهذا هو وقتها. بكيت من

الخوف في الحمام ولكن بلا دموع. ربما كان جسمي منشغلاً بأمر
أخرى وبالتالي الأعصاب معطلة عن إنتاج الدموع.

اتصلت بأمي بعد ثالث محاولة؛ فلم أكن قادرة على لمس الرقم
الصحيح، ورغم أن الساعة كانت الثانية صباحاً فقد ردت عليّ،
فقلت لها:

- أشعر بشيء غير طبيعي، ممكن أحضر لعندك؟

- طبعاً ممكن.

استقلت سيارة أجرة ولم أستطع النزول منها. أخذت أتأمل
على المقعد الخلفي فحاولت السيطرة على نفسي. صحيح أن النار التي
كنت أشعر بها في نصفي العلوي إلا أن القلق مستمر. أشعر بأنني
أكبر زكية ممثلة بالبراغيث في العالم. تركت للسائق باقي المبلغ
كإكرامية؛ لأنني كنت أرتعد وليس لدي وقت للبحث عن عملة صغيرة.

فتحت أمي الباب فما كان مني إلا أن رفعت ذراعيّ لتأخذني
بين ذراعيها وتخلع ملابسني ثم تدخلني إلى السرير.

سألت أمي وأنا أبكي بصوت عال:

- هل أنا مصابة بأزمة قلبية؟

- لا يا حبيبتي، هي مجرد نوبة خوف؛ صحيح أن الأمر
فظيع ولكنه سينتهي بسرعة.

نمت في السرير وأخذت أُمي تمسح على رأسي فبدأت أهدأ
شيئاً فشيئاً.

أحضرت أُمي علبه سجائرهما واستلقت بجانبني على السرير
وقالت لي: لا بد لك أن تتقبلي مثل هذا الأمر يا كارو، يجب أن
تقتنعي بأنك مريضة وتتصوري الآن أنك في مرحلة استشفاء،
فجسمك غير قادر على تناسي الأمر.

جاء ردي في صورة نههة.

اخذت أُمي للحظة وعادت ومعها خاتم قديم وضعته في
إصبعي، كان خاتماً فضياً وبلا أي زخرفة وبه حجر شفاف ومستدير
في حجم ظفر الإبهام.

قالت لي أُمي: إنه كريستال جبلي، والكريستال الجبلي قادر
على أن يمتص الطاقة المضرة من جسمك، ليس مهمًا أن يكون
الخاتم أنيقاً في نظرك.

استرحت لهذا الكلام ونمت وفي إصبعي خاتم الكريستال
الجبلي ونور الغرفة مضاء.

استسلمت؛ فأنا لا أستطيع أن أبقى بمفردي فما بالك بالسكن
وحددي!

لقد انكسرت، ولا يمكنني أن أصلح من نفسي وحدتي.
سوف أبقى في مرحلة استشفاء هنا.

قالت لي أمي:

فندق ماما مفتوح على مدى الأربع وعشرين ساعة وبواب
الفندق يحبك كثيرًا.

- ولكن...

- لا مكان هنا للكن، أنا أمك وهذه وظيفتي، إذا اعتذرت مرة
ثانية لأنك تتعبيني سوف أحرمك من الميراث.

كان تهديد أمي مضحكًا؛ لأنها لا تملك مليونًا واحدًا كي
تورثه لي.

قلت لها مداعبة:

أنتِ ورثتي منك الاكتئاب وانتهينا. لم يبق عندك شيء.

ابتسمت أمي بشماتة وبشيء من الزهو وقالت:

- يكفيننا كوننا فتاتين وأنا نتمتع بجمال ساحر، كل ما في
الأمر أننا شخصيتان طائشتان!!

حاولنا أن نظهر لبعضنا أن الموقف طريف جدًا.

شهدت الأيام التالية تقدمًا بطيئًا وبدأت الأعراض الجانبية للدواء تختفي شيئًا فشيئًا.

شعوري بالقلق مستمر ولكنه يهدأ على مدار اليوم فضلًا عن أن فمي جاف بصفة مستمرة. أتصيب عرقًا بلا انقطاع. أضطر إلى التبول أكثر من المعتاد، ولكن لا مشكلة في ذلك فأنا أقيم مع أمي ودورة المياه قريبة مني ومتاحة في كل وقت.

لا أشعر بالتحسن ولكني أشعر بأنني أكثر توازنًا. تقلص الرأس بدأ يفرج، صحيح أنني ما زلت أشعر بالحزن والتعاسة ولكني لم أعد منهكة القوى، لقد قبلت الأمر كما هو فالحبوب تؤدي عملها.

يخشى كثير من الناس أن حبوب علاج الاكتئاب تغير من وعي وشخصية من يتناولها؛ بمعنى أن تسيطر الحبوب على الشخص وليس العكس، ولكن هذا الأمر غير صحيح؛ فأنا لا أشعر بالغبرة. لم تتسبب الأقراص في شعوري بسعادة زائفة، كل ما هنالك أنني أصبحت أقل فوضوية؛ فأنا أشعر بالحزن عندما أكون حزينة وقلقة وخائفة في الوقت المناسب للموقف. لم تعد كل الانفعالات تتأبني في ذات الوقت، وهذا ما يشعرني بالراحة.

تتساب الدموع من عيني عندما أسمع أغنية حزينة وأنا في السيارة - أغنيتي أنا وفيليب - ورغم ذلك فهي تعجبني؛ لأنني أعرف سبب بكائي، أبكي لأنني أفقد فيليب ولأنني أرثي لنفسي.

إنه شيء رائع.

نتعامل أنا وأمي مع حالتي مثلما نتعامل مع الأطفال؛ فلا نبدأ بأكثر من شيء مثير واحد في اليوم الواحد؛ فنذهب مثلاً يوماً في رحلة إلى السوبر ماركت لشراء مواد غذائية لا أكلها. وفي اليوم التالي نذهب في نزهة إلى المركز التجاري القريب من المنزل كي نشترى المزيد من الكتب البلهاء، وأقرأ واحداً منها كل يوم.

ما زلت أشعر بالتعب وأنام أحياناً على مدى النهار مما يسبب لي بعض الكآبة. تضعني أمي كل ليلة في البانيو وتطلب مني أن أضع الكريم على أقدامي، وتقول لي إن أقدامي هي التي ستحملني مدى الحياة.

إن ما نقوم به الآن ما هو إلا استعادة لمرحلة طفولتي، ولكن هذه المرة بطريقة صحيحة. وأعتقد أنني أفعل بذلك خيراً لأمي؛ فنحن نقوم برحلة عبر الزمن ونغير الماضي.

في المساء تلقي أمي بنفسها بجانبني على السرير وتقول:

- هل قلت لحضرتك اليوم إنني أحبك؟

فأجيبها دائماً بقولي: لا.

فتقول أُمي: إذن، أنا أحبك.

بعدها تراجع بريدھا الإلكتروني؛ لأن جهاز الكمبيوتر موجود في غرفة نومها التي أقيم أنا فيها الآن، ثم نلعب على الجهاز لعبة سوليتير لبعض الوقت.

بعدها ندخن سيجارة "تصبح على خير" معاً تذهب أُمي بعدها إلى غرفة المعيشة لتنام على الكنبة. اشتريت لها بعد عدة أيام سريرًا نقالاً يستخدم للضيوف حتى لا تنام نومه غير مريحة بسببي.

حاولت خلال الفترة التالية أن أقوم بكل شيء على أكمل وجه؛ فأتناول دوائي بانتظام، وأذهب إلى جلسات العلاج، ولا أحاول إجهاد نفسي أكثر من اللازم.

غلبت الفكرة على خاطري أنني مريضة، وأنني لن أغير من هذا الأمر شيئاً، واقتنعت أن الأمر سيتحسن. وبناء على نصيحة الدكتورة أنيت الصريحة، التي أوصتني بأن أشعر بنفسي أكثر مما أفعل الآن أياً كان معنى هذه الكلمات، يجب أن أحسن إلى نفسي وأن أكون أكثر ودًا مع نفسي مثل أن أقول:

- هاللو يا كارو يا حبيبتي، كيف حالك؟ هل كل شيء على ما

يرام؟

جميل! ألا تريدني مني شيئاً؟ لو احتجت أي شيء، قولي لي

فوراً!!

أحاول بين الوقت والآخر أن أدلل نفسي بالمسح على ذراعي أو على وجهي، بل أحاول أن أحضن نفسي كما كنا نفعل أيام طفولتنا في المدرسة الابتدائية ونفرح بأن نبدو من الخلف كما لو كانت ذراعي شخصاً آخر. أفعل كل ذلك لأنني لا أعرف فعلاً ماذا أفعل أكثر من ذلك. أعتقد أن الحضن الحنون تعبير واضح عن الحنو والعطف على الذات.

أود أن أشعر بحلاوة النجاح. أريد أن أشارك بلعب دوري في الحياة العادية وأكون حباقي الأطفال.

ذهبت مع أمي إلى محل يبيع البضائع الغريبة مثل الأحجار الكريمة وتمائيل بوذا، وجدنا كتب الأبراج ومواقع القمر وكذلك أعواد البخور وما إلى ذلك من أشياء مشابهة. وأنا أؤمن بهذه الأشياء بنفس قدر إيماني بالأبراج وحظك اليوم؛ لأن كل ذلك هراء. أما إذا كان ذلك مناسباً في الوقت الحالي فلماذا لا؟ أنا في حاجة في الوقت

الحاضر لكل مساعدة ممكنة تقدم لي؛ مثل الكريستال الجبلي الذي أعطته لي أُمِّي ويعتبر بداية هذا الموضوع.

اشتريت ما يقرب من نصف المحل: قطعة كريستال جبلي ثانية لأعلقها على صدري، وتمثال لملاك حارس من الحجر الرملي، فضلاً عن قطعتين من الحجر الأخضر للحفاظ على التوازن (واحدة لوضعها في حافظة النقود والثانية للسيارة) كما اشتريت أسطوانة مدمجة للتدريب الذاتي نصحتني بها أُمِّي وكذلك الطبيبتان الدكتوراة كليفة والدكتوراة أنيت؛ إذن فالمفروض أنها سوف تنفعني؛ المثل يقول "المركب التي بها ريسان تغرق"، ولكنني لن أسمح بأن تغرق مركبي.

لم يكن اختيار أسطوانة واحدة من بين عشرين أسطوانة أمراً سهلاً، فقالت لي أُمِّي: إن صوت المتحدث له تأثير كبير وبالتالي استمعنا إلى أجزاء من بعض الأسطوانات. إذا كان الأمر بيدي لاخترت أسطوانة عليها صوت آل كابوني، ولكن للأسف لا يوجد بالمحل سوى أسطوانة واحدة عليها صوت رجالي يشبه صوت المذيع الداخلي للسوبر ماركت، وباقي الأصوات كلها أصوات نسائية مثل دانا سكولي أو جودي فوستر، فيمكن لهذه الأصوات أن تنفعني أن أغلق عيني وأن أسترخي أو أي أوامر أخرى للتدريب الذاتي.

عموماً فإنه من الصعب على أن أسترخي، فأتساءل جلسة المساج أكون في منتهى الاسترخاء وأحاول جاهدة أن أسترخي، لدرجة أنني

لا أستطيع أن أسترخي، في حمام به رغوة الصابون الدافئ مثلاً، لا أتحمل أكثر من عشر دقائق أكون فيها منفصلة عن العالم الخارجي ثم أتلملم وأخرج من الحمام.

أفضل كذلك أن أسير ثلاث ساعات بالسيارة على الطريق الزراعي عن أن أستخدم الطريق السريع لمدة عشر دقائق وسط زحام للسيارات، أفضل أن أبقى في حركة مستمرة.

قررت شراء أسطوانة تدريب ذاتي بصوت سوزان هون؛ فصوتها يبدو أفضل بعض الشيء من صوت عاملة المانيكير. وبالفعل، بمجرد دخولي غرفة نوم أمي استمعت إلى الأسطوانة تماماً كما أجرب فستاناً جديداً بمجرد شرائه.

استلقيت على السرير وخففت أنوار الحجرة. وضعت الكمبيوتر الشخصي الخاص بي، والذي أستمع عليه إلى أسطواناتي، فوق بطني فسرى في جسمي دفء جميل. وجاء صوت سوزان هون برنينه القوي؛ فإما أنها قد سجلت هذه الأسطوانة في قاعة للجميز أو أن هذا هو صوتها الطبيعي. يصاحب صوتها أنغام هادئة مثل الكورال لكي يتصور المستمع أن سوزان تتفاخر بالملائكة أو بنفسها.

كذلك تعاني سوزان من عيب في النطق فهي تشدد جداً على حرف السين بما أثارني بعد ثاني جملة نطقها، ولكنه في ذات الوقت هو السبب الذي يدعوني لأن أستمع إليها.

يمنح التدريب الذاتي الشخص حرية أن يعطي التعليمات لنفسه، يبدو هذا الأمر مشجعاً وأنا أجد ذلك. إذن، محاولة أولى: استرخي يا كارو، استرخي فوراً، وسوف يصبح ذهنك صافياً في التو. ليس الأمر بهذه السهولة، في الواقع إن الاستماع إلى صوت سوزان ممل جداً فنحن ما زلنا في المقدمة والأسطوانة مقسمة إلى ١٢ جزءاً:

١. المقدمة ٢,٣٥ دقيقة.
٢. الاسترخاء ٢,١٨ دقيقة.
٣. الهدوء وجاذبية الوزن ٤,٣٥ دقائق.
٤. الدفء ٦,٠٤ دقائق.
٥. القلب ٦,١٠ دقائق.
٦. التنفس ٦,٤٤ دقائق.
٧. جديلة الشمس ٧,٣٥ دقائق.
٨. الجبهة ٨,٢٦ دقائق.
٩. الرقبة ٦,٠٣ دقائق.
١٠. الشجاعة ٥,٠٦ دقائق.

١١. بدون ألم ٥,١٠ دقائق.

١٢. الخلود إلى النوم ٥,٣١ دقائق.

تستمر عملية الاسترخاء مدة ساعة وست دقائق وست وخمسين ثانية. قررت إلغاء فقرتي "ضفيرة الشمس" و"الجبهة"، فوراً، وبذلك أكون قد وفرت سبع عشرة دقيقة، وكذلك فقرتي "الخلود إلى النوم" و"دون ألم" فلست بحاجة لهما، إذن لا داعي منهما، معنى ذلك أن عشر دقائق أخرى في سلة مهملات الكمبيوتر. أما المقدمة فلن أحتاجها فقد استمعت إلى أكثر من نصفها، أما الباقي فسوف أختبره. قررت أن أتخلص سراً من فقرة "القلب" فمن المؤكد أن المعنى هنا ليس قلبي أنا وإنما القلب عموماً.

وحيث إنني أجلس أمام الكمبيوتر أقصد تحته ففي استطاعتي أن أطلع في الإنترنت على موضوع التدريب الذاتي كي أعرف ما هو بالضبط.

تظهر صفحة الويكيبيديا بعض الدهاء فتكتب:

التدريب الذاتي هو تكنيك للاسترخاء يعتمد على الإيحاء الذاتي، وهو أسلوب معترف به للتغلب على التوتر والاضطرابات النفسية. هكذا إذن!!

لعبت دور سوليتير على الكمبيوتر، ثم بدأت أسترخي، لا مانع من سيجارة ولكن السجائر موجودة في حجرة المعيشة عند أمي. خرجت لأحضرها فسألتي أمي بسخرية:

ما أخبار تدريبك الذاتي؟ طبعاً فظيع.

أجبتها:

صوت سوزان هون يشبه بانعة بنطلونات الجينز في رويال ألبرت هول، ولكني أعتقد أننا يمكن أن نصبح أصدقاء لو أنها تبتلى من سرعة حديثها بعض الشيء.

لم تقل أمي شيئاً فهي تعرف ابنتها جيداً. جلسنا ندخن معاً وطبعاً سيجارتان أحسن من سيجارة واحدة؛ لأن التدخين غير مستحب خلال الدقائق الإحدى وثلاثين التالية. (دون فقرة القلب) حاولت اختلاق بعض الموضوعات للبقاء مع أمي ولكننا نحن الثلاثة لا أنا ولا أمي ولا سوزان - من السذاجة بمكان بحيث لا نفهم أنني أبحث عن حجة لعدم بدء التدريب، ولكني لم أفلح فاضطرت لدخول حجرة النوم بعد السجارة الخامسة كي أبدأ في الاسترخاء.

الجزء الثاني من الشريط: الاسترخاء. بدأ الشريط بصوت زنين كصوت الريح ثم صوت صفارة لمدة أربع وأربعين ثانية. سوف أختصر هذه المدة في المرات التالية. ثم تقول سوزان هون:

- اجلسي واستلقي في وضع راحة.

فجأة بدأت تخاطبني بصيغة "أنت" وليس سيادتك كما كانت تفعل في المقدمة. لا عليك. الجلوس أو الاستلقاء، وضع راحة، تم عمل المطلوب. يبدو أن أحدًا كان في أول الشريط في وضع وقوف وإجهاد وينتظر ماذا عليه أن يفعل.

- اسمحي لنفسك أن تهذي؛ ليس المطلوب منك أي شيء. عليك أن تتصوري أنك تعبئين كل ما يورقك ويضايقك في علبة صغيرة وتضعينها أمام الباب.

علبة صغيرة؟! تعالي يا سوزان لكي تشاهدي علبتي، من الصعب أن أستطيع تعبئتها بهذه السرعة.

- اسمحي للعالم الخارجي أن يدور لفترة بدونك.

- هذه المرة كنت أسرع منك يا سوزان؛ فالعالم الخارجي يدور منذ أسبوعين بدوني.

- اجعلي تركيزك كله إلى الداخل، إلى عالمك الداخلي، من المهم جدًا بالنسبة لك أن تغوصي في أعماق نفسك؛ ففي أعماقك سوف تجدين القوة التي تسيطرين بها على يومك، في أعماقك سوف تقابلين انشراح صدرك وسكونك وقدرتك على الشفاء.

انتهى الجزء الثاني من الشريط. لو استمرت سوزان خلال نصف الساعة التالي تحكي لي عما هو مسموح وعمن سوف أقابل فلن أعرف رأسي من رجلي.

الجزء الثالث: الهدوء وجاذبية الوزن.

نفس صوت الريح ونفس الصفارة، جعلت فترة أربع وأربعين ثانية تمر بسرعة. ولكن للأسف لقد بدأت سوزان الحديث في هذا الجزء في الثانية الثامنة والثلاثين وقالت:

أنا هادئة جدًا ومطمئنة. هذا جميل جدًا بالنسبة لسوزان، ألم يكن من المفروض أن أكون أنا التي تشعر بالهدوء والطمأنينة أو على الأقل أن أصبح هادئة ومطمئنة؟

- هدوء داخلي عميق يسري في جسمي كله؛ أشعر أن ذراعيّ ثقيلان، صحت بصوت عالٍ من غرفة النوم إلى غرفة المعيشة:

- ما هذا؟ إلحقي يا ماما، ذراعا سوزان ثقيلان جدًا.

سمعت أُمي تتهد بصوت عالٍ.

- لا عليك سوف أركز فعلاً.

كررت سوزان كلامها بصوت هادئ: ذراعيّ ثقيلان، أنا هادئة جدًا ومطمئنة. ذراعيّ ثقيلان جدًا، ثقيلان جدًا.

واضح أن الأمر كله يعتمد على التكرار؛ فسوزان تتحدث بصيغة أنا ولكنها تعني بذلك: أنت أو حضرتك.

ليس المفروض على المستمع أن يترجم هذا الحديث داخل رأسه ولكن عليه أن يبدأ فعلاً بالإحساس بالهدوء والاسترخاء، إذن فأنا في منتهى الاسترخاء وذراعي ثقيلان جداً. صحت بصوت عال: - ماما آسفة، أنا فهمت خطأ، أنا الآن مسترخية وذراعي ثقيلان.

سمعت ضحكة أمي وهي تقول: جميل:

كررت سوزان أننا في حالة هدوء وطمأنينة وأنزنا ثقيلة أكثر من عشر مرات.

هذا الأمر ممل جداً لدرجة أنني أصبحت فعلاً في حالة استرخاء. إذن فهو استرخاء ناتج عن الملل.

ضمنت يديّ ورفعت ذراعيّ إلى أكتافيّ وشعرت بقوة جسمي. تنفست بعمق شهيلاً وزفيراً ثم فتحت عينيّ: رائع، حالة جديدة، حالة رائعة.

لقد أصبحت في حالة خمول من شدة الملل لدرجة أنني شعرت بقوة يديّ وأنا أضمهما.

عظيم. النجاح الأول.

ضم الأيدي، شد الأذرع، نفس عميق، فتح العينين.

ضم الأيدي، شد الأذرع، نفس عميق، فتح العينين.

ضم الأيدي، شد الأذرع، نفس عميق، فتح العينين.

هل يعني هذا التكرار أنني أنا أيضًا يجب أن أكرر هذه العملية؟ أم أن هذه تعليمات موجهة لطفل لا يستطيع التركيز. التركيز من خلال التكرار. لا أفهم هذا جيدًا.

الجزء الرابع: الدفاء.

هذا الجزء تحقق حتى دون سوزان؛ حيث إن جهاز الكمبيوتر الموضوع فوق بطني أصدر حرارة ودفئًا. وضعت الجهاز بجانبني وانتظرت صوت سوزان يتحدث عن الدفاء.

ما زالت سوزان هادئة ومطمئنة وكذلك ذراعاها ما زالتا تقيلين، تقيلين جدًا. واعتبارًا من الدقيقة ٢:٥١ أضافت إلى ذراعيها دفئًا مريحًا.

ذراعان دافئان، ذراعان دافئان،

التركيز بالتكرار وعدم وضع فعل في الجملة.

الذراعان والساقان في حالة استرخاء دافئ لمدة طويلة، طويلة جدًا حتى الدقيقة ٥:٣٥.

ثم ضممننا يدينا مرة أخرى ورفعنا ذراعينا الدافنتين إلى
أكتافنا.

لقد سئمت وأسرعت في سير الشريط لأصل به إلى فقرة:
التفيس. فالأذرع والسيقان ما زالت دافنة ومسترخية فضلاً عن أن
نبضي ونفسي هادنان جداً.

ثم قالت سوزان بصوت غامض:

أتنفس نفساً!

رحت في غفوة واستيقظت على صوت فريق رباعي سوزي؛
فحيث إن الموسيقى المسجلة على جهاز الكمبيوتر مرتبةً أبجدياً فإن
سوزي تأتي بعد سوزان مباشرة. الجميل أن سوزي تعرف أكثر عن
الحياة فهي تصيح في وجهي قائلة: *if you can't give me love*
honey, that's ain't enough (إن لم تكن قادراً أن تمنحني حباً
يا حبيبي فهذا لا يكفي).

تمام هذا فعلاً حقيقي.

بدأت أفكر في فيليب ثم بكيت.

لم يقم فيليب في علاقته مع صديقته المكتئبة بدور يشرفه،
وأغلب الظن أنه غير ملزم بذلك، لذلك فهو لم يعد ضمن قائمة

مرتببات الشركة المسماة قلبي، إلا أنني كنت أتوقع منه بعض الإنسانية. الواقع أن الأمر صعب! فكل هذه الأحاسيس التي أشرك فيها جسمي الآن تشد أعصابي مثل الأسلاك المعدنية التي تعترض طريق بعضها، هل أعاني بالفعل من مشاكل عاطفية؟ هل يعز عليّ غياب فيليب؟ أم أنه غياب شخصي عزيز على القلب عمومًا هو السبب؟ هل تكمن المشكلة في غياب الحب الرومانسي؟ أم أنني حزينة لأن الحزن يعتبر من ضمن أدوات الاكتئاب، تمامًا مثل الخبز والملح.

أخشى ألا يكون لفيليب علاقة بكل هذه الأحاسيس، فلم نعد نطبق بعضنا بعضًا. الأمر ببساطة أن الواحد منا لا يريد أن يبقى وحيدًا، أما الآن فلا مفر من ذلك. إذن فهذا هو سبب الجذب والشد في قلبي فأنا إذن لا أريد أن أكون وحيدة، أريد استعادة أساسيات الحب كضمان للمحبة، أريد وليمة حب تحوي كل ما تهوى النفس *all you can love*. تقول لي أنيت إن حياتي كلها متوقفة على الحب، كذلك قالت لي إن أسرتي وأصدقائي قادرون على منحني الشعور بالأمان، وإن العلاقة العاطفية ما هي إلا الزيتون التي يزين بها شراب المارتيني، ولكن بالله عليك هل يكون لشراب المارتيني طعم بدون الزيتون؟

صحيح أن فيليب ليس زيتونة، إلا أنني في الوقت الحاضر أقبل أن أضع السردينة التي تسمى فيليب بدلاً من الزيتون في مشروب المارتيني.

كل هذه الأحاسيس تجعل مني إنسانة مسكينة لا حول لها ولا قوة؛ لذلك فأنا لست أنا، ولا أتصل بنفسي بفيليب بل أطلب من آخرين الاتصال به، فحيث إن أمي خبيرة في كتابة الرسائل فقد طلبت منها أن تكتب لفيليب رسالة إلكترونية جادة تبلغه فيها أنني مريضة جدًا وعليه أن يشعر بتأنيب الضمير لأنه تركني في عيادة الطوارئ دون أن يهتم بي، كنا نريد بذلك أن نخوض ضده حربًا نفسية، وأن نناشد ما تبقى لديه من مشاعر تجاهي، نريد أن نجعله يقلق ويشعر أنه أخطأ. لقد كان قطع علاقته بي أنا هي القشة التي قسمت ظهر البعير الذي هو أيضًا أنا، أنا كارو.

لكن للأسف، أمي دبلوماسية أكثر من اللازم ولذلك كتبت خطابها بنفس الطريقة. لقد كتبت لفيليب أنني إنسانة صعبة الطباع جدًا، وأن الأسرة كلها كانت تتوقع إصابتي بالاكئاب؛ لذلك لم يكن الأمر غريبًا بالنسبة لهم، وطلبت منه لو أنه تكرم وأظهر لي شعورًا يمنحني الإحساس بأنه قريب مني وقت الشدة وخلال الأوقات الصعبة.

شعرت بالغثيان، الأفضل أن أقوم أنا بكل شيء بنفسى،
انتظرنا رد فيليب لمدة طويلة؛ لقد كان دائماً يسعى أن يظهر بمظهر
يعجب الآخرين وخاصة أمى، لذلك بدأ خطابه بقوله: عزيزتى
كلاوديا - واختمها بقوله: مع أخلص تحياتى لابنتك. لقد توطدت
صداقة مراسلة بين أمى وفيليب.

هل تحبان أن أخرج أنا من الموضوع؟ مهلاً، مهلاً.

جاءت باقى سطور الرسالة توحى بأن فيليب كان على وشك
القيء وهو يكتبها. كتبها فى صيغة المبني للمجهول، فقال مثلاً: إنه
ليس قريباً أن يصاب شخص صعب مثلى بالاكْتئاب، فقد توقعها
بسبب ما كنت أعانيه على مدى الشهور الماضية. وأضاف بأنه يتفهم
معاناتى، فقد عانى هو نفسه من حالة اكتئاب مماثلة، ولا عجب فى
ذلك! فهذا المرض هو مرض الفنانين. يا سلام!! ألم يكن هو أحد
أسباب إصابتي بالاكْتئاب!؟

بدأت أشعر مرة أخرى بنار فى صدرى، بدأ جسمى يفرز
الأدرينالين، فبدأت أشعر بضيق فى التنفس، خشيت أن تتدفق من
داخلى حمم بركانية. ولكن الإنسان يتعلم من نوباته السابقة. بدأت
أدخن سيجارة فى هدوء ثم بدأت أصبح بصوت عال كما لو أنني قد
ابتلعت راديو وتلفظت بألفاظ نابية.

بدأت أُمي تتعامل معي بدبلوماسية لتهدئني ولكن بلا جدوى.
صحت فيها قائلة:

- يا حبيبتي، هو نيته حسنة ولكنه مثل باقي الرجال لا يجيد
التعبير عن نفسه.

ولما كنت أعرف فيليب أكثر من أُمي، فقد استطعت بعد
مناقشة معها أن أقنعها برأيي وضممتها إلى صفي. اقتنعت أُمي أن
صديقي السابق أحمق؛ ولذلك فأنا مصممة على أنه صديق سابق.
والآن لا بد أن نحاول إقناع قلبي بذلك.

دارت بيني وبين فيليب على مدى الأيام التالية عدة مناقشات
ولكنها لم تكن ترضيني، فلم يتصل بي نهائيًا ولم يرسل لي زهورًا،
ولا حتى وقف أمام باب أُمي ممتطيًا حصانه الأبيض حتى يمكنني أن
أرفضه بوقاحة. هكذا كانت الخطة إذا ما جاء على حصانه.

كانت وسيلة الاتصال الوحيدة بيننا هي الرسائل عبر الهاتف
الجوال (المحمول).. رسالة بلا طعم ولا إحساس، كانت رسالته
المفضلة:

- كيف حالك، هل تشعرين ببعض التحسن؟

الواضح أنه قام بتخزين الرسالة على الهاتف المحمول
اختصارًا للجهد، لم يتحدث ولو مرة واحدة عنا نحن الاثنين، مما
جعلني أشعر كما لو أنني أرنب رقيق يرثى له عن بعد.

كان بودي أن أرد عليه كل مرة برسالة - تقول إنه لم يطرأ على أي تحسن خلال هذه المدة القصيرة، فالإكتئاب ليس مثل نزلة البرد الخفيفة. كنت أريد كذلك أن أخبره أنني أبتلع أقراصاً تتحكم في رأسي وتحدد له ماذا يجب أن يفعل وماذا يجب ألا يفعل. كنت أرغب إبلاغه أنني أتمنى لو أنني تركت طبيب الطوارئ وجلسات العلاج وكل ما يتعلق بهذا الأمر، ولكن هذا سيكون بالطبع تصرفاً أحمق.

كذلك كتبت له فقط رسالة تقول: نعم شكراً.

وحتى هذه المحاولة المملة التي حاولت فيها أن أدعي التحفظ لم تُجد مع فيليب، كان هذا شيئاً متوقعاً؛ ففيليب ليس الشخص الذي تتطلي عليه مثل هذه الألعاب، ليس لأنه لا يرغب ولكن لأنه لا يفهم. ربما كان ذلك صحيحاً طبقاً للظاهرة التي يتبناها ماريو بارت والتي تقول إن النساء يفكرن بطريقة أبعد نظراً من الرجال بعشر خطوات. فعندما أقول كذا وكذا أكون وقتها أفكر في هذا وذاك. إذن من الأفضل أن أقول شيئاً يجعل الرجل الذي أمامي يتصور كذا وكذا، فالرجال لا يفكرون إلا خطوة بخطوة.

إذن ففيليب يمكن أن يتصور أن أمي كتبت تقول كذا وكذا، ومن ثم فإنها تعني أن كارو هي التي تقول إنها بخير. إذن فالأمر بسيط ولا يدعو للقلق.

خجلت من نفسي لأن تقدير الرجال للأمور أذكى وأكثر منطقية وصحة من النساء، شعرت أيضًا بالخجل لأنني وقعت في مصيدة ماريو - بارت(*)، ورغم علمي بكل هذا فإنني لا أستطيع أن أتصرف على نحو آخر، أو بالأصح إنني لا أعرب في ذلك.

ثم.. ثم اتصلت بفيليب هاتفياً.

حاولت أن يكون صوتي خليطاً من عدم الاكتراث والحساسية والإثارة التي تغلفها اللامبالاة، ولا أنكر صعوبة هذا الأمر. قلت له:

- مرحباً.

جاء رده بصوت هو خليط كئيب من عدم الاهتمام والشفقة:

- مرحباً.

وجهت له السؤال الذي يمكنني من الخروج من مأزق "مرحباً" وأن أغير موضوع الحديث فسألته: كيف حالك؟

الأذكىاء من الناس يعرفون هذه الحيلة ويعيدون الكرة إلى ملعب الطرف الآخر، إلا أن فيليب ليس واحداً من هؤلاء.

إذا كان فيليب يفتقد أي عضو من أعضاء جسمي فسوف تكون أدني الصبورة؛ لذلك جاء صوته متدققاً كأنه مصاب بإسهال:

(*) ماريو بارت: كوميدان استعراضي شهير.

- حسبنا جدًا، أصبح عندي الآن أستاذ مشرف جديد؛ لأن الأستاذ القديم حصل على وظيفة جامعية في السودان، حصل عليها رغم أنه غبي بمعنى الكلمة، فهو في الواقع لا يفهم شيئًا. أما الأستاذ الجديد فيبدو حتى الآن ممتازًا. فيما عدا ذلك فإنني أنوي الذهاب مع جورج ويوحنا لنمارس رياضة ركوب متن الأمواج المتكسرة (سرفينج)، ولكنني في الواقع لا أعرف إذا ما كنت حتى هذا الميعاد سوف أتمكن من إصلاح لوح السرفينج. أحد الضيوف في حفلة من حفلاتي جلس عليه وأصابه بشرخ.

أخذ فيليب يبيع بعض المغامرات التي خاضها في الفترة التي عاشها دوني. وفجأة توقفت عن الاستماع إليه بعد أن طلب مني عضوا جسمي الحبيبان - عقلي وقلبي - أن يحدثاني في الموضوعات المحببة إلى نفسي: وهما الغضب والحزن. إنني حزينة بالفعل لأن فيليب يمارس حياته الطبيعية بدوني، ولأنه بدوني يرى أستاذه غيبًا، وأنه خطط للعطلة القادمة، كما أنه يقيم حفلات ويرى أصدقاء. أما أنا فلا أستطيع أن أفعل مثله، لذلك لا أريد أن يكون فيليب أيضًا قادرًا على ذلك بسبب الهم والاشتياق إليّ، ولكن فيليب لا يلقي لي بالأ ولا بخيط واحد يربط بيننا إلا أنه يحفظ مسافة ذراع بيننا.

ومما زاد ثورتي أن فيليب نجح في أول اتصال تليفوني بعد انفصالنا وبعد النوبة الأخيرة التي أصابتنني وزيارتي لعيادة الطوارئ، نجح في أن يتجاهل حالتي النفسية.

كل ما فعله هو أن استمر في الحديث وخاصة الحديث عن نفسه ثم عن نفسه وعن نفسه. وبدأ بعد ذلك يحكي حكايات يومية عادية. أليس لفريق عمل فيليب المكون من قلبه وعقله أولويات؟ أم أن هذه بالفعل هي أولوياته. ربما كانت "الأنا" عنده من البلاهة (لو كانت آتيت لقاتت من الاختلاف) بمكان بحيث لا تستوعب أنه ليس الموقف المناسب لنتصرف كما لو كنا قد التقينا بالأمس.

بينما فيليب مستمر في ذكر حكايات مغامراته الشخصية، بدأ قلبي وعقلي في وضع الغضب والحزن في ميزان انفعالاتي، رجحت كفة الغضب بعض الشيء، ولم لا؟ أليس من حقه أن يزيد بعض الشيء.

أنهيت المكالمة بسرعة، وقبل أن أشعر بأن عمودي الفقري الهش على وشك أن ينكسر قلت له:

- جميل أن كل شيء عندك تمام. أنا لازم أنهي المكالمة الآن، عندي ميعاد!

ثم أضفت كلمة سريعة في النهاية: إلى اللقاء.

إلا أن كلماتي الأخيرة لم تكن بصوت عال وواثق وإنما بدت باهتة. يا للأسف!! فقد أصبحت في نهاية المكالمة مرة أخرى كالأرنب الذي يرثى له عن بعد، ولكني في هذه المرة أرنب يشعر بارتياح؛ فالشخص منا يميل عند الفراق أن يمدد الحبيب السابق، ولكن للأسف لا ينطبق هذا على فيليب.

ولیکن! فأنا لا أريد شخصًا بهذه البلاهة، لا يتيح لي حتى فرصة أن أخدع نفسي - وهو أضعف الإيمان - لذلك سوف أترك فيليب..

سوف أتركه يذهب لحاله.

أنا صاحبة حرفة مجتهدة.

لدى من الوقت الكثير بحيث أفكر في نفسي وأرسم صورًا معوجة. أستعين بالتشبيه والمجاز لترتيب الأفكار في رأسي. أجتهد أن أفهم كارو الجديدة.

إن أفضل ما أصور به نفسي في الوقت الحاضر هو المنزل؛ فقد كنت على مدى حياتي بأكملها أشعر بأنني بيتٌ متهاكك عبارة عن ألواح خشبية هشة ذات ألوان باهتة؛ أما الثقوب فيها فقد عولجت بطريقة بدائية رغم أنها تبدو لأول وهلة كأنها أصبحت سليمة، أما

قوالب الطوب التي سقطت من السقف فقد استبدل بها قطع من بواقي ألواح الخشب وتم تثبيتها بالمسامير؛ لقد تم ترقيع الثقوب إلا أنها مزعزة ويتسرب منها الهواء.

وكنت أنا أول الأغبياء الذين ارتضوا أن يرقصوا ويشربوا بدلاً من أن يبنوا لأنفسهم بيتاً آمناً.

ثم، ثم جاء الذئب ونفخ في هذا البيت الهش، وها أنا ذا بلا مأوى وأعاني من تبعات ذلك. فالقذارة حلت محل المكان الذي كان أثاث البيت يشغله، وتيار الهواء يعم المكان. ولكن عملاً بالمقولة التي نعرفها: إذا أغلق باب فسوف يفتح باب ثان في مكان آخر، ورب ضارة نافعة، ففي هذا ميزة مهمة: على الشخص أن يبدأ مرة أخرى، وربما أمكنه في هذه المرة أن يقيم بناء، يصب له أساساً قوياً وأعمدة خرسانية، كما يمكن هذه المرة أن تتركب التوصيلات الكهربائية بالطريقة السليمة لدرجة يمكن معها شراء غسالة للصحون بعد ذلك.

أنا أعيد بناء نفسي وأعد من ثمر الليمون شراباً ومن التراب ذهباً أو حتى من السردين زيتوناً.

وفجأة قفزت أمام عيوني صورة المنزل الذي شبهت نفسي به والذي وصفته سابقاً وأخذت أصيح: هاهاها، لن نتمكنوا مني، سوف أصبح نفسي وأكون أقوى من ذي قبل.

كل هذا دار في رأسي؛ فأنا في حالة جيدة وسوف أستجمع شجاعتي مرة أخرى. سأغير من نفسي وأختار الاتجاه الآخر، فالاتجاه القديم أصابني بالتصلب.

رغم أن فترة الاستشفاء التي أمضيتها عند أمي أفادتني إلا أنني لم أتحرر من الخوف بصورة نهائية بل على العكس، فعندما تضطر أمي إلى الذهاب للعمل ويكون نيلسون مشغولاً وأبقى بمفردي، وقتها أشعر بالقلق ويرتعد جسمي، يرتفع صوت ضربات قلبي فأسمعها بوضوح. ولكني رغم كل ذلك نجحت في أن أوقف نوبات الخوف والفرع، فأصبحت أتحكم في عملية التنفس (من أعضاء جسمي المختلفة) وأذهب للتنزه.

اكتشفت أهمية النزهة الطويلة بالنسبة لي رغم أنني أعرف عن نفسي التكاثر أثناء السير. بدأت أتزده في المساحة الخضراء التي تحيط بمنزل أمي، كنت أسير بخطوات صغيرة وبطيئة ثم بدأت أخرج إلى المتنزهات والطرق الجانبية المحيطة.

يبدو أن منظري أوحى للمارة الذين أقابلهم بأنني جدة صغيرة أمشي منحنية فتطوعوا لمساعدتي لأعبر الشارع.

أستند أثناء السير على المقاعد الموجودة في الطريق، ثم
أجلس بين أحواض الزهور لساعات أحملق فيمن حولي من
الأشخاص الذين يروحون في غفوة وهم جالسون مثلي، وعندما يفتح
أحدهم عينيه ويراني بجانبه لا يحاول أن يتحدث إليّ؛ لأنه يلاحظ
أنني لا أملك ما أعطيه أو أقوله. لقد عرض عليّ أحدهم ذات مرة أن
يقدم لي قَدْحًا من البيرة، شكرته وأفهمته أن الكحوليات تتعارض مع
الأدوية التي أتناولها، هز الرجل رأسه وهو يتنهد، يبدو أنه فهم
مضمون ما أقول.

ما زال أكلّي قليلاً وما زلت أشعر بانقباض، كما يساورني
إحساس بأنني لا أشارك في الحياة اليومية العادية، ولكن رغم ذلك
فالحالة في تقدم.

التقي بنيلسون كل يوم فنجلس في أحد المقاهي لنلعب
الكوتشينة ونقتسم طبق الحساء. نحاول أنا وهو أن ندلل كارو - التي
هي أنا - وعندما كان نيلسون يفوز عليّ في اللعب كنت أقول له:
- أكرهك أكثر مما أكره حياتي.

وكان هذا هو أقوى سباب أسب به أحدًا في هذه الأيام.

كنت أذهب مرة في اليوم إلى شقتي حتى لا أشعر بالعربة
تجاهها؛ يجب أن تبقى بيني وبين شقتي علاقة صداقة. لا أريد أن
أصبح بلا مأوى، فمن غير المعقول أن أعيش عند أمي إلى الأبد

أو في رعايتها، لذلك أقضي عدة ساعات من حياتي اليومية في شقتي: أبحث عن مكان لركن السيارة، أحضر الرسائل من صندوق البريد، أفتح باب الثقة وأدخل إليها وأبقى فيها دون أي توتر.

لقد تركت الأزمة القلبية المفتعلة منذ بضعة أسابيع في نفسي أثرًا كئيبيًا، لذلك عليّ أن أبدأ مرة أخرى من جديد.

- أهلاً يا شفتي الحبيبة، فكراني؟ أنا كارو. لن أصيبك بضرر إذا لم تضريني أنت أيضاً!

المفروض أن أترك الثقة تشم رائحتي لكي نبني الثقة بيننا. من الأفضل ألا ننظر في أعين بعضنا، بل يفضل أن أسئلقي على ظهري وأرفع يديّ وساقَيّ.

- هل ترين يا شفتي، أنا مسالمة جدًا ومستسلمة جدًا!

نظرت إلى الثقة نظرة شك ولم تفعل شيئًا، ولكنها تريد فقط أن تنتظر وتترقب.

أفهمتني آتيت أن شفتي كانت تعتبر خلال الأشهر السابقة بمثابة السجن بدلاً من أن تكون السكن، وهذا أمر طبيعي خلال فترات البطالة؛ ففي الأوقات التي يبقى فيها الشخص العاطل في غرف مغلقة بلا عمل فإن هذين العنصرين يمتزجان (الوحدة والبطالة).

يطلق على ذلك رد فعل بافلوا، فبقاء الشخص في شقته يتساوى مع كونه وحيداً وبلا عمل.

استوعبت الآن أنني كنت خلال الشهور الماضية أتجنب شقتي، فلم أستقبل ضيفاً رغم أن شقتي كانت دائماً مقصداً محبباً لأصدقائي؛ فشقتي جميلة ومشمسة، وهي فضلاً عن ذلك صديقة للمدخنين: طفايات السجائر في كل مكان حتى في دورة المياه، ورغم كل ذلك فلم أكن ألتقي بزميلاتي وأصدقائي إلا في البارات أو في مساكن الطلاب التي لا يسمح فيها بالتدخين إلا في الشرفات مع التزام الهدوء؛ لأن قطة الجار نائمة أو لأن أحد الطلاب يستعد للامتحان.

عقدت النية على أن أغير كل ذلك، بل يجب على أن أفعل؛ لأن شقتي هي حليفي الوحيد والقيمة الثابتة الوحيدة في حياتي وهي كذلك الجهة الوحيدة التي لا تتضرر من وجودي كما أنني لمست في حاجة إلى أن أخدمها.

يا شقتي الحبيبة، أريد أن أصح كل شيء.

قررنا: ظهر أمي - الذي يؤلمها من النوم علي سرير الضيوف - وأنا معه، أنني أرغب في أن أعيش بمفردي مرة أخرى.

أما أمي نفسها فلم توافق على ذلك وطلبت مني أن أترك لنفسني الوقت الكافي قبل أن أقرر أن أقيم بمفردي. الحقيقة أن سرير الضيوف في غرفة المعيشة قد فتن لي أن أمي تتمنى أن تعود للنوم في سريرها كما أشتاق أنا إلى سريرتي.

ولكننا تعلمنا من درس انتقالنا المفاجئ منذ أسابيع. لذلك أردنا أن نسير بخطا بطيئة فوضعنا خطة جميلة، كثيراً ما تتبع في حالة أطفال الأسر التي ينفصل فيها الأبوان، بحيث أبيت ليلة في شقتي وليلتين عند أمي على مدى أسبوع كامل؛ فإذا نجحت هذه الخطة فأبيت بالتبادل على نحو ما خططنا، بعد ذلك سوف أكون على استعداد لأن أعود إلى شقتي بشكل نهائي، وبذلك نكون قد ساعدنا على انتقالنا إلى حياتي القديمة والجديدة في ذات الوقت، فالصبر الذي جاوز الحد لا يمكن أن يضر بشخص مثلي فأنا "قلته زمني" في السرعة.

كان القلق يساورني أنا وأمي قبل أول ليلة أبيت فيها وحدي كما لو كنت ذاهبة إلى القتال. كررت لي أمي قولها أنني لست بحاجة إلى أن أتعجل بالعودة إلى شقتي، وأنها تفضل أن أبقى معها، ولكنني جندي ويجب على الرجل أن يتصرف تصرف الرجال.

تعانقنا أنا وأمي في مشهد مسرحي وبكينا قليلاً ثم ضحكنا من حماقتنا؛ ثم انطلق الجندي الابن في طريقه إلى العراق!!

عندما وصلت إلى شقتي تصرفت بطريقة عادية وغير ملفتة..
ألقيت أمتعتي في أركان الحجرة، ثم بدأت أدخن في كل الحجرات
بحيث لا يظهر عليّ أي قلق؛ فلا يجب أن تتسنج الشقة حتى لا تفشل
العلاقة الهادئة بيننا. صحت بصوت عالٍ:

- مرحبًا، كيف الحال؟

وقفت لدقائق كالبلهاء، فقد قذفت كل ما وجدت أمامي في
أركان الحجرة وقلت للشقة:

- ولا يهمك، لا داعي أن نشعر بتوتر الأعصاب، هذه مجرد
محاولة! فلو لم ينفع التفاهم بيننا اليوم، هذا لا يعني نهاية العالم.
دعينا ننتظر ونرى ماذا سيحدث!

ورغم ذلك حاولت أن أقوم سرًا ببعض الإجراءات الاحتياطية،
فأضأت أضواء خافتة في كل مكان واستخدمت البشكير والشموع،
وأعددت حمامًا للاسترخاء باستخدام زهور اللافندر. هذه في الواقع
فكرة اقترحتها عليّ أمي وأعطتني بعض الكريمات لتدليك القدمين،
وكنت في هذه الأثناء أحاول الصفير مثلما أرى في الأفلام الهابطة
كي أصرف الانتباه عن حيلي ومراوغاتي، فالمفروض أن نشعر أننا
وشقتي أن كل شيء يسير كالمعتاد؛ فلا أحد هنا يشعر بالخوف. أليس
مسموحًا في الأحوال العادية أن آخذ حمامًا؟!

مر المساء عاديًا، فبعد أخذ الحمام جلست لمشاهدة بعض حلقات من مسلسلات ثم قراءة أجزاء من كتاب نسائي أبله بعنوان: "الرجال وكوارث أخرى".

يقول ملخص الكتاب: يوديت غير سعيدة بحياتها؛ فصديقها لا يهتم إلا بالرياضة والنساء الأخريات، والوظيفة أصبحت مملة ولا تطاق، أما الرجال الذين كانت تحاول أن تجد فيهم السلوى فقد اتضح لها أنهم كارثة بمعنى الكلمة.

أما صديقاتها فحالمهم ليس أفضل من حالها؛ فصديق كاتيا خانها، أما بيللي فقد أحببت شخصًا مغرورًا وسمعته سيئة. أخذت المؤلفة تعدد الكوارث الواحدة تلو الأخرى إلى أن تصل إلى نهاية مرحلة، وظيفية وشيقة.

وفجأة أثارني كل ما قرأت عن كاتيا وبيللي وعن النهاية المرحة المتوقعة؛ فأنا لا أريد أن أقرأ قصصًا كارثية عن فتيات أخريات.

وفجأة تحدثت إلى شقتي قائلة:

- ألا تلاحظين أن الحياة العادية عادت لدق بابنا؟

شعرت ببعض الاضطراب فألقيت بكتاب "الرجال وكوارث أخرى" في ركن ما زال به متسع.

دوّت في أذني كلمات أنيت وأمي بل وشقتي قائلة: مهلاً
لا تغتري.

وجدت أن معهم جميعاً الحق؛ لذلك دخلت سريري واستمعت
في هدوء إلى تمثيلية إذاعية قبل أن أستغرق في النوم، وذلك بدلاً مما
اعتدت عليه من الأفلام التسجيلية عن تشريح الجثث.
راقبت نفسي وأنا أروح في النوم.

هل تم ذلك بناء على الخطة الموضوعية؟ هل أنت متعبة؟ هل
تشعرين بالقلق؟ أو ربما بعض الخوف؟ ماذا عن ضربات قلبك؟
ما زال كل شيء في المجال الآمن؟ وفجأة رحّت في النوم.
استيقظت فجأة.

لم أستيقظ على مهل وتكاسل وإنما كان ذلك فجأة.
بدأت أتأمل حولي، أين أنا؟ كم الساعة؟ كيف حالي؟ هل
أصبح الصبح بحيث يمكن أن أستيقظ ليوم جديد أم أن الليل ما زال
طويلاً؟

هل استيقظت لأني خائفة أم لأني اكتفيت نومًا؟
ألقيت نظرة على المنبه وسعدت جدًا لأني وجدت أن الساعة
الآن التاسعة صباحًا. وقت مناسب لأن أستيقظ بشكل طبيعي، خاصة

وأنني لم أستيقظ لأنني أشعر بالخوف ولكن لأنني أحتاج إلى قضاء حاجتي.

لقد نجحت في قضاء الليلة الأولى في شقتي وحدي.

شعرت براحة كبيرة وأرسلت لجميع أفراد أسرتي رسالة قصيرة: لقد مرت الليلة على خير بلا خوف. كل شيء يسير على ما يرام.

شعرت كما لو أنني رزقت بأول طفل في حياتي أو أنني حصلت على درجة الدكتوراه.

ولما كانت أسرتي تعرف مدى جدية الموضوع فقد أرسلوا لي جميعهم رسائل تحمل أجمل التهاني؛ أمي مثلاً فخورة بي، بينما صرخ أبي وجدتي فرحاً لهذا الإنجاز، أما نيلسون فيريد إقامة احتفال بهذه المناسبة.. شيء رائع!!

بدأت أتدبر الأمر وأطرق الحديد وهو ساخن، فأبقى بصفة مستمرة في شقتي ولكن الشرطي الشخصي الخاص بي رفع عصاه لتنظيم مرور الأشياء وقال لي: مهلاً يا سيدة هيرمان، لا تغتري بنفسك.

أجبت قائلة: أنا أسفة يا سيادة الضباط، معك حق. أعددت لنفسي أول فنجان قهوة مخففة في منزلي القديم الجديد وأديت الطقوس نفسها التي اعتدت عليها عند أمي.

تناولت أقراص الدواء وتجاهلت الساندويشات ثم استلقيت في الشرفة وأخذت أرتشف من فنجان القهوة. لقد كنت في غاية السعادة والأمور تسير في إطارها الطبيعي دون أن يكون تركيزي على مراقبة ما أفعل. شربت القهوة على عجل، وتواعدت مع نيلسون على أن يصاحبني إلى جلسة العلاج ثم يعود معي إلى هنا كي نشرب نبيذ الأطفال ونضع السكر على حافة الكأس، هنا في شقتي.

أعربت آنيث عن فخرها بنجاح خطة المبيت في شقتي، وأبلغتني أنني قد أدت الخطوات بشكل صحيح وعليّ أن أستمّر في إيجاد الألفة بيني وبين شقتي. قالت لي: إن المطلوب مني أن أشعر بذاتي بشكل أكبر؛ وحيث إنني لم أفهم الجزء الأخير الخاص بالشعور بالذات فقد أخذت أركز على جزء العلاقة بيني وبين شقتي.

ذهبنا أنا ونيلسون إلى محل لشراء لوازم المنزل واشترينا أشياء لا لزوم لها مثل شموع برائحة الفانيليا وبراويز وكذلك بعض الوسائد لأضعها في شقتي في كل مكان، ثم وضعت السكر على حواف أكواب الشراب وصببت نبيذ الأطفال بطعم الفراولة.

صحيح أن طعم المشروب سخيف وله طعم لبان الأطفال ولكن كل ذلك كان بطعم الحرية.

لقد شعرت لأول مرة منذ أسابيع كما لو كان كل شيء سيعود إلى ما كان عليه.

جاءت مغادرة فندق أمي هذه المرة أفضل من المرة الأولى منذ سبع سنوات؛ فلم تتنفس أمي الصعداء ولم يكن في وجهي حبوب وبثور.

عز على أمي أن أترك شقتها - أعتقد أن ذلك كان لأنها تعودت على وجودنا معاً - . أرادت أمي أن تخفف من توتر الجو فقالت لي: أستطيع الآن أن أستقبل ضيوفاً من الرجال. كان هذا من قبيل المزاح لأنني أعرف أن أمي لم تستقبل ضيوفاً رجالاً أبداً.

قلت لها: إذن، حافظي على نفسك يا حلوة، استخدمتي وسائل منع الحمل، وإذا كنت ستذهبين إلى المدرسة في اليوم التالي فلا تتأخري بعد الساعة الحادية عشرة خارج المنزل.

والحقيقة أنني سوف أفقد أمي كثيراً؛ فأحساسي الآن يشبه وقت الذهاب إلى المعسكرات الصيفية، فتم الاتفاق على الاتصال بصفة منتظمة والحديث تليفونياً ولو مرة واحدة في اليوم.

اعتقدنا أن هذا ممكن الحدوث ولكننا للأسف نعرف بعضنا جيداً؛ فبعد أسبوع واحد على الأكثر سوف تعود كل واحدة منا إلى

حياتها الطبيعية، وليكن الأمر كذلك. سوف أترك أُمي تستقبل ضيوفاً من الرجال، ولأحاول أنا العمل على توطيد العلاقة بيني وبين شفتي. قلت لها وأنا أقدم لها باقة من الزهور:

- إلى اللقاء يا أُمي وأشكرك على أنك سمحت لي بالإقامة معك هذه الفترة.

- ردت أُمي قائلة:

- اسكتي يا بنت يا عبيطة، أهلاً بك في أي وقت.

ثم قبلتني وأخرجتني وأغلقت الباب خلفي.

وضعت نظرية للمشاكل العاطفية، فقامت بتقسيمها إلى ثلاث مراحل تنطبق على كل من يعاني من مشاكل عاطفية من الدرجة المتوسطة.

تنتم المرحلة الأولى بألم شديد وموجع يشبه جرحاً مفتوحاً. يشعر الشخص في كل لحظة خلالها بمادة كاوية تصب فوق جرح قطعي في جسمه. هذه الفترة لا تستمر طويلاً كما يعتقد البعض فهي لا تزيد على شهر.

أما خلال المرحلة الثانية فإن الألم يصبح مقبضاً ونبضاً بشكل غريب، تماماً مثل ألم الأسنان أو الصداع من الدرجة المتوسطة فضلاً عن أن الحزن يجيء على شكل موجات. ففي مرة يستطيع

الشخص أن يسبح إلى الشاطئ بلا مشاكل، مرة أخرى يفضل أن يبقى على الشاطئ أو أن يستخدم عوامة لتساعده على السباحة، ومن ثم فإن شدة الألم تكون في حالة تغيير مستمر. الإحساس به موجود باستمرار ولكنه محتمل. حتى أثناء فترات الجزر فإن الألم يتغلغل داخل الشخص. هذه المرحلة، وهي الثانية، تختلف من شخص لآخر؛ لذلك فهي تستمر ما بين شهرين إلى أربعة أشهر.

تأتي المرحلة الثالثة على غير انتظار، فقد فاجأتني بينما كنت في السينما مع نيلسون وزوجته؛ ففي منتصف الفيلم حدث لي شيء ما، شيء غريب ولم أعتده؛ لذلك بدأت فوراً في استخدام معلمي الداخلي وأجريت بعض التجارب لقياس القلق والخوف وكذلك الحزن والألم، جاءت النتائج جميعها سلبية. شعرت ببعض الارتباك لأنني لم أستطع تصنيف هذه الأحاسيس الجديدة. أخذت في الاعتبار أن معلمي الداخلي في حاجة إلى صيانة، ولكنني فهمت فجأة ما حدث: أنا راضية، ليس بداخلي شيء عفن أو كئيب؛ فأنا الآن موجودة هنا وأشعر أن كل شيء على ما يرام.

وفي هذه اللحظة بدأت المرحلة الثالثة؛ فالشخص يكون معبأ بكل ما عاشه في المرحلتين الأولى والثانية، ومن ثم لا يكون قادراً على تقييم الألم الذي بدأ يضعف، ثم فجأة تملأ دموع الارتياح

العيون، لذلك بقيت جالسة بجانب أصدقائي في السينما بينما انسابت دمعتان ورديتان من عينيّ على وجهي الذي شعر بالفخر.

بدأت حياتي تسير في مسارها الطبيعي، فأصبحت أقضي أوقاتاً طويلة في البيت، بل وأصبحت أستمتع بهذا الوقت. قمت بدعوة أصدقائي لتناول طبق من الحساء سابق التجهيز وأصبحت ألتقي ببعض الأشخاص الذين لم يروني خلال الأسابيع الأخيرة.

الجميع متعاطف معي؛ لقد فوجئوا بأنني صريحة وأمينة بل ورفيقة الإحساس على نحو لم يعرفوه عني من قبل، استتكرت منهم ذلك لأنهم صوروني كما لو كنت متكبرة ومتباعدة عنهم. أنا لم أكن يوماً باردة الإحساس، فعندما كنت أشعر برغبة في البكاء كنت أبكي، وعندما كنت أثور كان الأصدقاء يلحظون ذلك، لم أكن أخفي أحاسيسي أبداً وفجأة شعرت أنني ضيفة في برنامج توك شو يصور مرحلة سابقة ومرحلة تالية من حياتي، بينما يقف أصدقائي حولي يتأملونني ويبدو إعجابهم بي، بدا لي الأمر كما لو كنت فيما سبق بطة صغيرة مسكينة وتحولت فجأة إلى بجعة مزهوة بنفسها. استتكرت ذلك وساورني إحساس بأن أجعل الدنيا تحمل كل هذه الذنوب على أكتافها، ولكنني في وضع لا يسمح لي بذلك، وقتها سيكون الأمر مكشوفاً للجميع. فلا يمكن أن يكون حكم كل هؤلاء على خاطئاً.

ما زلت مداومة على الذهاب لجلسات العلاج النفسي، أشكو خلالها أصدقائي لأنيت: أمر فظيع أن يقتنع الجميع بأنني حساسة جدًا.

وكعادة أنيت - فهي الهدوء بعينه - قالت لي:

- لا أحد يريد أن يؤلمك يا كارو، ولم يفرح فيك أحد، كما لم يلحظ أحد سوء الحالة التي وصلت إليها، لذلك فقد فاجأتهم الآن.

رددت عليها بقولي:

- هذه المفاجأة هي التي أصابتنني بالاشمئزاز؛ فهذا يعني أن أحدًا من أصدقائي لم يعرفني بالفعل. لقد عرفوا فقط كارو القوية المرحمة، ولم يخطر ببالهم أبدًا أنني يمكن أن أشعر بالحزن. بادرتني أنيت بقولها:

- ربما كانت هذه الصورة هي التي أردت أنت توصيلها للآخرين عن نفسك!!

فقلت لها:

- هذا هراء يا أنيت، فأنا لا أخفي أحاسيسي، بل على العكس فأنا أطلق أحاسيسي بلا قيد.

- هذا صحيح! ولكنك تفعلين ذلك بسرعة شديدة؛ لأنك تتفجرين كالبركان الصغير. فلا يشعر الشخص الذي أمامك إلا وأنت

تحكين فجأة نكتة أو دعابة وتقومين بتغيير الموضوع كأن شيئاً لم يكن.

أسقط في يدي لأن أنيت محقة فعلاً؛ فعندما أظهر بعض أحاسيسي لا ألبث أن أتصور أنني قد أخذت من محدثي وقتاً أكثر من اللازم فأنهي الحديث فوراً. ليس من الصعب أن يكتشف أصدقائي هذا السر. كان المفروض أن يفهموا هذه الحيلة، وكان عليهم أن يستمروا في سؤالني:

ابتسمت أنيت وقالت:

عزيزتي كارو، الآخرون ليس مطلوب منهم عمل أي شيء؛ فمن خلال عالم الأمانى الخاص بك أنت تصورت أنهم يمكن أن يفتنوا إلى شرك وأن ينقذوك. الواقع أنهم من خلال عالمهم الخاص بهم غير واثقين ولا يتصورون أنك لا تريدين الحديث عن نفسك.

فكرت في هذا الكلام ثم قلت: يا للمصيبة!

- يا كارو الناس مختلفون، ولن تستطيعي أن تغيريهم.

- ولكن أستطيع أن أطلب منهم بعض التقمص العاطفي.

وحيث إنني أعرف الإجابة مسبقاً، وحيث إن أنيت تعرف ذلك

أيضاً فلم تقل شيئاً.

أذهب أسبوعياً وبانتظام إلى أنيت، مر الوقت وانتهت الجلسات المقررة دون أن أشعر بذلك. لم أشعر بأني قضيت خمسا وعشرين ساعة في علاج دماغي. تحدثت مع أنيت عن إمكانية أن أجتاز الآن الفحص المطلوب مثل الفحص الذي يجري على السيارات، فسألنتي أنيت بذكاء عن رأيي في هذا الشأن، فلم أعرف الرد؛ لأنني وبمرور الوقت أصبحت معلوماتي عن نفسي أقل، فنحن نتحدث كثيراً في كل جلسة ونجد خيوطاً حمراء بداخلي نحاول تصنيفها، فنربط الأحداث بالأحاسيس. أصبحت بعد كل جلسة أشعر بالدوار لكثرة ما أعرفه فيها عن نفسي. قالت لي أنيت: إن أحاسيس كثيرة بداخلي الآن ما هي إلا أحاسيس قديمة ترجع إلى كارو عندما كانت في سن الخامسة والعاشر والثانية عشرة من عمرها، وإن المخاوف والقلق اللذين تشعر بهما كارو الآن متركمة؛ لذلك تمرست عليها.

شرحت لي أنيت أنه من الصعب التخلص تماماً من ردود الأفعال القديمة التي اعتدت عليها، لذلك فالحل هو أن أتعود على التعرف على هذه المخاوف وأن أفنع نفسي أن الأحاسيس لا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأحداث التي تتزامن معها.

أما أنا فإنني أشك في قدرتي على عمل ذلك؛ فبمجرد مغادرتي عيادة أنيت أنسى كل ما تحدثنا عنه، فكل الخيوط الحمراء التي

تحدثنا عنها والتي تصورت أنه بإمكانني أن أغزل منها بلوفرًا أنيقًا، كل هذه الخيوط الحمراء تختفي من أمامي تمامًا أو تتداخل في بعضها. أصبح هذا الأمر غير محتمل بالنسبة لي.

فأنا في حاجة إلى التعرف على علاقة الأشياء ببعضها لكي يمكنني أن أحقق تحسناً وأن أؤدي الواجبات المطلوبة مني، ولكن يبدو أنني كنت في كل مرة أنسى الواجب المطلوب مني.

لا يمكن أن أنكر أنني حققت الكثير مع آنيث، فقد استطعنا السيطرة على كثير من المشاكل أهمها ثورة البركان المسمى كارو؛ ورغم تمكننا من السيطرة على كارو خلال الأشهر الماضية فإنني ما زلت أعاني من المشكلة الأولى: فأنا أعاني من نفسي لأنني ما زلت متعبة. الفارق الوحيد هو أنني أصبحت أفهم الجزء النظري من الموضوع وأعرف الحالة التي أنا عليها الآن بالتفصيل. أصبحت أعرف فرانكشتين جيدًا ولكنني ما زلت أنا وحشه المخيف.

توافقني آنيث في الرأي فهي ترى أننا استطعنا أن نسيطر على مرحلة الانهيار التي مررت بها وأنني أسير على الطريق السليم، ولكنها لا تنكر أن أماننا الكثير، وتوصي أن نستمر في العلاج.. المهم أن أكون أنا راغبة في ذلك.

طبعًا أُرغب في الاستمرار بل أكثر من ذلك؛ فأنا فخورة بأن أكون على هذه الحالة من الهشاشة، بحيث أحتاج إلى جلسات علاج

جديدة؛ فأنا لست ممن يميلون إلى اللجوء إلى العلاج النفسي ولكنني مريضة فطبعة.

ورغم أن تفكيري اتجه إلى هذا المعنى فقد أصبت بالفزع من هذه الكرة. غريب أمرى مع الإصابات والجروح؛ فهي دائماً تُشعرنى بالفخر والاعتزاز. الواضح أنني أستغلها لجذب انتباه الآخرين؛ فمَنْذ طفولتي وأنا أجعل من كل جرح في جسمي جرسى؛ فقد كان أمراً مثيراً أن أكون ولو لفترة قصيرة محور الاهتمام ويصبح جرحي مغناطيساً يجذب الأنظار. في كل مرة كنت أحكي تجاربي مع عمي البشع بطريقة ممطوطة ومملة، وما أكاد أنتهي من هذه الحكايات حتى أجد حولي من يتعاطفون معي.

عندما حكيت لأنيت عن هذا الموضوع نظرت إلى نظرة ثابتة وهادئة لم أفهمها في هذه اللحظة، فأنا في غنى عن هذه النظرة؛ لأنى أعرف نفسي جيداً. لذلك لم أنفعل لهذه النظرة لأنى شعرت بالملل، فأنا في حاجة إلى من يؤيدنى.

وأخيراً، فهمت نظرة أنيت.. إنها نظرة تعبر عن الحزن والأسى، فمن المحزن أن يلجأ الشخص إلى مثل هذه الأساليب ليستدر عطف الآخرين؛ فالأطفال الطبيعيون والذين يعيشون حياة سعيدة ليسوا في حاجة إلى مثل هذه الأفعال. وعلى أولياء الأمور الطبيعيين أن يلحظوا مثل هذا السلوك.

والآن أسأل نفسي: لماذا لم ألاحظ هذا على مدى السنين؟ لماذا
أدور متفخرة بآثار جروحي بين الناس - تمامًا مثل مندوب شركة
التأمين - بدلاً من أن أرثي لنفسي.

أرجوك يا أنيت لا تقوليها، فأنا أعلم تمامًا أنني لست قادرة
على الإحساس بذاتي.

سارت حياتي بشكل عادي بل وعدت إلى العمل، صحيح أنه
ليس العمل الرائع والمتميز ولكنها مجرد وظيفة جرسونة في بار مما
يتيح لي أن ألتقي بالناس. يتصور الكثير منا أن التعامل مع الناس
شيء رائع، أما أنا فلا أفضل التعامل مع الآخرين. ولكن للأسف ليس
لي في الأمر خيار؛ فإذا لم أعمل سوف أصاب بالجنون، أو على
الأصح فإنني سوف أصبح أكثر جنونًا، ومن ثم فإنني أقوم بعملتي
ثلاث مرات أسبوعيًا في بار "هيديفيتسكا".

ما أعجب أمر السخرية!، فأنا على يقين أن السخرية ما هي
إلا فضلات الفكاهة القديمة الجميلة. ورغم أن السخرية سهلة فهي
ليست جميلة، والمثال على ذلك: إذا كانت رائحة عرق الشخص نافذة
فنقول له: إيه الروائح الحلوة دي!

السخرية أن تضحك على شيء لا يستحق ولا حتى الابتسام.

إذا كان الإنسان لم ينام نومًا هادئًا طوال الليل ومزاجه معكر
فنقول له: واضح أن مزاجك رائق اليوم.

إذا رأيت شخصاً يرتدي أفضل ما عنده وسألته عن ملبسه
فيرد عليك: لا، هذا هو العادي اللي أنا متعود عليه!
رغم أن السخرية أصبحت شيئاً محبباً إلى الناس، إلا أنها هي
نفسها السبب في أن عملي أصبح أكثر بشاعة.

كان البار الذي أعمل به حتى سنوات قليلة مضت مكاناً يلتقي
فيه رجال كبار في السن وتعماء؛ فقد كان باراً يقع على ناصية تملؤه
سحابة من دخان السجائر وبه تليفزيون يعرض مباريات كرة القدم،
وإذا تجرأ هناك شخص على اختيار خلاف ذلك فإنه يسمع ما
لا يرضيه.

كان هؤلاء الرجال كبار السن الراضون بقضائهم يشربون
البيرة ويلعبون الكوتشينة ويأكلون على مهل بقدر ثبات أسنانهم في
فمهم. كانوا يعاملوننا نحن الجارسونات من البنات بلطف وذوق،
وكانت مداعباتهم صادقة، حتى حينما كان الواحد منهم يصفع واحدة
منا على مؤخرتها فإننا كنا نعلم أنها مجرد دعابة بعيدة عن
سوء النية.

كان البار الذي أعمل به لا يقدم سوى الكعك المملح (بريتسل)
والسجق. لم يكن رواد المقهى كبار السن البؤساء يعتبرون هذه

الأصناف سوى وجبة خفيفة؛ فهم لم يحضروا إلى هنا لمجرد تناول الطعام وإنما جاءوا لتبادل الشكوى، لقد كنت أحب هذه النوعية من رواد البار.

ثم جاء ما يسمى بالسخرية ودمر كل شيء؛ فقد تجمع الشباب في هذا البار لأنهم وجدوا فيه مكانًا عاديًا فاعتبروه مكانًا هادئًا، وبعدها جاءوا في مجموعات واصطحبوا معهم بعض النساء اللاتي رسمن على أجسامهن التاتو، وجاءوا كلهم وجاءت معهم طلباتهم، أصبح البار يقدم مشروبات متعددة مثل الكابوتشينو وغيره من المشروبات، كما أصبح لدينا قائمة للطعام.

وبناء على ذلك، تتحى كبار السن لصالح الشباب الذين يملكون المال وخسرت المشاعر أمام مجتمع السوق الحرة ولكن هذا لا يعني أن كبار السن قد اختفوا من البار، وإنما قلت أعدادهم وأصبحوا يجلسون في الأركان لشعورهم بأنهم أصبحوا أكثر تقدمًا في السن وأصبحوا من سقط المتاع أكثر من ذي قبل.

ولكن الواقع أنهم السبب في بقائي في عملي في هذا المكان، بقيت كي أرى لمعة أعينهم للحظة وأنا أقدم لهم مشروبهم وأن أسمح لهم أن يصفعوني على مؤخرتي.

أستطيع الآن أن أكثف حياتي دون فيليب؛ ففي الاتصالات
المتباعدة بيننا لا يقول سوى:

- كيف حالك؟

- بخير

- وأنت؟

- بخير!

ولا شيء سوى ذلك. أنا لم أعد أفنقده ولا أفنقد العلاقة
الجنسية معه. كل ما أفنقده هو أن يكون هناك شخص بجانبني، يحنو
عليّ، شخص أستطيع أن أنكد عليه؛ فليس أجمل عندي من شخص
لا يفقد أعصابه مهما بلغت درجة إثارتني له. هذا هو تعريفي
للرومانسية؛ فأنا قادرة فعلاً على إثارة أعصاب من حولي. إذا لم
أستطع النوم ليلاً على سبيل المثال فإنني أبدأ في الغناء كي أسلي
نفسي وأسلي النائم بجانبني. أغني أحدث "أغاني التسعينيات".

أنا أتصور تصرف فارس أحلامي في مثل هذا الموقف
كالآتي:

أتصور أنه يبدأ هو الآخر في الغناء معي بل ويحضر آلة نفخ
موسيقية ويبدأ العزف عليها، أنا فعلاً أفنقد مثل هذا الشخص.

عندما أكون في المنزل وأفكر في أهم ما في الأمر فأقول في نفسي: إنه لا يمكن أن ينتظر الشخص شخصاً آخر لا يعرفه، يأتي ليطرق بابه دون أن يعرفه. لذلك فمن الضروري أن أخرج إلى الناس وأن أعيش بينهم، وهذا ما أكرهه.

لست من الأشخاص الذين يحبون الخروج فأنا لا أشرب ولا أرقص، فلم يعتد أحد أن يراني في أي ديسكو إلا وأنا أشرب مشروباً طفولياً بجانب ساحة الرقص، بينما أراقب الراقصين وأحاول أن أحلل شخصياتهم.

إذا كانت مراقبة الراقصين منذ عشرات السنين تشكل أمراً جميلاً وجديراً بالتقدير فإن الأمر اليوم قد اختلف ولم يصبح أحد ينظر إليهم ولا يعيرهم أي اهتمام ولا يسلط عليهم الضوء، بل أصبح هؤلاء الذين يتمايلون فوق حلبة الرقص هم الأهم وهم من تسلط عليهم الأضواء، أصبح المتفرجون تماماً كمشاهدي عروض الإسترينيتيز: يسمح لهم بالمشاهدة ولكن لا أحد يراهم.

لذلك لم أعد أذهب إلى هذه النوادي أو الديسكو، بل اتجهت إلى أصدقائي القدامى العاملين في وكالات الدعاية والإعلان.. كان على أن أطرق الأبواب أولاً ثم أقوم ببعض الدعاية لنفسى. حتى

يمكن أن توجه لي الدعوة لحضور بعض الحفلات التي تنظمها الوكالات.

وحيث إن الود بين العاملين في هذا المجال يتسم بعدم الثبات فإن الرد يجيء كالآتي:

- أهلا يا كارو، جميل أن أسمع صوتك! كيف حالك؟ أنا أسفة لن يمكنني أن أضحك على قائمة المدعوين هذه المرة؛ لأن عددهم كبير جدًا بعد أن أعلن توماس جوتشالك^(*) أنه سوف يكون ضيفاً على الحفل. لك أن تتصوري أن الجميع يريد الحضور ليراه.

الحقيقة لا يمكنني الآن أن أتصور أي شيء، عموماً لست في حاجة إلى الذهاب إلى هذا الحفل كي أتفاخر بعد سنوات أمام أحفادي أنني تعرفت على جدهم في هذا الحفل وفي وجود هذا الممثل!

تماسكت وقلت لها في شجاعة:

أشكرك على كل حال، تحياتي لجميع الزملاء، لو احتجت لي معك رقم تليفوني.

(*) توماس يوحنا جوتشالك: واحد من أشهر مقدمي برامج المنوعات في الراديو والتلفزيون الألماني. قام بتمثيل بعض الأدوار. من أشهر البرامج التي قدمها في التلفزيون الألماني برنامج "تراهني".

وضعت السماعه وصفعت نفسي، فالحقيقة أنني أستحق هذه الصفة؛ لأنني لن أكرر هذا الكلام الفارغ مرة أخرى ما حييت. وقبل أن أستمر في ضرب نفسي تلقيت اتصالاً تليفونياً من نيلسون:

- كيف حالك يا جميلة؟ يا ترى ما زلت تتوحيين طول النهار؟
واللا ممكن أخرج معك وسط الناس؟

- بالعكس يا طرزان، أنا زى الفل وفي أحسن حال، كل ما هنالك أن عندي هزالاً شديداً لدرجة أنى لو لبست بلوفرًا بكولة عالية لن يستطيع أحد أن يرى صامولة رقبتى.

- إذن، اغسلي وجهك وارتي ملابسك كي تذهبي معي إلى حفل ممل للقناة التي أعمل بها، ستشاهدين هناك أناسًا سخفاء، ولكن لو حظك حلو ممكن أن تكسبي جائزة "منتج الشهر".

سألته:

- مساحة البلاط؟

- لا، أحسن قليلاً!

- قطاعة الفاكهة لعمل أشكال جميلة؟

- لا، أحسن!

- هات ما عندك، بدأت أتوتر، يعني أذهب إلى الحفل وأكسب شيئاً بلا قيمة؟

- يا كارو أنت طبعاً تعرفين أنني لا يمكنني أن أقرر من يكسب الجائزة.

ارتديت ملابسني واجتهدت لأول مرة منذ شهور أن أتجمل في حدود مظهري المتواضع. أخذت حماماً واستخدمت الكريمات والمساحيق وصففت شعري ووضعت ماكياجاً جميلاً لعيني، ورسمت شفتي واستخدمت أحمر الخدود؛ بحيث أصبحت أبدو في صحة جيدة وأشعر بانعاش.

أخذت أجرب أنواع العطور المختلفة ولم أخش أن أرتدى حذاءً عاليًا. شعرت بأن جسمي في حاجة إلى أن يشعر بنفسه وأن يمضي هذه الأمسية دون أن يحس بأنه يدار من مركز تشغيل معطوب.

اصطحبني نيلسون في تاكسي وأثناء السير قال لي:

من فضلك تبكي حتى أتأكد أنك أنت كارو فعلاً!

أسعدتني المجاملة وشكرته، وحاولنا أن نسلى أنفسنا أثناء الجلوس في التاكسي فقمنا بتمثيل مشهد الفراق بين حبيبين حتى

وصلنا إلى مكان الحفل، فغادرت التاكسي وأنا أمثل أنني غاضبة وأقول لنيلسون بصوت مسموع: إنني لن أنسي له علاقته مع أمي.

دفع نيلسون لسائق التاكسي النقود، بينما كان السائق يتسهم بسبب ما سمع منا أثناء السير.

قال لي نيلسون: إنك عدت لما كنت عليه سابقاً.

قلت له وأنا أشعر بالزهو: هذا ما لا أتمناه، ما زالت الأمور تسير على ما يرام.

تتسم الشخصيات التي تعمل في التلفزيون بالمرح؛ لديهم دائماً الكثير من المفاجآت: فحفل اليوم لم يُقَم على سطح المبنى أو في الكافتيريا الملحقة به وإنما في الاستوديو ذاته الذي يتكون من مساحة شاسعة كلها مكسوة باللون الأسود ومقسمة إلى ستة مناظر مختلفة: مطبخ، حجرة نوم، حمام، وحجرة للاحتفال بأعياد الميلاد. المكان بأكمله عبارة عن شقة ولكنها دون حوائط فاصلة. يوجد فقط خلف كل منظر من هذه المناظر نافذة ومنظر خارجي يطل على جبال كندا وعلى مدينة نيويورك وكذلك مجموعة بحيرات ميكانيبورج الألمانية.

سألت نيلسون:

- كم يبلغ إيجار هذه الشقة؟

- بالتدفئة أو دون؟

- لا، بالتدفئة، وهل يمكن استئجارها مفروشة بنفس هذا الأثاث؟

- ممكن أسأل المستأجرة السابقة. ولكن لا أتصور أن تكون لديها مشكلة بسبب الأثاث! متى ترغبين أن يبدأ الإيجار؟
قلت له وأنا أتهدد:

- لو علىّ أنا وزوجي ممكن نُحضّر فوراً، هذه الشقة مذهلة، ولا في الأحلام!

وألقيت نفسي في الكرسي الكبير المريح ثم سألت نيلسون:

- ما لزوم حجرة الاحتفال بأعياد الميلاد ونحن ما زلنا في الخريف؟

- الحقيقة أننا نعرض فيها منتجات أعياد الميلاد التي أرسلتها الشركات العارضة منذ شهور. وعلى فكرة، هذا أفضل بكثير؛ حتى لا يزيد الزحام في فترة ما قبل الأعياد.

لاحظت من أسلوب حديث نيلسون أنه أصبح أكثر جدية في الحديث، وهذا ما أعرفه عنه عندما يتحدث في موضوعات تخص عمله؛ أعتقد أن ذلك هو سبب نجاحه في عمله، فمشاهدو الإعلانات

لا يفضلون مقدم البرامج الممل والروتيني، لو كان الأمر بيدهم لاختاروا المذيع الشهير جونتر ياوخ^(*). وحيث إن هذا غير ممكن فإن البديل هو أن يشبه المذيع عريس الأحلام لابنتهم أو هذه على الأقل هي النظرية التي أفسر بها الأمر، ومن ثم فإن نيلسون خير من يكون عريس الأحلام، طلبت من نيلسون بإلحاح أن يصاحبني لمشاهدة المنظر المعد والمخصص له. ربما أثار طلبي أعصاب نيلسون ولكن كوني في أستوديو حقيقي كان بالنسبة لي بالفعل أمراً مثيراً جداً، ولو كان الأمر بيدي لطلبت أن أقوم بتصوير مشهد في كل منظر من هذه المناظر. تفهمت تأجيل نيلسون الاستمرار في المرور معي على مناظر الأستوديو؛ لأنه كان مشغولاً بتحية رؤسائه وزملائه. أخذت أنا في هذه الأثناء أتجول في المكان، وجدت المناظر قد صممت مثل أسواق أعياد الميلاد، أما منتصف القاعة فترك خاليًا. أتصور أنه المكان الذي توضع فيه الكاميرات والمكان المخصص لعمل الماكياج ولجلوس المخرجين الذين يصيحون ويقومون بإخراج الأفلام.

(*) جونتر ياوخ من مواليد عام (١٩٥٦): يعتبر مقدم برامج المنوعات الأشهر في ألمانيا، يحصل اعتباراً من ١٩٨٨ وحتى ٢٠١١ على جوائز في هذا المجال. وصل إلى قمة نجاحه من خلال برنامج "من سيصبح مليونيراً؟" الذي يقدمه اعتباراً من سبتمبر ١٩٩٩.

أما الآن فقد تم تخصيص وسط القاعة لوضع البوفيه الذي
التف حوله الضيوف، فلا أحد يتجول الآن بين المناظر المختلفة.

ومن ثم فقد استخلصت من ذلك - أنا وبصفتي "شارلوك"
هيرمان - أن جميع الموجودين في هذا المكان هم فريق العمل. أتصور
أنهم جميعاً قد تجولوا في المكان بما فيه الكفاية وجلسوا في حجرة أعياد
الميلاد وأمسكوا باللمبات الملونة المعلقة في شجرة عيد الميلاد.

تصورت أن يكون من غير اللائق أن أجلس في الحمام على
المرحاض وأن أستخدم ورق التواليت في إصلاح أحمر الشفاه على
فمي، ولكنني رفضت الفكرة بسرعة عندما وجدت شخصاً قد سبقني
إلي هنا ويجلس بالفعل في البانيو بجانبني.

قال لي:

- لا أعتقد أن العلاقة بيننا قد وصلت لدرجة تسمح لنا أن
يقضى الواحد منا حاجته في وجود الآخر!

جاء ردى من وقع المفاجأة تلقائياً، فقلت له:

- طالما أنك لم تضع قواعد لاستخدام فرشاة تنظيف
المرحاض فليس هناك مانع من استخدامي له حتى لو كان الباب
مفتوحاً.

وبعد أن فكرت مليًا فيما قلت، عرفت أن سرعة الرد ليست دائمًا هي الأفضل، فمن أدراني؛ لعلّي الآن قد أخرجت مدير القناة نفسه.

ابتسم الرجل ابتسامة ساخرة وفتح أزرار قميصه. الواقع أنني أمقت الرجال الذين يفتحون أزرار قميصهم؛ لأنني أرى في ذلك حركة رجالية يريد بها الرجل أن يظهر مدى أهميته ويريد في ذات الوقت أن يبدو بعيدًا عن التكلف، ثم يطلب من ربه أن يغض النظر عن ذلك ويقبل اعتباره رجلاً محترمًا. في رأيي أن القميص الرجالي وجد ليكون مقبول الأزرار كلها، ومن لا يقدر على ذلك فليفضل بارتداء تي-شيرت أو ما أشبه.

بينما أنا على وشك الانتهاء من قضاء حاجتي فإذا بي ألاحظ أن الرجل الذي أمامي قد بدأ في فتح باقي أزرار قميصه بل وخلعه. تسمرت في مكاني من وقع المفاجأة حين وجدته يخلع البنطلون ويستلقى بملابسه الداخلية وحذائه داخل البانيو. ثم بدأنا في تمثيل أدوارنا؛ حيث إنني رأيت أنها فرصة للتسلية.

- مضت أربع سنوات على زواجنا ولم نلتق في البانيو حتى الآن.

- لا نواخذني، لقد بدأت أشعر بالصداع مرة أخرى، لذلك سوف أستلقي على السرير بملابس النوم.

اتجهت بخطوات كلها أنوثة نحو السرير وألقيت بنفسي عليه،
تبعني الصديق الجديد بملابسه الداخلية وألقى بنفسه هو الآخر على
السرير قائلاً:

- صداع، صداع، كم مرة سمعت منك هذا العذر أيتها البلهاء!

بدأنا نراقب الموجودين في المكان كما لو كنا نشاهد برنامجاً
تليفزيونياً مملأً. لم أعرف عن زوجي الجديد سوى أن اسمه ديفيد. لم
يسأل أحد منا الآخر عن عمله أو عن سبب حضوره هذا الحفل ومن
الذي دعاه إلى هنا، فيما أننا قد تزوجنا منذ أربع سنوات فلا مكان
لهذه الأسئلة. ولما بدأنا نشعر بالملل خلال الحفل فقد أخذنا نتنقل من
منظر إلى منظر ونقوم بدور مقدمي البرنامج. أطلقنا على أنفسنا اسم
جاك وبوب ما عدا في غرفة المعيشة: فقد أصبح اسمانا ديانا وبوب.
وحيث إن اسم جاك لا يستطيع إقناع المشاهد بشراء هذه العرائس
الجميلة المصنوعة من البورسلين، فقد قمت أنا ديانا بهذا الدور.

أخذنا أنا وديفيد الموضوع مأخذ الجد، واجتهدنا في توصيل
العروض المقدمة من القناة للمشاهد؛ منها على سبيل المثال أنواع
النسيج الجديدة المستخدمة في صناعة فرش السرير والمادة الحيوية
الجديدة المنظفة للأفران المنزلية.

وبينما ديفيد يحاول مساعدتي أن يعرض على المشاهد المتخيل كيف يقطع السكين الجديد اللحم ويقول: انظروا يا سادة كيف يمر السكين خلال أنسجة اللحم مثلما يمر في الزبد تمامًا. وبينما هو يقول ذلك مر أمامنا نيلسون. ونظر لي النظرة المتفقد عليها بيننا: هل أنت بحاجة إلى أن أنقذك مما أنت فيه؟

فهم من إيمائي برأسي أنني أقول له: شكرًا يا صديقي، الأمور تسير على ما يرام، اذهب وأكمل ما كنت تفعل؛ فأنا مشغولة بالعرض الحي الذي أقدمه.

شعر نيلسون بالرضا وذهب للحديث مع أحد ضيوف الحفل. ففي مثل هذه المناسبات تكون الفرصة متاحة لعمل علاقات والتعارف على أشخاص جديدة. عرفت من احمرار خدود نيلسون أنه قد شرب عددًا لا بأس به من الكؤوس، إذن فالأمور تسير على ما يرام.

وأخيرًا وبعد سباق الإعلانات الذي دخلته مع ديفيد وصلنا معًا إلى حجرة الاحتفال بأعياد الميلاد، فقال لي:

- سأذهب لأحضر مشروبًا، هل أحضر لك أنت أيضًا أي

مشروب؟

شكرته قائلة:

- لا، شكرًا، فالكحوليات تتعارض مع أدوية الاكتئاب التي أتناولها، وكذلك أفضل أن أبقى في وعيي وقت إجراء قرعة التومبولا.

تركت له أن يفهم ما أعنى مما بين السطور، فرد على قائلاً:

- لن أشرب إلا كوبًا من الماء، فالأدوية التي أتناولها تتعارض مع كل شيء.

أنا أحب هذا النوع من السخرية التي لا يمكن فك شفرتها. حان الوقت للانصراف، خاصة وبعد أن شرب نيلسون للثمالة ولم يعد قادرًا على الحديث عن العمل. وبعد أن استمتعت بالعمل المتخيل مع ديفيد الذي وصل في نظري إلى مدهاه. لذلك تبادلنا أرقام التليفون واتفقنا أن نحدد موعدًا فيما بعد لنلتقي مرة أخرى أو نذهب معًا إلى السينما. ثم قال لي بمرح:

- الواضح أنك سوف تعين في حبي وتتعذبين به!

أجبت قائلة: يمكن.

لم أكد أصل إلى المنزل حتى وصلتني من ديفيد رسالة قصيرة تقول: موافق، أنا مستسلم وسوف أبدأ أنا بالاتصال!

فرحت بالرسالة وكتبت الرد:

- تصورت أنك لن تتصل أبدا!

ثم أغلقت التليفون وخلعت ملابسني. تصورت في هذه اللحظة أنني أنثى مثيرة، فلم أخلع حذائي ذا الكعب العالي وأشعلت سيجارة المساء.

فرحت بنفسني بعد نجاحني في أول مرة أخرج فيها إلى العالم الخارجي، لقد استمتعت بالليلة وتعرفت على ديفيد. ورغم ذلك فأنا أعرف نفسي جيدا بحيث أستطيع ألا أسوء تفسير أي خلجة أشعر بها، ولكنني عشقت فكرة أن أكون في حالة عشق.

رأيت بصيصًا من النور يدخل من أسفل الباب الذي يفصلني عن الحياة العادية.

إذن فقد بدأت أحسس الدرجة التالية من سلم الأمل وأتمنى ألا أتعثر على السلم الصاعد إلى السماء.

- دخلت إلى السرير لأنام بعد أن أصبحت تشبيهاتي خانقة.

أردت أنا وديفيد أن نلتقي قبل الموعد الذي سبق أن حددناه، فالتقينا لنتناول الطعام معًا. بدا الأمر صعبًا علينا أن نلتقي خارج الأستوديو؛ فديكور المطعم الذي التقينا فيه يختلف عن ديكور غرفة الطعام التي استخدمناها في الأستوديو.

جلسنا متقابلين وبدا كل منا متصلبًا، تمنيت أن تكمل قصة الأستوديو ونصبح مرة أخرى جاك وبوب، ولكن أعتقد أننا لو بدأنا في هذه القصة فسوف نستمر طوال الأسمية على هذا المنوال؛ لذلك فعلياً أن نكون شخصين ناضجين وأن نبدأ الحديث عن أنفسنا.

سأل ديفيد: أليس من الأفضل أن يلقي كل واحد منا سيرته الذاتية على الآخر بحيث ننهي هذه الفقرة؟

بدأ هو يحكي عن وظيفته فتحدثت عن شيء له علاقة بالتلفزيون فلم أنصت إليه بدقة، ثم تحدثت عن أسرته؛ عن أبيه وأمه وشقيقتيه.

ثم لخصت له قصتي ووظيفتي وكذلك أسرتي ومشكلة حالتي النفسية، فلا داعي أن أخفي شيئاً؛ لأنه سوف يعرف كل شيء بنفسه عندما نعيش معاً. سألتني:

- ما نوع الدواء الذي نتناولينه؟

- سيتالوبرام.

- وأنا أيضاً، هي نفس المادة الفعالة ولكن اسمها سيبراميل.

بدا لي أن هذه اللحظة مناسبة لأسأله إذا ما كان يتصور أن يكون له منى أولاد. مجرد فكرة خطرت ببالي! بدت لي فكرة أن نتناول معاً الدواء نفسه كل صباح فكرة رومانسية للغاية. سألته بحماس:

- لماذا تتناول عقارًا ضد الاكتئاب؟

بدأ يحكي لي عن نوبات الخوف التي تتابه وعلاقته المتوترة مع فتاة بلهاء، وكذلك حكي لي عن فكرة لا معقولة تسيطر عليه فتجعله يتصور أنه إنسان كتب له الخلود.

تنتاب ديفيد نوبات خوف ويتصور أنه سوبرمان. ما أجمل ألا أكون وحدي في هذا العالم الواقع بين الحياة اليومية العادية وبين مستشفى الأمراض العقلية! يبدو أن هناك الكثير من الناس يعيشون بين سادوم وعامورا^(*).

لا يمكن اعتبار ديفيد مجنوناً فهو شخص عادي ولكن لديه شيء ما يمكن اعتباره من قبيل الإكسوار.

بذلك نكون قد انتهينا من جزئية سيرتنا الذاتية... ثم غادرنا المطعم ثم.. ثم ماذا بعد؟ لذلك اقترحت أن نذهب في رحلة ليلية إلى المناطق المحيطة وأهمها البحيرة. ومن ثم توجهنا بالسيارة في هذا الاتجاه وبدأنا الحديث الذي لم ينقطع طول الطريق. كنا نتحدث في

(*) سادوم وعامورا: بحسب ما جاء في القرآن والعهد القديم هي مجموعة من القرى التي خسفها الله بسبب ما كان يقترفه أهلها من مفاصد وفق ما جاء في النصوص الدينية. القصة مذكورة بشكل مباشر وغير مباشر في الديانات السماوية الثلاث الإسلام والمسيحية واليهودية. يعتقد كثير من الباحثين وعلماء الدين أن القرى التي خسفها الله تقع في منطقة البحر الميت وغور الأردن.

الوقت نفسه فكل واحد منا يريد أن يكون له السابق، فكان الواحد منا يقاطع الآخر للحديث في موضوعات شتى. انتقلنا من موضوع إلى آخر لدرجة جعلتنا غير قادرين على متابعة ما نقول. عندما وصلنا إلى البحيرة اكتشفنا أنها لم تكن هدف الرحلة، فهدف الرحلة الأساسي كان هو الطريق إلى البحيرة. ألقينا نظرة على البحيرة ثم ركبت السيارة كما لو كنت أريد أن أسير وحدي وأترك ديفيد. ضحك ديفيد عندما شرحت له فلسفتي في السخرية: فأنا أرى أن الدعابة الجيدة يجب أن تستمر إلى أن تصل إلى نهاية مرة ومؤلمة، وقتها ستكون دعابة جيدة فعلاً.

أوما ديفيد برأسه موافقاً، فأخذت أكمل له فكرتي بالتفصيل:

- أقصد أنني كنت سوف أتركك هنا وأمضي في طريق العودة. لم يكن في نيتي أن أسير مسافة مائة متر وأعود إليك، إنما كنت سأعود فعلاً إلى المنزل بدونك. وقتها فقط كانت الدعابة ستكون دعابة بمعنى الكلمة.

رد ديفيد قائلاً: صحيح، صحيح فعلاً، وأؤكد لك أنني لم أكن سأغضب إذا فعلت ذلك. فالدعابة كانت تتطلب فعلاً أن تفعل ذلك.

فهمت من نبرة صوته أنه كان يعني ما يقول فعلاً.

قلت له: هل تحب أن تبيت عندي الليلة؟ أقول لك عندي وليس معي. أريدك فقط بجانبني لا أكثر ولا أقل حتى نستغرق في النوم.

فكر ديفيد ملياً ثم قال: لن يمكننا هذا ما حيننا.

ابتسمت وقلت: ربما! ولكني أريد أن أفعل ذلك وأن نتفق على هذا الشرط، لا جنس على الإطلاق. أن تكون فقط بجانبني، ما رأيك؟

قال ديفيد: موافق!

فقلت له: وأنا موافقة!

أمر غريب فعلاً أن تكون مع شخص جديد عليك في السرير! أن تكون بجانبك رائحة جديدة ودفء جديد. لقد اكتشفت أن كل شخص يشع دفئه الخاص في السرير، لا أقصد أن هناك شخصاً أبرد من شخص، الفرق هو نوع الدفء فهو يختلف من شخص لآخر كما لو كان الدفء ضوءاً متعدد الألوان أو ما شابه. المهم أن دفء ديفيد يختلف عن دفء فيليب، وهذا ما يعجبني!

استلقي ديفيد بجانبني ولم نشعر لا أنا ولا هو بأي نوع من التكلف أو التشنج، فال اتفاق بيننا جعل الأمور تسير بسلاسة. فبدأنا نتجاذب أطراف الحديث ونحكي بعض النكات والدعابات، وأخذنا نتذكر بعض خواطر الماضي دون أن يذهب تفكيرنا تجاه الجنس. كنت أمسك بيد ديفيد ونحن مستلقيان على ظهرينا. تبادلنا الكلمات والدفء أيضاً. كم هو إحساس جميل!، لذلك قررنا ألا ننام؛ فالنوم هنا يعتبر

تبديلاً للموارد الطبيعية. استمررتنا في تبادلنا الحديث كي نجد سبباً لتبادل الدفاء، عندما كنت أغفو كان ديفيد يصيح بصوت عال:

- إيه؟ هل نمت؟

فأضطر أن أضحك. وإذا غفا ديفيد كان يسأل نفسه: إيه هو أنا

نمت واللا إيه؟

لم يكن هو أيضاً يريد أن يبدد الوقت.

عندما بزغ النهار بدأ ديفيد يحرك الخاتم الذي أضعه في

إصبعي ويسألني: ما هذا؟

- ألا ترى؟ إنه خاتم يا أبله!

- مفهوم طبعاً! ولكن هو كبير كده ليه، إنه في حجم رأسك!

بينما أنا أحكي له حكاية ماما والخاتم أخذ ديفيد يتحسس

ذراعي ثم ظهري ورقبتي. وبينما هو يفعل ذلك صدرت مني تهيدة

ما كنت أقصدها، فاستمر ديفيد يتحسس جسمي بينما أنا أحدثه حديثاً

منقطعاً. ثم، ثم، صمت تماماً وأخذت أتنفس بعمق.

لم يسأل أحد منا الآخر إذا ما كان قد راح في النوم؛ لأننا لم

نكن قد نمنا فعلاً.

لم نتحدث عن اتفاقنا السابق ولا أننا قد أخللنا به، لقد حافظنا عليه قدر استطاعتنا، ولكن ما باليد حيلة.

بدأنا نتبادل القبلات وإن لم يكن التجانس موجودًا في البداية، إحساس جميل أن يلمسني وأن ألمسه، حتى لو لم أكن بالصورة التي يجب أن أكون عليها؛ فهذا هو أول لقاء حميمي بيني وبين رجل بعد فيليب وبعد الأزمة التي مررت بها.

أقول: إنها كانت أول مرة بعد ما أطلق عليه اسم الحادي عشر من سبتمبر الخاص بي أنا شخصيًا.

عندما انتهينا أخذت في البكاء، فأنا أعرف نفسي جيدًا، ربما كان السبب أنني أشعر باسترخاء حتى أن عضلة قناة الدموع استرخت هي الأخرى وسالت، خجلت من نفسي؛ فأنا لا أريد لرفيقي أن يجهش بالبكاء بعد لقائنا؛ فبعض الرجال يخاف أن يكون قد جعل رفيقته تتألم أثناء المعاشرة. الواقع أن من لا يشعر أثناء اللقاء ببعض الألم، فإنه يستحق أن يبكي بعده. وهذا ليس الحال بالنسبة لي.

ولما كان ديفيد يعتبر نفسه سوبرمان فلم يتصور أنه أوجعني، فما كان منه إلا أن احتضنني؛ فحيث إنه سوبرمان الاكنتاب فقد فهم الأمر جيدًا، أتمنى أن أفهم أنا أيضًا.

استيقظنا في الصباح وبقينا بعض الوقت في السرير نتبادل دفع الفراش.

وبمجرد أن تركنا السرير أصبح ديفيد في السرير يختلف تماماً عن ديفيد في الصباح. فأخذ يحكي النكات والدعابات إلا أنني لم أكن قد وصلت لهذه الدرجة من الاستيقاظ فما زلت على المستويين الداخلي والخارجي أشعر بالدفء والنعومة.

أخذ ديفيد يقول لي إن التأتو المرسوم على بطني يشبه خريطة مقاطعة ميكلن بوج الألمانية، ثم أخذ يمسك ببعض الأشياء من الشقة ويضعها على مستوى أعلى بكثير من أن أستطيع الوصول إليه إلا باستخدام السلم الخشبي.

بدأ يراجع رسائله الإلكترونية ويضحك على بعض ما جاء فيها.

أما أنا فقد كنت مضطربة ومرتبكة وأبحث عن دفء جسم آخر أحتمي به. أمسك ديفيد مؤخرتي وابتسم بسخرية قائلاً: هل يضايقك لو أنني لمستك؟ ثم أرسل لي قبلة في الهواء وخرج.

بقيت في المنزل وأنا أشعر بالمباغثة. الآن أستطيع أن أتفهم سبب وقوع النساء في الحب بعد أي لقاء حميمي أو على الأقل عدم قدرتها على التحول بسرعة؛ لذلك بقيت في المنزل وأنا مستمرة على هذه الحالة.

على مدى اليوم وصلنتي من ديفيد رسالة على الهاتف المحمول تحمل رسم خريطة لمقاطعة ميكلن بوج، أعتبر هذا في

عالمي الخاص بمثابة الاعتذار، أو ربما الاعتراف لعله يكون ارتباطاً!!.. إذن أعتبر أنه بذلك قد صالحني.

في اليوم الذي حددناه لنذهب إلى السينما ذهبنا بالفعل؛ إذن فهو موعد ثانٍ بيننا. تبادلنا التحية بفتور فساعدنا أنفسنا بالنكات للتغلب على الموقف المتوتر. أشعر بالقلق وعدم الثقة لأنني لم أكن أعرف حقيقة مسمى العلاقة بيننا ولا ما يجب علينا أن نفعله الآن.

داخل السينما سألت ديفيد ماذا يفضل: أن أجلس على يمينه أم عن يساره؟ فقال لي: أفضل أن تجلسي على رجلي. وجد العصفور الصغير الذي سقط حديثاً من العش - الذي هو أنا - في هذه الكلمات رقة ولطفاً، ومن ثم وضع علامة جديدة في خانة: أتعرف أنني سلمت له.

لم يكن الجلوس على رجل ديفيد مريحاً ولكنه أخذ يمسكني بقوة ويضمني حتى أنني لم أستطع التنفس، أخذ ديفيد يتحسس جسمي ويقبطني ويكثر من الأحضان.

هنا وضعت علامتين في قائمتي. وكتبت: بداية الاقتراب من العلاقة الحميمة.

عند منتصف الفيلم جلست بجانب ديفيد. تشابكت أيدينا وضبطت ديفيد أكثر من مرة وهو يتأملني فبادلته النظرات ولكنني

كنت متماسكة وقلت له في نفسي: ببساطة هكذا، هل تتصور أنني يمكن أن أقع في غرامك؟

أمضينا الليلة في شقة ديفيد وكررنا في الصباح طقوس الصباح الباردة، ديفيد يلقي دعاياته بينما أنا في مرحلة عدم توازن.

ذهبنا لتناول الإفطار، والتقينا بصديقين لديفيد فتناولنا إقطارنا نحن الأربعة؛ أخذت أسمع ما يقوله الأصدقاء بينما أنا منشغلة في التفكير في موقفي. حاولت أن أبدو لطيفة، فأنا بالفعل مرحة وذكية. وددت لو أنني قلت لأصدقاء ديفيد: أنا لن أنكب عليه وأسعى وراءه، اسمعوا وعوا مدى الوعي الذي أتمتع به، فأنا أعرف صديقكم جيدًا. ربما كانت للأخريات قصص حب فاشلة معه، أما أنا فلن يحدث ذلك معي.

تبادلنا أطراف الحديث وضحك ديفيد معنا جميعًا. بدا مسترخيًا وودودًا معي ولكنه ليس قريبًا مني. يبدو أننا التقينا في الماضي ربما أثناء الدارسة أو في محطة بنزين!

بعد أن انصرف أصدقاء ديفيد قلت له: وبعدين؟

فقال بإصرار: أريد أن أمضى وقتًا أطول معك؟ أنا أتمتع بالوقت الذي نمضيه معًا. هل تمنعين أن نبدأ عمل أي شيء معًا؟

اندهشت من كلماته وسعدت بها.

أهلاً بعودتك أيتها التوقعات وأيتها الأحاسيس. هلم بنا جميعاً
لنمضى اليوم معاً.

وذهبنا معاً لنمضى اليوم مع ديفيد.

ذهبنا إلى المتحف لرغبتنا في مشاهدة التاريخ الألماني، بدأنا
ونحن في جناح القرن الثاني عشر نتبادل القبلات ولم نستطع أن
نبتعد عن بعضنا البعض. كنا نتعاقق لدرجة أنني شعرت من شدة
ضم ديفيد لي كما لو أنني أحاول الصعود إلى قطار مزدحم، ثم جلسنا
على الأرائك الموجودة بالمتحف وأخذنا نتحدث عن أمراضنا وعن
طرق تفكيرنا ومدى الارتباط بينها. عندما كنا نشعر بجفاف حلقياً
كنا نتبادل القبلات. وحيث إننا كنا طوال الوقت متعاققين فلم نتقدم في
مشاهدة أقسام المتحف إلا حتى القسم المخصص للقرن السادس عشر
من تاريخ ألمانيا. بعدها طلب منا العاملون مغادرة المكان، لقد حان
وقف إغلاق المتحف.

رغم أن الجو خارج المتحف كان بارداً ورطباً فإنني كنت
منتشياً وأشعر بالدفء، فقد كنت أشعر أنني عدت إلى عش دافئ
وآمن. لقد كنت ثمة من شدة السعادة.

سرنا معاً في شوارع المدينة بلا هدف محدد، وكنت أحاول
أثناء السير جاهدة أن أوجه حديثنا نحو توعد ديفيد لي بأنني سوف

أقع في حبه، فسألته: لماذا تعتقد أنني سأقع في الحب؟ لماذا لا تكون أنت؟ ربما لا أحد منا أو ربما كلانا؟

رد على ديفيد باستسلام أكثر منه فخراً: لأن هذا هو الحال دائماً.

قلت له: يا سلام!! ألم تقع في الحب ولو مرة واحدة؟

رد قائلاً: ليس في السنوات الأخيرة على الأقل، فحياتي مرتبة لدرجة لا تسمح بذلك.

بادرته بصوت رزين وأنا أتصور أنني أشير إلى نفسي: هذا تخريف، المهم أن تختار الإنسانية الصحيحة!

رد قائلاً: - هذا ما تصورته! أنتن أيتها النساء تعتقدن دائماً أنها لا بد أن تكون هي الشخص الصحيح!

سألته: - وأنتم يا معشر الرجال تتصورون أننا نحن النساء نقع في حبكم في التو. أليس لنا الحق أن نكتشف ذلك بأنفسنا؟

كنت على قناعة كاملة أنني لن أقع في الحب، فأنا على أقصى تقدير مبهورة بديفيد لأنني أعرف أن ذلك يأتي على ثلاث مراحل: الانبهار ثم الدخول في حالة حب وفي النهاية تجيء علاقة الحب. لم تعد نبرة ديفيد تتم عن المرح وهو يقول:

تخدعن أنفسكن بتصوركن بأنكن محصنات، ولن تتخطين مرحلة الانبهار، إلى أن تكتشفن أنكن قد تخطيتن هذه المرحلة. وقتها أكون أنا ذلك المغفل الذي لم يكتشف في الوقت المناسب أن الأمور تسير في الاتجاه المحتوم، وهذا ما لا أريده.

بدا لي ديفيد متوترًا بسبب ما مر به من تجارب، لدرجة شعرت معها أن تجاربه أصابتنى أنا شخصيًا بالتوتر. فأنا لا أريد أن أعرف مع بداية الفيلم أن بروس ويليس سوف تموت وتختفي؛ فلكل واحد منا الحق أن يكتشف النهاية بنفسه ولا تقدم له جاهزة مسبقًا. فالمخاطرة هي التي تكسب الحياة الإثارة، فلا أحد يعرف إذا كان سوف يربح أم يخسر. فأنا لا أعرف كيف سستسير الأمور مع ديفيد؟ هل سأقع في حبه؟ هل تناسب بعضنا خاصة وأن نبوءة ديفيد قد أفقدتني القلق الجميل الذي يجعلني أكتشف الأمر بنفسى وتقلل من قيمتى؟ بل إنها تجعل التنبؤ بتصرفاتى أمرًا سهلاً.

قال لي: - لا أتصور أن يكون بيننا ارتباط!

ثم أضاف محاولاً تخفيف وطأة كلماته ولكنى لست بالغيبية أو الساذجة:

- لست متأكدًا بالطبع، ولكن هذا هو حالى عند كل تجربة عاطفية أدخل فيها؛ فأنا لا أرغب عند كل علاقة أدخل فيها أن تكون

صدمة صديقتي كبيرة، لذلك أنهى العلاقة في الوقت المناسب وقبل أن يصاب أحد بأذى.

أخذت أفكر في كلماته بينما نحن نسير متشابكي الأيدي، ولكنى أعتقد أن المفروض أن أترك يده الآن؛ لأنه محق فيما قال. المفروض أن أركض بعيدًا عنه قدر استطاعتي. فهذا الأمر لا يحمل لي خيرًا. ولكنى وإحباطًا للحق أقول إنني أستمتع بالتجربة ربما لأنها سوف تجعلني أغلق الباب على علاقتي بفيليب؛ لذلك قررت أن أختار طريق الشجاعة فقلت لديفيد:

- أعلم جيدًا أنني يمكن أن أسقط من ارتفاع عال وتكون صدمتي كبيرة، ولكنى أعلم أيضًا أنني أنا التي قررت أن تصعد عاليًا. فأنا أدفع ثمن شيء يستحق التضحية، هل تفهمني؟ هكذا تكون الحياة بما تحوى من إثارة. صحيح أن الإنسان الذي يعيش بعيدًا عن الإثارة يبقى بعيدًا عن أي مشاكل، ولكنه في ذات الوقت لا يحصل على شيء بناتًا. وأعتقد أنه من حقي أن أعيش التجربة طالما أنني على استعداد لدفع الثمن.

لم يتفق على رأى في هذا الموضوع، ولكن ربما كان الوقت ما زال مبكرًا للحديث في هذا الموضوع ومناقشته. في الواقع إنني لا أعلم بعد ماذا أريد، لكنى في الوقت ذاته لا أتحمّل أن يُسلب منى القرار.

جلسنا في سيارتي وأخذ ديفيد يمسح على رأسي ثم قبلني، ونحن نسمع صوت الموسيقى عاليًا. بينما أنا أفكر أن أقترح على ديفيد أن أوصله إلى بيته إذا به يقول لي: دعينا نذهب إلى أي مكان لنأكل معًا. وحيث إن توقعاتي لم تتعدَّ - حرصًا مني - النزهة معه وزيارة المتحف والتي قمنا بها بالفعل، فقد رحبت بالفكرة بشدة فأومأت برأسي بالموافقة وأنا أشعر بالفرحة. قلت لتوقعاتي في سري وأنا أرفع لها إصبعي: على أن تكون هذه المرة الأخيرة!! وبعدها ينتهي الأمر؛ فهذا الشاب ليس لديه نية أن يقع في حبي!

ذهبنا إلى مطعم يقدم اللحوم، وبينما نحن في الطريق إلى المطعم أخذ ديفيد حقيبة يدي وعلقها أعلى إحدى اللوحات الإرشادية الموجودة في الشارع، فأخذت أضحك وأقفز عدة مرات لأمسك بها. جلسنا بجانب بعضنا متشابكي الأيدي. أثناء الطعام أخذنا نتحدث عن أنفسنا و عما يدور في رءوسنا، وكذلك عن حالة الاكتئاب التي نعاني منها. تحدثنا عن الإحساس بالخوف وعن العلاج.

لفت نظرنا أن كثيرًا من أصدقائنا يعانون من مشاكل مشابهة؛ فأنا شخصيًا أعرف خمسة على الأقل من بين أصدقائي ومعارفي ممن يعانون من نوبات الخوف أو الاكتئاب، ولكنهم لا يفعلون شيئًا تجاه ذلك ويتحملون معاناتهم في خضوع؛ فلا أحد منهم يحاول أن

يذهب للعلاج أو يتناول أدوية اعتقادًا منهم أن الأمر سوف يمر. ولكن هذا الكلام ليس صحيحًا، فقد جاء في أذني صوت الدكتور كليفه وهي تقول: لماذا تريد أن تدخل النار برجليك! وتمتنعين عن العلاج؟ المفروض أنها طبيبة نفسية وتعرف تفاصيل مثل هذا الموضوع.

امتألت رأسي بالأفكار؛ فالحديث عن علاج الروح يشبه حركة الزمن اللانهائية؛ حيث إن النفس البشرية أكثر تعقيدًا من إصابة بكسر مضاعف في الجمجمة؛ فالنفس المريضة لا يمكن اكتشافها مثل ما تكتشف الأزمات القلبية أو الإصابة بزيادة الدهون في الكبد أو إصابة في الرئة. الأمر في الحالات النفسية له أشكال وآراء متعددة من التشخيص وكذلك أساليب علاج كثيرة، فضلاً عن أن العلاج يستمر لفترات طويلة، فالحل هنا ليس الاستئصال أو اتباع وسائل تغذية صحية.

بدأت الأفكار تدور في رأسي وتحاول إثارتني؛ فالأمر يشبه اللعب بمكعب الأرقام السحري دون أمل التوصل إلى جانب واحد يضم نفس اللون. انتهينا أنا وديفيد من الطعام ومن الكلام، فقلت له وأنا أرتعد في انتظار الرد:

- وبعدين؟

كنت واثقة من أن التوقعات لا يمكن أن توصلني إلى أكثر من الموقف الحالي، ولكنها أخذت تتراقص أمامي مثل راقصة الباليه وتغريني بحدود ما يمكن توقعه. ولكني لا أمل في شيء أكثر من هذا! ابتسمت ولم أقل شيئاً.

فقال ديفيد: هل تحبين أن نشاهد فيلمًا على الـ DVD عندي في المنزل؟

- إيه؟

ثم قلت له بلطف وبأكبر قدر من اللامبالاة.. بينما أقوم بتمثيل دور البنت الساخنة:

- لا مانع، موافقة!

تشابكت أيدينا ونحن نسير في الطريق، ثم تبادلنا القبلات واشترينا الآيس كريم، وبدأنا نتصرف كما لو كنا عاشقين.

وصلنا إلى مطبخ السكن الجماعي الذي يقيم به ديفيد حيث التقينا بأحد السكان فقمنا بتقسيم الآيس كريم على ثلاثتنا وتبادلنا الحديث، فسألنا الساكن:

- ماذا ستفعلان الآن؟

أجبته بقولي:

- سوف نلعب مع بعضنا، لا مكان للعواطف، لذلك سوف نتسلى فقط، ديفيد لا يريد أن يقع في الحب.

ضحك الساكن وغمز بعينه نحو ديفيد ونحوى وهو يقول:
فعلاً، ديفيد لا يريد أن يقع في الحب!

في صباح اليوم التالي جاء الوقت لاستراحة، حتى لو اقترح ديفيد برنامجاً جديداً لا بد أن أترك هذا المكان حتى ألملم شتات نفسي، كذلك يجب أن أبدل ملابسى وأن أحكي لصديقاتى عن ديفيد. تركت السرير كي أكون أنا أول من كسر دائرة الدفاء المتبادل.

ارتديت ملابسى وقلت له بلا داع: - أنا هامشى!

فرد ديفيد بلا داع أيضاً: - طيب!

عندما خرجت واجهتني شمس الخريف الدافئة وشعرت وكأنني أقدم إعلاناً عن مرغارين نباتي تحتوى على قليل من الكولسترين ويبيعت على النشاط والحيوية والصحة. شعرت بأنني في حاجة إلى أن أحكي لأحد عن نفسي وعن ديفيد، عن الجنس وعن عدم الرغبة في دخول تجربة حب جديدة. اتصلت بأمي ففرحت معي بالأخبار السعيدة، ثم اتصلت بنيلسون الذي فرح هو أيضاً ولكنه كان أكثر تحفظاً، فنيلسون رجل، أما أنا فأحتاج الآن إلى امرأة كي أتحدث إليها؛ لذلك اتصلت بصديقتي أننا.

فأننا هي أقدم أصدقائي منذ أيام المدرسة، حصلنا على الثانوية العامة في نفس العام وأمضينا معاً ستة أشهر في مدينة برشلونة حيث كنا نحاول إثبات ذاتينا، ولما لم ننجح في إثباتها، عدنا إلى بلدنا.

وعلى الرغم من أننا لم نتقابل خلال السنوات الماضية إلا مرات معدودة، فإن قلوبنا ما زالت على اتصال مستمر. تسعى أننا دائماً أن نعرف أحوالي بدقة؛ فهي ليست ممن يرضى بالمرآوة أو التحايل.

بدأنا منذ عدة أسابيع نلتقي بشكل منتظم؛ فقد اكتشفت أن صديقتي تحمل بداخلها همًا كبيرًا، ولكنها أبت أن تظهر لي كل هذه المعاناة والهم الذي تحمله أو تفتحه أمامي إلا عندما بدأت أنا جلسات العلاج.

منذ عدة شهور وبينما أحكي لها عن سوء حالتي لمحت فجأة دموعاً في عينيها. أعلم أن أننا قد تعرضت لحادث معين في شبابها تسبب لها في صدمة شديدة، فقد سبق وتحدثنا عن هذا الموضوع عدة مرات.

لقد اكتشفت أن الإنسان لا يتعمق في الكلام عن تفاصيل موضوع الحديث عندما يرى على وجه الطرف الآخر ابتسامة شاحبة، لذلك لم أدرك بالقدر الكافي مدى تأثير ماضي أننا على حاضرها.

وفجأة بدأت أننا تحكي لي عن سوء حالتها على مدى الشهور الماضية، وكيف تكررت حالات الإغماء التي تصيبها بدون سبب لدرجة أنها تسقط في الشارع مغشياً عليها بمجرد أن تشم رائحة أو ترى شخصاً يشبه واقعة الماضي. قالت لي: إنها لم تعد تخرج من المنزل وإنها أكثر من شرب الخمر حتى تستطيع أن تنام ولا تتحدث مع أحد عن هذا الموضوع. لقد اكتشفت أن حالة أننا أسوأ من حالتي بكثير، فما كان مني إلا أن تقمصت تلقائياً دور أمي وشرحت لها كل ما تعلمت، ففي مثل هذه الحالة لا يعتبر الشخص مجنوناً وإنما يعتبر مريضاً يحتاج إلى المساعدة، بل ويجب عليه أن يبحث عنها بنفسه؛ لأن الإنسان لن يستطيع الخروج بمفرده من هذه الغرفة المظلمة ولا يمكن لأحد أن يطلب منه ذلك. الأهم من كل ذلك أن الإنسان يمكن في وقت ما أن يشفى من هذا المرض.

شعرت أننا بارتياح وفرح لأنها وجدت من تلجأ إليه وتحتمي به، والأهم أنها وجدت من يسمعها بعد أن ابتعدت عن صديقات أخريات كانت تلتقي بهن أكثر مما تلتقي بي أنا شخصياً. لم تكن هي تتحمل أن ترى صديقاتها وهن يتمتعن بحياتهن، ولا كانت الصديقات يتحملن وجود أننا وسطهن بسبب معاناتها المستمرة. كل ذلك أثارني كثيراً؛ غير أنني شعرت بالخجل من نفسي لأنني لم أستوعب من قبل مدى معاناة أننا.

هذا هو حالنا، فنحن ندور في حلقة مفرغة، لا أحد منا يراعي الآخر اعتقاداً منا أن التلويح باليد والدعابات بيننا تعنى أن كل شيء يسير على ما يرام حتى تصرخ النفس في طلب الحصول على خمس عشرة دقيقة من الاهتمام، ثم يتوقف كل شيء. فالنفس تريد أكثر من مجرد الإصبع الخنصر، فهي تريد كل شيء وتحصل على كل شيء.

هذا هو حال أننا، الواضح أن بيننا صلة قرابة روحية حتى لو كانت في صورة سلبية، ولكننا نشترك في المعاناة ونهتم ببعضنا البعض. بحثنا لأننا عن طبيب نفسي وعن جلسات علاج وبدأنا نتبادل الحديث أكثر من ذي قبل:

كانت أننا نحضر إلى عندما كانت تصاب بالأرق ولا تستطيع النوم، وعندما كانت تشعر بالخوف كنت أطمئنها وأقول لها: إن الأمر بسيط ولا يستدعي القلق.

ليس بمقدوري أن أفعل أكثر من ذلك، فأنا لا أستطيع أن أسفي من هذا المرض ولكن كان على أن أكذب؛ لأن الخوف شيء فظيع، فالخوف أكثر شيء مخيف قابلني في حياتي ولا أتمنى أن يعود أبداً، فالخوف يحبس الأنفاس، بل وحتى الدموع. ففي مراحل تطور أعراض نوبات الخوف يجب على الشخص أن يكون يقظاً وواعياً. أما الدموع فهي تحجب الرؤية في وقت يجب على الشخص أن يكون

قادرًا على أن يرى الأشياء بوضوح أثناء الشعور بالخوف حتى يصل إلى بر الأمان. أما أمثالنا نحن فلا نستطيع الفرار لأننا نركض في الاتجاه العكسي.

الخوف وحش ضخم، كثيب المنظر ينقض على الشخص كي يستولي عليه، وسوف يفعل ذلك عاجلاً أو آجلاً ما لم تحاول مقاومته وإلا سوف يستمر بداخلك كي يجعلك تستسلم في أي وقت. اهتمامي بأننا جعلني أراقب نفسي، لم تعد حالتي تتسم بالسوء، فلم أصب بأي نوبات خوف منذ عدة شهور؛ بمعنى أنني يمكن أن أعتبر أنني قد شفيت، فضلاً عن أن هناك رجلاً جديداً في حياتي.

التقيت أنا وصديقتي أننا لنشرب القهوة ونأكل الحلوى، فقالت لي بحماس:

- دعيه يعدل عن فكرة أنه لا يريد أن يقع في الحب. فكلامك يدل على أنه قد وقع في حبك من زمان!

أنا تتحمس في بعض الحالات بسرعة، أما أنا فلا أريد التماذي إلى هذه الدرجة، إلا أنني في الواقع سعدت جداً لرد فعل أنا في هذا الموضوع.

قلت لها:

- تعرفي يا أننا؟ أجمل ما في هذا الموضوع - الأجمال -
هو أنني قد تخلصت تمامًا من فيليب؛ فديفيد يعتبر هنا مثل الحفنة
الشرجية، يدخل هو فتخرج الفضلات والبواقي.

اضطرت أننا أن تضحك، إلا أنني أجد هذا التشبيه تشبيهاً بليغاً
بالفعل. لا أعرف كيف سينتهي هذا الموضوع ولكن المؤكد أنه
سينتهي دون فيليب. ربما صادفتني في وقت قريب مشاكل عاطفية
إلا أنني مستعدة لكل ما هو جديد بما فيها المشاكل العاطفية رغم أنها
شيء غير مستحب، فإنها محددة وسوف تنتهي. هذا ما يتمناه عقلي:
النظام، وتحديد الأبعاد، ثم النهاية.

اتصل بي ديفيد في المساء وسألني باقتضاب - كما لو كنت
مشاركة في مسابقة: -

- ما رأيك في لعبة جماعية؟

ورغم أنني أحب الألعاب الجماعية، فإنني لم أكن على يقين أن
هذه هي الإجابة الصحيحة على طلب ديفيد، أما وقد شعرت أن هذا
السؤال ليس سؤالاً مصيريًا ففي هذه الحالة قررت أن أقول له
الحقيقة. وعندما سألني ديفيد:

- هل ترغبين في الحضور لتلعب؟

شعرت بالسعادة لرغبة ديفيد أن يراني للمرة الرابعة على التوالي؛ ولكنه لم يلبث أن قال:

- نلعب فقط!

وافقت وأنا أشعر بشيء من التجهم، وسألت نفسي:

لماذا هذه الجملة الإضافية؟ ماذا يقصد بها بينما هو يوجه الدعوة إلى صديقتة، ربما يقصد بها أنه لا يريد أن يكرر اللقاءات الحميمة السابقة. لا نريد أن نخدع أنفسنا، فكل مرة نأخذ على أنفسنا هذا العهد ننقضه. أليس هذا هو السبب الحقيقي وراء لقاءاتنا؟ بل إن لقاءنا الحميمي يحدث برضا الطرفين. أليس الأمر يشبه الكلب عندما يريد أن يلعب مع صاحبتة، يلعب فقط، إلا أن الأمر يصل في كل مرة إلى ما هو أخطر من ذلك.

أنا لا أستطيع أن أفهم جملة ديفيد "نلعب فقط"، بل وأشعر بالخوف منها.

عندما فتح لي ديفيد الباب لم يحييني؛ أعني أنه لم يلمسني، وبحركة سريعة للتحية دخلت إلى المطبخ وبدأنا نلعب لعبة تركيب الكلمات "سكرابل" بطريقة عادية جدًا كما يلعب أفراد الأسرة الواحدة مع بعضهم. وعندما لم أتمكن من تحديد موقفي الحالي شعرت بالسأم،

حتى محاولاتي الاقتراب من ديفيد لم تفلح بسبب المكان الذي نجلس فيه، مائدة المطبخ واسعة لا تسمح لي بلمس يد ديفيد وساقاي القصيرتان لا تصلان إليه.

ورغم دعابات ديفيد، كلاً ومضموناً، إلا أنني لم أتجاوب معها؛ فأنا أريد أن أعرف موقفنا. هل نستطيع أن نتحدث عنا معاً بصيغة الجمع، هل سنستمر معاً؟ أم هل سيكون ذلك أحياناً، أو ربما أو حتى؟ دعنا نرى ماذا سيكون!؟

وحيث إن الرجال لا يحبون مثل هذه الأسئلة فلم أجروء على توجيه السؤال وإنما أثرت الصمت؟ لم يسألني ديفيد عن سبب صمتي، أتصور أنه يخشى الإجابة.

يمكن انتهت جولة لعبة الحروف. قال لي ديفيد بصوت يخلو من أي عاطفة، كما لو كان يلعب دور الأخ الأكبر:

- يمكن أن تبيني هنا الليلة لو أردت!

وحيث إنني لا أعرف التوقيت المناسب كي أفقد الأمل وأذهب فقد قررت أن أبقى.

لم يحدث بيننا أي التقاء جسدي. نمنا بجانب بعضنا البعض فقط. انتابني شعور بأن رأسي يتشنج، وأحسست أنني معلقة في سلك

شائبك، بينما أنام في ركن السرير أنتظر من يواسيني أو يوضح لي طبيعة الوضع الحالي، أو، أو أن يضمني ديفيد إليّ، إلا أنه كان مستلقياً في السرير ويشاهد التلفزيون. الحقيقة أن الموقف معقد للغاية، ربما كان المفروض أن أقول له ما يدور بخاطري الآن، ولكني لا أريد أن أفقده أعصابه في الوقت الحالي، بل أريد أن أظهر في صورة الحبيبة التي وقعت في الحب، لذلك ابتلعت كلماتي ورحت في النوم.

بدأت علاقتي بديفيد تتشابك وتعددت لقاءاتنا؛ كنا خلالها نتحدث عن الحب وعن حق الواحد منا أن يشارك في اتخاذ قرار للآخر.

لم تعد لقاءاتنا كما كانت في البداية فقد أصبحت أكثر تعقيداً، وأقل إرضاء لكلينا، أصبحنا نتوجس خيفة من المستقبل، ربما حانت اللحظة التي لاحقتنا طويلاً.

تأمل ديفيد موقفه واكتشف أنه لم يصل بعد إلى حالة الوقوع في حب فتاة أحلامه، ثم تأملنا موقفنا، أنا، وساورنا الخوف من أنه من السهل انتقالنا من المرحلة الأولى إلى المرحلة التالية بسرعة، كان هذا رأى ديفيد، أما أنا فلا أعرف، فلم أعد أعرف شيئاً.

انحصر اهتمامي في اهتمام ديفيد بأحاسيسي وردود أفعاله عليها، فلم أعد أسعى إلى أن أعرف على شعور ديفيد وإلى إظهار

شعوري أنا وما يقلقني. الواقع أنني أريد أن أوقعه في الفخ وأن أختار أنا النهاية بنفسي، أما الحقيقة فهي أنني أريد أن أستمر في السباحة في بحر ديفيد، لا أريد أكثر من أن يبقى بجانبني، أن يلمسني ويشعرنني بالأمان، أريد أن أشعر بذلك لمدة قصيرة حتى أستعيد نفسي وذاتي. قلت لنفسي: أعطني ولو مثلاً واحداً على حالة كهذه؛ قرب دون حب، أين الشخصان اللذان استطاعا أن يشتركا في سرير واحد بلا أي مشاعر أو أحاسيس؟

الحقيقة أنني لا أعرف مثل هذه الحالة، وأكذب لو أنني قلت: إنني رأيت مثل هذه الحالة؛ فالأمر عادة ما ينتهي بالحب. قلت لديفيد بشجاعة:

- حيث إننا لا نريد أن نتقارب جسدياً فالأفضل أن نبتعد عن بعضنا لفترة!

- لماذا؟ أرى فيك إنسانة رائعة وأسعد بالحديث معك وقضاء بعض الوقت معك.

- إذن فأنت لا تريد أن تبقى أصدقاء.

- أليس هذا ممكناً؟

- لا، ليس هذا ممكناً؛ لأنه ليس ما أريد أنا، أنا أريد أكثر من ذلك. لا أعرف إن كنت قد وقعت فعلاً في حبك، ولكني أعرف أنني أريد الاقتراب منك بالشكل الذي مارسناه منذ عدة أسابيع، يشعرنني

ذلك بالرضا، أما إذا كان الأمر يتعلق بالأصدقاء فعندي منهم ما يكفيني؛ وحيث إنني لم أتعرف عليك كصديق فإنني لا أريد أن أحتفظ بك كصديق.

بدا الحزن على ديفيد لما سمع مني، وتصورت أنه كان يتمنى أن يكون قد وقع في حبي بالفعل. وفجأة اتضح لي أنه ليس من الشعاعية في شيء أن نتناول أنا وديفيد أقرص معالجة الاكتئاب كل صباح معاً، أو على الأقل ليس هذا هو ما أحتاجه في الوقت الحاضر فأنا أحمل عبئي أنا الشخصي بالكاد، فما الذي يجعلني أضع أحمالاً فوق أحمالي. أنا لا أحتاج فارس أحلام يجيئني ممتطياً حصانه، أريده يعمل في شركة للبريد السريع الدولي. أردت أن أنهى حديثنا الذي لا ينبئ عن جديد قفقت له:

- دعنا نتعد لعدة أسابيع، بعدها نلعب لعبتنا الجماعية مرة أخرى ثم نختبر أنفسنا كأصدقاء، ما رأيك؟

تذمر ديفيد مما قلت. جلسنا في صمت داخل سيارتي أمام باب منزله. لم يغادر السيارة أمسك بيدي، بينما استمر الصمت ونحن نستمع إلى أغنيات فييل كولينز^(*) Phil Collins في الراديو دون أن نعلق عليها.

(*) فييل كولينز (١٩٥١): مغن إنجليزي متعدد المواهب، يغني ويؤلف الأغاني، يعزف على البيانو والدرامز. قام بتمثيل عدة أدوار، اشتهر بأنه عازف الدرامز لفريق الجينيزيس (Genesis).

كان ديفيد يغفو للحظات من تأثير تدفئة السيارة وهو ما زال ممسكاً بيدي، بينما شعرت برغبة في قضاء حاجتي، لم يرغب ديفيد أن يترك يدي رغم أنني قلنتها له واضحة وصريحة.

وبعد مرور نصف ساعة قلت له:

- ديفيد، اصعد إلى شفتك الآن، لا فائدة من ذلك كله فأنا أرغب في حل قاطع: إما كل شيء أو لا شيء. أما أنت فتريد الطريق الوسط، إذن لن نتفق!

أوما برأسه موافقاً، فقلت له:

- ربما يبدو ذلك غير مناسب في الوقت الحالي، ولكنني فعلاً في حاجة شديدة إلى قضاء حاجتي، هل تسمح لي باستخدام حمامك؟ كنت جادة بالفعل في طلبي واصفرت عيني بعد أن امتلأت مئانتي، لم أكن راغبة في استخدام ذلك كحيلة!

رد ديفيد بسخرية: طبعاً، طبعاً!!

اغتظت جداً من كلماته؛ لأنني فعلاً بحاجة إلى قضاء حاجتي. كنت في غاية الحرج لأنني لم أتمكن من الانصراف في كبرياء كما سبق أن قررت، وكنت على وشك أن أبدأ جولة من التوبيخ، إلا أن ديفيد ابتسم قائلاً: هيا اصعدي معي.

صعدنا معًا واتجهت مباشرة إلى دورة المياه ومنها إلى باب
الشقة رغبة منى في إثبات أنني كنت جادة فعلاً، فإذا بديفيد يقول:

- هل تحبين أن تبقى لنشاهد فيلمًا معًا؟

وقفت حائرة بين المدخل وداخل الشقة؟ ماذا يعني هذا؟ ماذا
يريد منى بالضبط؟ لا، لا أستطيع البقاء ولا أريد البقاء، يجب أن
أنصرف فوراً، أليس هذا ما سبق وقررتة؟! ثم أجبته قائلة: طيب،
لا مانع!!

شاهدنا الفيلم معًا، ثم كان اللقاء في السرير، لقاء اعتبره هو
لقاء الوداع؛ لذلك جاء ممثلي بالإحساس لم ننطق خلاله بكلمة.

أمضيت معه الليلة وفي الصباح ودعت ديفيد بالكلمات التي
طالما رغبت في أن أقولها: سوف أتصل بك! وانصرفت من منزله
وأنا أكثر عنادًا منه وكبرياء.

يجب على أن أستمّر، فلم أعد أشعر بالتعاسة وإنما أشعر
بأنني حرة، حرة رغم هذه النهاية المعلنة. أشعر كذلك بأنني مغرمة
متجددة بعد أن قطعت شوطًا تجاه الحياة الطبيعية وبعد أن أذهب عنى
ديفيد الرجفة. شكرًا يا ديفيد، ولكني الآن بحاجة للعثور على الحب

الحقيقي. أحسست في هذه اللحظة أنني بحاجة لسماع موسيقى درامية
لمواكبة الحدث.

آه! لو تعلموا أهمية هذه الموسيقى وتأثيرها في هذه اللحظة!

لقد خرج ديفيد من حياتي، اعتبرته رجل المرحلة الانتقالية،
هكذا قالت لي أمي: قالت لي إنه ليس من الصواب أن تدخلني في
علاقة عاطفية عميقة فور انتهاء أخرى بنفس العمق، الأفضل أن
تكون هناك مرحلة وسط، يكون الطرف الآخر فيها قادرًا على أن
يشفى جراحك ويمهد الطريق إلى الحب الحقيقي.

الحقيقة أن ديفيد لم يخرج من حياتي نهائيًا، فكثيرًا ما أفكر فيه
وأصل به من وقت لآخر، أما ديفيد فبقي صامدًا وأنا واثقة أنه لن
يغير رأيه.

يتصل بي ديفيد بين الحين والحين ويدور بيننا الحوار
الروتيني المكرر:

يسأل هو: هل يمكن أن نستمر معا كأصدقاء؟

فأرد عليه قائلة: طبعًا، ولكن هل يمكن أن تستمر لقاءاتنا
الحميمية؟

يجيب ديفيد: للأسف، لا.

فيكون ردى: إذن للأسف، لا يمكن لصداقتنا أن تستمر !!

استمرت المكالمات بيننا على مدى أسابيع حتى قررت أن أقبل أن نكون أصدقاء.

التقينا في إحدى الكافيتريات، فهذه هي الأماكن التقليدية للقاء. شربنا معاً مشروب الكاكاو. صحيح أننا كنا من الظاهر نبدو مثل باقي الموجودين ولكن ما بداخلنا كان معطلاً، فلم أعد أهتم بالاحتفاظ بديفيد كصديق. ولاحظت أنني لا أرغب أن أحبه، بل أريد الاحتفاظ به كما تعرفت عليه. لقد كان بالنسبة لي بمثابة الشرنقة التي تحويني بقوة والتي أنمو بداخلها وأقوى مثل البرقة. هذا هو ما أحججه أنا الآن وهذا هو ما لا يريده ديفيد، وبالتالي فقد انصرفت.

قرأت في إحدى النشرات التي تصدرها الصيدليات أن معدل الانتحار في ألمانيا يرتفع بصورة كبيرة خلال الشهور التي لا تظهر فيها الشمس ويقل فيها الضوء لفترات طويلة خاصة خلال أسابيع أعياد الميلاد. أنا شخصياً أجد أن هذا الكلام مقنع جداً؛ فخلال أيام الشتاء يعتبر الشخص نفسه أسير المنزل باستثناء هؤلاء الأشخاص الذين يفضلون الحركة، فهم يتمتعون بوقتهم خارج المنزل باستمرار وفي كل فصول السنة. أما باقي الأشخاص فيمكن اعتبارهم في

مرحلة بيات شتوي، فهم يستفيدون بالكاد في الصباح الذي لا تشرق فيه الشمس: يذهبون إلى عملهم بشكل روتيني وفي المساء يسرعون لشراء احتياجات المنزل ويصلون بشق الأنفس إلى عرشهم الدافئ بحداء مبلل من شدة المطر. هناك يلقون بأنفسهم أمام جهاز التلفزيون ويتمتعون في أفضل الحالات بالدفء الذي يحيطهم به أفراد أسرته ثم يروحون في النوم، ربما بدا ذلك للبعض هو أفضل ما يمكن أن يكون عليه حال. إلا أن الأمر ليس كذلك؛ ليس من السهولة أن يجد الشخص أشخاصًا قادرين على احتوائه، خاصة إذا كان يعاني من فراغ داخلي، في هذه الحالة تشكل كآبة الشتاء خطرًا كبيرًا عليه.

أما أنا فقد كنت محظوظة لأن الحالة التي أمر بها قد بدأت مع بداية الصيف. لقد عشت شهورًا مشمسة ومضيئة تمكنت خلالها من أن أفيق.

ومع بداية موسم أعياد الميلاد عدت إلى حالتي الأولى وأخذت أزين شقتي بشكل مبالغ فيه حتى أصبحت تحتوى على ما يكفي أربعة أسواق لبيع سلع أعياد الميلاد. فأنا لا أجيد أعمال الديكور ولكني أكثر من عدد القطع الموجودة في المكان. كنت أرغب أن

يذكرني كل ركن من أركان الشقة بالعيد، لذلك بدأت منذ أول شهر ديسمبر في الاستماع إلى أغاني الأعياد لأشهر الفرق والمغنين، حتى أغنية "مريم العذراء" لفرانك سيناترا.. صحيح أنها ليست أغنية للأعياد ولكني كنت كلما سمعتها أشعر بالهدوء والارتياح. بدأت كذلك بلا توقف في إعداد كعك وبسكويت العيد وإشعال أعواد البخور الواحد تلو الآخر، كذلك بدأت في إعداد قوائم بأسماء الأشخاص والمواعيد المتفق عليها معهم لزيارة أحد أسواق الأعياد.

كم أحب الفترة التي تسبق الأعياد! وكم أحب المدن الكبيرة خلال هذه الفترة! فلا يشعب نظري من تأمل الأضواء التي تتلألأ في كل ركن من أركان مراكز التسوق، لدرجة أنني وجهت خطابًا إلى الإدارة المحلية في المدينة أطلب منهم فيه تخصيص مبلغ لتزيين الشوارع السكنية العادية؛ لأن سكان المدينة لا يقومون بذلك بأنفسهم. المعلوم للجميع أن أعياد الميلاد حدث اقتصادي في المقام الأول ومؤامرة من تجار التجزئة على المستهلك، ففي هذه المناسبة يبرز من يدعي أن بابا نوبل ما هو إلا أحد ابتكارات شركة كوكاكولا.

لا أحد يعرف مضمون هذه المناسبة، واختزل العيد في إهداء الأطفال ألعاب الفيديو. هل يحتاج الشخص للأعياد بمناسبة لزيارة أسرته الكبيرة؟ لا أستطيع أن أستسيغ هذه الآراء الحديثة، فأنا أعشق

الطقوس وأحب تبادل الورد بمناسبة عيد فالنتين، وأحب الرحلات الرومانسية خلال العام. ورغم أنني لست مقتنعة بموضوع الارتباط الأبدي إلا أنني أتمني اليوم الذي أتزوج فيه لا شيء سوى للاستمتاع بطقوس الزفاف.

هكذا أسعد بأيام شهر ديسمبر وأتجول في الشوارع المضاءة التي تستهلك كما هائلاً من الكهرباء، أهدى أصدقائي قوالب الشيكولاتة على شكل بابا نويل، وأدعوهم كل أسبوع إلى منزلي كي أقدم لهم أنواع الكعك والبسكويت الخاصة بالمناسبة، وأزينها بفروع صغيرة من شجرة عيد الميلاد. هذا لا يعني أنني أشتاق إلى ليلة عيد الميلاد، فهذا اليوم يعتبر آخر أيام الاحتفالات وبعدها ينتهي كل شيء.

ورغم أنني شخصياً أسعى إلى الهدف بشكل مباشر فإنني أتمنى ألا تنتهي فترة ما قبل الأعياد أبداً رغم أنني أعرف أنها لا تزيد على كونها مرحلة التمهيد لليلة العيد. لذلك عاهدت نفسي أن احتفل باليوم كما لو كان آخر يوم، وأن غداً لن يأتي.

لم يختلف احتفال أسرتي بأعياد الميلاد على مدى السنين، ولم يتسم بأي أجواء للاحتفال رغم ما نبذله من جهد. فكعادتنا كل عام نشارك أنا وأمي وخالتا والدتي المسننان واللتان تقيمان في منطقة

الرور الصناعية، نشارك كلنا في الاحتفال في منزل جدتي. نلتقي جميعًا نحو الساعة الخامسة وندخن بشرافة بينما نؤدي طقوس التحية المعتادة: كيف حالك؟ ما أخبارك؟ وحيث إننا لا نلتقي كثيرًا فإن الحديث بيننا يطول، عشر دقائق أو يزيد، رغم أن كل واحدة منا تبدو كما لو أن ليس لديها ما تحكيه، لأن تفكيرنا جميعًا يكون منصبًا على طبق الكفتة وسلطة البطاطس التي تعدها جدتي.

بعد العشاء نبدأ مرة ثانية في التدخين ثم ندخل إلى مكان الاحتفال ونتبادل الهدايا سابقين بذلك الوقت المحدد للاحتفال بساعة كاملة. نتوجه بشغف إلى حجرة الاحتفال المغلقة وما أن يقع نظرنا على شجرة عيد الميلاد المتألئة نصيح جميعًا إعجابًا بها. أما أمي فقد اعتادت أن توجه لجدتي ملاحظاتها ومجاملاتها حول الشجرة ومدى نموها، ثم نجلس جميعًا حول الشجرة وننشد بعض أغاني أعياد الميلاد المفضلة لدينا. كلما زدنا ثمالة زاد حماسنا في اختيار الأغاني الأصعب في الأداء، ورغم إمكانية أن نشكل كورالًا نسائيًا لا بأس به إلا أننا كنا نصدر أصواتًا متناقضة ونشازًا؛ فتارة تسرع واحدة منا وتارة أخرى يرتفع صوت واحدة ثم تتجانس الأصوات مرة أخرى وفي نهاية كل أغنية نقهقه أمي بخجل وفخر.

ثم نبدأ في تبادل الهدايا بطريقة سريعة وموجهة كما هي العادة في سلوك سيدات عائلة هيرمان. ثم، ثم ينتهي بذلك احتفالنا بسرعة،

بينما الأسر الأخرى لم تبدأ بعد في إضاءة شجرة عيد الميلاد كي يبدأ الاحتفال. بعد الانتهاء من طقوس الاحتفال نتحول إلى جلسة رجالية لنحل أزرار البنطلون أو الجيب ونخلع حمالات الصدر ونبدأ بعض الألعاب الجماعية ولا مانع من أن يعلو صوتنا خلالها. ندخن جميعاً خلال اللعب بشراهة حتى يرهقني أنا شخصياً، المدخنة الشرهة، كثرة التدخين؛ أما جدتي فتدخل في سباق مع شقيقتها لاحتساء الخمر من الزجاجات، ثم نبدأ في لعب الورق مقابل مبلغ من المال. في حوالي الساعة العاشرة نشعر بالإرهاق من كثرة التدخين فتحزم كل واحدة منا هداياها وتشكر الآخرين وتتصرف إلى منزلها كي تشاهد التلفزيون أو تلتقي ببعض الأصدقاء.

أعتقد أن احتفالنا لا بأس به ولكنه يفتقد إلى روح الاحتفال التي أتصورها؛ لذلك فقد سبق وقلت: إنني أستمتع بفترة ما قبل العيد أكثر من العيد نفسه.

رغم أن احتفالنا بعيد الميلاد في العام الماضي لم يختلف عن احتفالاتنا المعتادة، إلا أنني كنت قد وصلت إلى أسوأ حالاتي النفسية، فقد أثارني أفراد أسرتي بكلماتهم وأفعالهم المعتادة. فكنت طوال المساء في غاية العصبية وأنا عابسة ومتحفزة، حتى أنني استطعت خلال ساعة واحدة أن أضع علامة أمام ما تم إنجازه من القائمة التي

وضعتها مسبقاً لهذا الاحتفال، إلى هذا الحد أصبحت أعرف تصرفاتنا جميعاً مسبقاً.

ففي الساعة الخامسة وسبع دقائق سوف تتباهى أمى بابنتها الجميلة. في الساعة الخامسة والرابع سوف تسألنا جدتي عما إذا كانت قد فقدت بعض وزنها، وقبل مراسم الاحتفال سوف توجه لي خالتي العجوزتان بعض الأسئلة حول مستقبلتي، ثم نسمع كيف أن جدتي قد تفوقت على نفسها في إعدادها لطبق سلطة البطاطس.

أعرف مسبقاً متى سوف تنتقد أمى أصواتنا أثناء الغناء، كذلك أعرف من سوف يقول عند تبادل الهدايا: إننا كنا قد اتفقنا على ألا نتبادل الهدايا هذا العام. كلما وضعت علامة على أحد بنود القائمة التي أعدتها كدليل على معرفتي المسبقة به، زادت عصبيتي. كنت عند كل هفوة أبدأ مشاحنة تسيل بعدها دموعي مثل الفتيات المراهقات.

تعجبت عندما صارحت أمى بعد عدة أسابيع بما شعرت به من ضيق أثناء الاحتفال فوجدت رد فعلها إيجابياً جداً وتفهمت موقفي؛ لأنها عرفت من تجربتها السابقة ما أمر به أنا الآن وهو نوع من عدم التوازن النفسي. وبدأت أمى تشرح لي كيف أنه بإمكاننا أن نغير الطريقة التي نحتفل بها بعيد الميلاد، وبينما هي تصف لي تصورهما

أخذت أومئ برأسي موافقة في نشوة وأنا أتصور احتفالاً بمعنى الكلمة، اقترحت أمي أن يكون احتفالنا متنقلاً بحيث نقيم الاحتفال كل عام في منزل واحدة منا؛ نبدأ من عندي أنا ثم تأتي أمي وبعدها جدتي وهكذا. دار هذا الحوار بيننا في شهر فبراير.

خلال الفترة التالية لم أكن متأكدة من أن شقتي الصغيرة الضيقة سوف تتسع لشجرة عيد الميلاد التي توليها عائلتي اهتماماً شديداً، شعرت أن الضغط العصبي الذي أعانيه يشبه ضيق قبعة راكب الدراجة البخارية، خاصة وأنني أعاني من حالة شرخ نفسي يتطلب أن يكون لي عش آمن يحتويني، وأحتاج خلال فترة أعياد الميلاد إلى مكان يشمله الدفء والأمان. فذهبت إلى أمي وحكيت لها عن مخاوفي وسألتها:

- هل سيعتبر الأمر عيباً كبيراً إذا استغينا عن احتفال بعيد الميلاد في شقتي هذه السنة؟

ولما لمحت علامات العجب على وجه أمي بادرتها بقولي:

- لا أعني أن نلغيه تماماً!! أقصد ألا يكون الاحتفال عندي أنا، أعني: هل يمكن أن تبدئي أنت هذا العام؟ والسنة التالية عندي أنا... وهكذا؟

شعرت بالخجل الشديد فقد كنت أنا من بدأ بفتح فمه للحديث في هذا الموضوع، والآن ها أنا أسحب ذيلي وأنكمش. ولكن ما

جعلني أهدأ هو أننا كنا في مرحلة الإعداد ولم يعرف أحد بالموضوع سوى أمي؛ فقد تفهمت أمي الموقف ومدى احتياجي للعش الدافئ؛ فقالت لي:

- ليست هناك مشكلة يا معذبتني، أبدأ أنا بتجهيز نفسي لهذه السنة، بشرط أن يأتي عليك الدور السنة التالية! وافقت فوراً وشعرت بارتياح شديد. فالسنة القادمة سوف تكون مختلفة تماماً، ستكون السنة الحالية التي ركلتني وأساعت إليّ قد انتهت إلى غير رجعة.

يشاركني نيلسون في النظرة إلى فترة ما قبل العيد ويشترك معي في الرغبة في الحفاظ على هذه المرحلة، إلا أنه مضطر للاحتفال هذا العام خاصة وأن مساحة شفته تسمح بذلك، وكذلك لأنه يحتفل مع زوجته كاترين هذا العام لأول مرة وهما معاً بعيدان عن أسرتهما. اقترح على نيلسون أن أشاركهما الاحتفال بقوله:

- يمكنك أن تحفلي معنا إذا أردت، فليس لك أصدقاء غيرنا.

أجبت به بقولي: شكراً، يبدو أنك نسيت أن لدي أسرة!

اعتدنا أنا ونيلسون منذ أربع سنوات أن نلتقي يوم ٢٤ ديسمبر ظهراً كي نشترى آخر مشتريات العيد، ثم يعود كل واحد منا إلى

منزله كي يغلف الهدايا التي اشتراها من كتب ورابطة للعنق وسى دى أو بطاقات سابقة السداد، لنهديها لأحبائنا.

ثم ألتقي بنيلسون مرة أخرى وتبادل الهدايا قبل أن يذهب كل منا إلى أهله للاحتفال معهم. بدأنا منذ السنة الماضية ننشد بعض أغاني العيد تحت شجرة أعياد الميلاد في منزله، إنه شيء رائع ويبعث على الراحة.

أما هذا العام فلم ألتق بنيلسون وقت الظهر لشراء الهدايا؛ لأنه كان قد وعد زوجته كاترين أن يشتركا في تزيين شجرة عيد الميلاد، أعتقد أنه أمر رومانسي ولكنه غير اقتصادي بالمرّة، فلو أنني أملك شجرة لعيد الميلاد لبدأت في تزيينها في نهاية شهر نوفمبر، لكن للناس فيما يعشقون مذاهب، لذلك اتجهت حوالي الساعة الرابعة إلى منزل نيلسون وكاترين. فتحت لي كاترين الباب واستقبلتني بالأحضان وهي تقول: شكلك رائع، وكأنك ذاهبة إلى احتفال تسليم جائزة الأوسكار.

أعتقد أنها محقة في ذلك؛ فقد اعتدنا أنا وعائلتي أن نخفى غياب شعورنا بفرحة الاحتفال وراء ملابس لامعة ومزركشة. لذلك فقد تزينت بشكل مبالغ فيه تمامًا مثل فتيات الموانى الساقطات وارديت فستانًا باللونين الأسود والذهبي. استقبلني نيلسون قائلاً:

أهلاً يا إيرما لا دوس. أقسم لك لو أنك كنت ترتدين حذاء مناسباً لكنت التقطت لك صورة تحت شجرة عيد الميلاد؟؟ كان بهذا يشير طبعاً إلى حذائي الرياضي الذي أرتديه - فبادرته بقولي:

- ممكن تسكت خالص، معي حذاء سهرة لامع ويبرق للاحتفال، ولكني لا أستطيع أن أقود السيارة وأنا أرتديه.

ثم وضعت الحقيبة التي ملأتها بهدايا ساذجة على المائدة.

أعدت لنا كاترين الشاي بالقرفة وأحضرت بعض الكيك، ثم انصرفت إلى المطبخ كي تترك لنا المجال لنؤدي طقوس احتفالنا، تأثرت كثيراً من تصرفها وشعرت بشيء من تأنيب الضمير، لاحظ نيلسون ذلك فقال لي:

- اهدئي، فهي التي صممت أن نقيم أنا وأنت احتفالنا المصغر على انفراد.

بادرته بقولي:

- هل كنت تتوى إلغاء احتفالنا؟

ابتسم نيلسون بشماتة وسحبني إلى الغرفة التي تضم شجرة عيد الميلاد التي عرفت منها ذوق كاترين، وتعجبت من عدم وجود بعض العلب الفارغة ضمن زينة الشجرة كما اعتاد نيلسون أن يفعل!!

بدا علينا الاسترخاء أثناء تناولنا الشاي وسماع موسيقى أعياد الميلاد، إلا أنني كنت بداخلي في غاية التوتر لأنني كنت أريد تقديم الهدايا فوراً، ولما رأى نيلسون توتري سألتني:

- شاي ثان؟

نظرت له نظرة غاضبة ثم رجوته:

- دعني أقدم الهدايا لو سمحت، لو سمحت!!

كانت هديتي لنيلسون عبارة عن آلة لدمج أوراق اللعب، فرح جداً بهذه الهدية؛ لأننا أنا ونيلسون نستمتع بدمج أوراق اللعب أكثر من لعبها.

كان شكل الآلة رائعاً، فهي مكسوة بالجلد وتعمل كهربائياً وتصدر صوتاً عالياً. أعتقد أنها قطعة من لاس فيجاس وضعتها كهدية تحت شجرة نيلسون.

كانت ثاني هدية أهديتها لنيلسون عبارة عن بطاقة مدفوعة مسبقاً لجلسات مساج.

فرح نيلسون جداً بالهدايا وأراد أن يجرب الآلة الجديدة فوراً إلا أنني منعتة من ذلك؛ لأنني لم أكن أريد أن أنتظر كي أرى الهدية التي اختارها لي نيلسون.

قدم لي نيلسون هدية مغلفة بعناية مما يؤكد أن كاترين هي التي قامت بهذه المهمة، ولكنني لم أرد أن أثير هذا الموضوع، لن يكون الأمر (أكل وبحلقة) كما يقول المثل.

قدم لي نيلسون هدية وهي نسخة حديثة من لعبة *"Trivial Pursuit"* وهي لعبة المعلومات التي سادت خلال التسعينيات وقال لي:

- نحن جيل التسعينيات، أليس كذلك؟

فهمت فوراً ما يرمى إليه نيلسون؛ حيث إننا نعشق هذه اللعبة ولكننا نصاب بخيبة الأمل بعد كل دور نلعبه بسبب ضحالة معلوماتنا وصعوبة الأسئلة. إلا أن نيلسون يتوقع لنا نتائج أفضل بعد أن تم، ضمن قواعد اللعبة الجديدة، تحديد الفترة الزمنية التي تقع الأسئلة في مجالها. سعدت جداً بهذا التغيير لأنه ينم عن ذكاء. أردت أنا أيضاً أن أفض الهدية وأبدأ في اللعب مع نيلسون فوراً، إلا أن الوقت قد تأخر وأصبح من الضروري أن أتوجه إلى احتفال الأسرة المتنقل. شكرت نيلسون شكراً جزيلاً من كل قلبي وتوجهت إلى المطبخ كي أحرر كاترين من محبسها، عانقتها وهمست في أذنها: اللفافة في غاية الروعة! ثم أسرعت بحذائي الرياضي في طريقي إلى الاحتفال.

شعرت ببعض التوتر وأنا أتوجه إلى موقع جديد للاحتفال، ولكن قلبي كان يدق دقائق مرحة. صعدت درجات سلم منزل أمي بحذائي الذهبي ذي الكعب العالي، فتلقيت تهنئة بالعيد بصوت أمي المرتفع بينما تفوح من فمها رائحة الخمر. هداً قلقي عندما وجدت أمي نفسها في حالة قلق.

دخلت إلى المطبخ الضيق حيث وجدت خالتي العجوزتين وجدتي وقد بدأت في احتساء الخمر، وأخذن يضحكن وقد احمرت وجناتهن. جلسنا جميعاً حول مائدة المطبخ الصغيرة التي كنت منذ حوالي ستة أشهر أجلس حولها وأحلق في فجان القهوة عازفة عن تناول قطعة التوست التي أعدتها لي أمي. سرت في جسمي فجأة، حرارة مثل التي شعرت بها أثناء نوبة الخوف التي مررت بها، إلا أنها هذه المرة حرارة سعادة؛ فأنا راضية ومستعدة لتناول مشروب العيد.

زينت أمي شقتها بطريقة فخمة، على ما يبدو أن عصا النجاح السحرية قد أصابتها هي الأخرى، لدرجة أنها لم تنس قطتها الصغيرة فوضعت حول رقبتها شريطاً أحمر. حتى السلم الصغير الذي تستخدمه أمي في المطبخ لتصل إلى الأرفف العليا زينته كما لو كان مذبحاً في كنيسة. ما أكثر ما يمكن اكتشافه في هذا المكان!!

أشعر ولأول مرة منذ سنوات أنني طفل صغير سعيد بقدوم العيد.

كان المطلوب من كل واحدة منا - كما هو الحال في الحفلات - أن تحضر معها أحد لوازم الحفل. أحضرت خالتي المشروبات التي يجيدان اختيارها، وأعدت جدي سلطة البطاطس التي تتفوق في صنعها، أما أنا فقد أعددت نصوص أغاني الاحتفال. كنا في كل عام نستخدم نسخاً متفرقة من أهم أغاني المناسبة. ولما لم تكن أي واحدة منا تجيد قراءة النوتة الموسيقية، فقد قررت هذا العام أن أطبع الأغاني بخط احتفالي جميل وأضعها في حافظة حمراء مزينة بأجراس صغيرة وبعض أوراق شجرة عيد الميلاد. سعدت السيدات بالفكرة وبدأنا الغناء، كنا مثل الكورال الحقيقي. بدت الشجرة التي أعدتها أمي في غاية الروعة، وفي هذه المرة أثنت جدي على نمو الشجرة.

بدأت كل واحدة منا في فتح الهدايا التي تلقيتها، بينما نحن نخلس النظر إلى وجوه الجالسات كي لا تفوتنا تعبيرات الوجوه عند فتح الهدايا.

كانت هدية أمي لي عبارة عن إطار بداخله صورتنا معاً عندما كنت في سن الخامسة، نظرت إلى الصورة ودمعت عيناوي وكذلك

أمي وجدتي. أما خالتي فقد أخذتا في شرب الخمر وهما تتأملان سيدات آل هيرمان أثناء بكاهن.

ثم حدث شيء لم يحدث من قبل؛ فبدلاً من أن نخلع حمالات الصدر بدأنا حواراً تلقائياً، جلسنا حول مائدة حجرة المعيشة، وأخذنا نتبادل أطراف الحديث حول أحوالنا وعن سعادتنا بالاحتفال في منزل أمي، وأخذنا كذلك نحكي عن الأمور السيئة التي مرت بنا خلال العام الذي أوشك على الانتهاء. اعترفت أمي أنها كانت هي نفسها تعاني أثناء الفترة التي أمضيتها معها من نوبات قلق خوفاً علىّ وهي ترى ابنتها تعاني أمام عينيها. تأثرت جداً بهذا الكلام، فقالت لي أمي وهي تضميني إلى صدرها:

- أحبك قوى يا بنتي يا كبيرة يا حلوة.

لقد كان إذن أمراً جيداً أننا لم نخلع حمالات الصدر. ثم أخذت خالتي تعطس خمس مرات متتالية وأحمر وجهها، بدا الأمر في أوله مرحاً ثم انتابنا القلق عندما قالت: حساسية من القطن!! خاصة وأنها سيدة في الثمانين من عمرها، فقالت لها أمي: لماذا لم تنبهيني إلى ذلك من قبل؟

تمت خالتي بأنها لم تكن ترغب في تعكير جو الاحتفال، وفجأة بدأنا في الاستعداد للانصراف. يجب أن نخرج من هذا المكان

إلى مكان آخر، ورغم التوتر الذي ساد المكان إلا أننا وجدنا الموقف رائعًا. قسّمنا أنفسنا إلى فريقين وركبنا سيارتين إلى منزل جدي، فإذا بنا نجد أنفسنا في ذات المكان الذي اعتدنا أن نحتفل فيه كل عام في مثل هذا الوقت، بينما الجميع يخلع حمالات صدورهن ويغني نظرت إلى جدي وغمزت لها بعيني؛ لقد كانت أثناء ركوبنا السيارة في الطريق إلى هنا تشكو من أنها ليست مستعدة لاستقبال ضيوف وأن منزلها مقلوب رأسًا على عقب، أما الآن وهي ترى أحياءها حولها فقد بدت عليها السعادة كما بدت علىّ أنا شخصيًا. تنفسنا بعمق كل على طريقته وأخرجنا العملات المعدنية من حقائبنا لنبدأ اللعب؛ لقد حضرنا إلى هنا لنقوم بهذه المهمة.

فكرت قبل رأس السنة أن أكف عن استخدام أقراص الاكتئاب التي أتناولها؛ فلم يعد هناك سبب في الاستمرار عليها. لقد وصفت لي الدكتورة كليفه أن أستمّر على هذا الدواء لمدة ستة أشهر، وقد مرت بالفعل ستة أشهر، وأشعر أنني في حالة جيدة ولم أعد أصاب بنوبات خوف ولا أعيش في قلق بعد أن رتبت حياتي.

بدأت العمل على فترات متفاوتة لدى بعض شركات إدارة الدعاية، واختفت مشاكلي العاطفية باستثناء بعض الجذب والشد، واختفى غطاء الحزن عن العيون. وبدأت أشارك إيجابيًا في الحياة

اليومية. يجب أن أكون مستعدة أن أستغنى عن الأقراص، فهل أنا مستعدة؟ هل أنا سعيدة؟ الحقيقة لا.

ولكن السعادة ليست حالة مستديمة، فالسعادة هي الرغبة التي تغطي ماء الحمام الدافئ، ولكن الحمام الدافئ يكون بنفس الروعة بدون رغبة. ولكن هل ماء حمامي دافئ؟ ربما أشعر أنني أتوه في التشبيهات والمجازات التي أستخدمها. لنبدأ مرة أخرى.

لا أشعر بالسعادة ولكني أيضا لا أشعر بالنعاسة، أنا فقط على ما يرام.

قررت أن حالة على ما يرام لا تتساوى مع حالة السعادة التي تجعلني لا أتناول الدواء. لذلك قررت أن أستمر في تناول الدواء حتى الربيع القادم؛ لأنني أعتقد أنه فصل مناسب للامتناع عن تناول الدواء؛ وذلك منعاً لظهور أعراض جانبية كما هو وارد في نشرة دواء علاج الاكتئاب. إذن أمامي ثلاثة أشهر حتى يتحول الأمر من حالة على ما يرام إلى حالة سعادة.

المعلوم لدى الجميع أن احتفالات أعياد رأس السنة تحمل معها بعض المشاكل، وخاصة هذا العام بالنسبة لي؛ فليس لدى صديق أتبادل معه القبلات لحظة قدوم العام الجديد.

رأس السنة هذا العام له طابع خاص؛ لأنني في حاجة إلى وداع العام المنصرم بهدوء وتدبر؛ فبينني وبينه حساب ما زال مفتوحاً، ويجب أن يسدد بأسلوب حكيم ورصين.

لذلك جاء قراري أن أحتفل هذا العام برأس السنة بمفردي، إلا أن نيلسون لم يوافق علي ذلك، فأخذت أحاول إقناعه بعصبية شديدة بوجهة نظري: كانت بيني وبين العام الحالي علاقة خاصة جداً، صفعني على وجهي بقوة وبصق في وجهي.

قال نيلسون:

- إذن فهذا ادعى أن تودعيه باحتفال تركلينه فيه في مؤخرته.
- أنت لا تفهم الوضع، أعتقد أن هذا العام كان يريد أن يوصل لي رسالة معينة، يريد... أعني أنه يريد أن ينفذني.
- ينفذك بأن يصيبك بصدمة عصبية وحالة اكتئاب شديد؟
- ربما بدا ذلك جنوناً، ولكن يبدو أنه أراد أن يصفعني بقوة؛ كي أصل إلى الاقتناع بأنه ليس بمقدوري أن أسيطر بصفة مستمرة على كل شيء.

رغم تردد نيلسون إلا أنه بدأ في تفهم موقفي، فقلت له:

- طبعاً أنا لا أنوي قضاء الليلة في احتساء منقوع النبيذ، كل ما هنالك أنني أريد أن أكون وحدي وقت انتهاء عام و قدوم عام جديد، وأن أقبل الدرس الذي تلقيته، بل وأن أسعد في ذات الوقت

بفرصة جديدة وعام جديد. أعتقد أنك ستتصور يا نيلسون أنى أشبه ربة منزل اعتادت مشاهدة قناة أسترو^(*).

رد نيلسون قائلاً: لا طبعاً ولو أنك تشبهينهم. أنا فاهم قصدك، ولكن تحبين أن تشاركي في حفل بعد منتصف الليل؟

قلت له: لسه مش عارفة ومش متأكدة ماذا سيحدث لي لما أنتهي من مراسم الوداع والاستقبال. خلينا نشوف! ولكن مش عارفة أروح فين!

الواقع أنى أعرف أن ديفيد سوف يقيم حفلاً في هذا اليوم ولكن لا أعرف أصدقاء ديفيد، ولا أعرف أيضاً إذا كان من الزكاء أن ألتقى بديفيد في مثل هذا الموقف المشحون بالعواطف وفي يوم رأس السنة بالذات.

جاء صوتي واضحاً حتى بدا كصوت ربة منزل منحرفة المزاج؟

- ساعتها سوف أقرر.

ثم جاء يوم رأس السنة، ولم أحتفل به وحدي، فقد قررت أن تكون صديقتي أننا معي. فهي أيضاً لم تصف حسابها مع العام

(*) قناة أسترو: هي قناة مخصصة للاستشارات الحياتية في موضوعات الحب والصدقة والحياة العملية ... إلخ.

المنصرم؛ لذلك خلعت من على شقتي رداء الاحتفال بعيد الميلاد وكسوتها برداء رأس السنة: مثل أوراق الزينة المزركشة وخصلات من الورق الملون وقصاصات نشرتها في أنحاء الشقة، ثم أعددت لنفسني ملابس تليق بالمناسبة. أهم ما فيها أنني اشتريت ملابس داخلية حمراء جديدة، فهناك عادة إيطالية تقول: إنك لا بد أن تستقبل العام الجديد مرتديًا ملابس داخلية حمراء؛ لأن ذلك يجلب الحظ. المهم أن تكون جديدة ولم تستخدم من قبل. لم يفتني هذه المرة أن تكون الملابس الداخلية جديدة؛ لأنني في العام الماضي ارتديتها مستخدمة. وقد لاقيت ما لاقيت من جراء ذلك. لم أفسد كذلك أن أشتري لصديقتي "أنا" ملابس داخلية حمراء جديدة. ربما لم تكن تعرف هذه العادة الإيطالية من قبل. ليس من المعقول أن أتركها تجري في اتجاه السكين الحادة، خاصة اليوم.

ولما كانت رأس السنة حدثًا مهمًا بالنسبة لنا فقد قررنا أن نمتع أنفسنا قدر الإمكان؛ فأعدنا الشراب الخاص بالمناسبة مستخدمين نوعًا متواضعًا من الشمبانيا، ووضعنا على شرائح الخبز بعض الزبد والكافيار، شعرنا وكأنا روسيات ثريات ونحن ندخن السجائر الحريمي المزركشة.

كنا نحن الاثنان في غاية التوتر لاعتقادنا أن العام الذي سينتهي اليوم هو السبب فيما عانينا منه وأنا الآن نبدأ صفحة جديدة،

فسعادتنا سوف تأتي محمولة على أكتاف السنة الجديدة. وبعد تناول الطعام قررنا أن نخلي كل واحدة منا بنفسها لبعض الوقت. عقدت النية على أن أكتب خطابًا للعام القديم ثم أتخلص منه ومعه بعض الأشياء المنحوسة بالحرق. أما العام الجديد فسوف أوجه له دعوة وأطلب منه بعض الطلبات، ولكنى سوف أراعى ألا يشعر بأني أمارس عليه ضغطًا، ثم أقوم بإلقاء هذه الرسالة من الشرفة، استحسنت أننا هذه الفكرة بل ووجدتها رائعة.

جلسنا أنا وأنا على الأريكة وبدأنا نكتب بينما نحن نسمع أغاني المطرب التون جون. بدا منظرنا مثيرًا للسخرية، ولكننا أخذنا الموضوع مأخذ الجد ولم نتبادل النكات بل أخذنا نكتب في حماس بينما ألسنتنا مضمومة في ركن فمنا. بدا الأمر كما لو كنا أطفالًا في المرحلة الابتدائية أثناء حصة الإملاء.

بعد أن انتهينا من الكتابة قرأت كل واحدة منا للأخرى ما كتبت وجاء المضمون متشابهًا. فقد توجهت كل واحدة منا بالشكر للعام القديم على الدرس الذي لقنه لها، وأكدنا له أننا استوعبنا الدرس تمامًا واستأناه في الانصراف.

وفي نهاية خطابي فعلت مثل أطفال المدارس الذين يعاقبون بالبقاء بعد انصراف باقي التلاميذ؛ بأن كتبت للعام القديم:

"وفي النهاية أرجوك أن تبول على نفسك"، أعتقد أنه سوف يفهم ما أقصد؛ لأنه سوف يسمح لي بدعابة بسيطة.

أخذنا نظرقع في زهو بكعوب أحدثتنا على أرض الطرقة الخشبية حتى وصلنا إلى الشرفة بينما الموسيقى ما زالت مسموعة. بدونا أنا وأنا كما لو كنا ساحرتين شريرتين أنيقتين تقفان أمام شواية اللحم؛ فبعد أن أشعلنا الفحم بحرفية وتأججت النار ألقينا رسالتينا وسط اللهب، ثم ألقيت ببطاقة التهنة التي أرسلها لي فيليب في عيد ميلادي الخامس والعشرين؛ لأنها كانت تحمل صورة لنا معا نفتحعل فيها السعادة. ألقيت كذلك بصورة لديفيد في النار تبعثها عبوة أقراص الدواء التي أتناولها، وفي النهاية ألقيت تقرير عيادة الطوارئ. لم يساورني القلق عندما شعرت أن إحساسي الآن أقل مما كنت أتصور أن أكون عليه، ولكن يبدو أن هذه هي مشكلتي فأنا أفقتر إلى الإحساس بنفسي. ما لبثنا أن وجدنا أنفسنا أنا وأنا نرتعد من البرد، فدخلنا إلى الحجره ونحن نقول لأنفسنا: سوف يسير كل شيء على ما يرام، وليس من الضروري أن نرفع أيدينا بحماس إلى السماء.

جلسنا على الأريكة وشربنا من المشروب الذي قمنا بإعداده، إلا أننا كنا في حيرة: ماذا نفعل في العشرين دقيقة الباقية حتى مولد العام الجديد؟ إذا كنت من سكان المدينة فلن تكون في حاجة إلى أن

تتظر إلى ساعتك كي تعرف موعد ميلاد العام الجديد، يكفيك ما يغطي السماء من صواريخ وألعاب نارية.

بينما الألعاب النارية تملأ السماء جلسنا نحن الاثنان صامتتين نتأمل بعضنا البعض. وفجأة كما لو كنا قد أفقنا من غيبوبة أخذنا نتعانق ونقرع كأسينا، ثم خرجنا إلى الشرفة لمشاهدة سماء المدينة وقد غطتها الألعاب النارية ونحن نصيح: مرحبا أيها العام الجديد ثم ألقينا برسالتينا اللتين تحملان أمانينا وعودنا وتقتنا في عام مجهول تمامًا بالنسبة لنا، ألقيناهما إلى الشارع فاستقرتا على الرصيف، كم أتمنى ألا يعثر أحد على هذه الرسائل! يتصور البعض أثناء احتفالات رأس السنة أن الحرب قد اندلعت؛ فالسما يغطيها الدخان بينما يظهر بين الحين والحين بعض الشرر الأبيض والأحمر الذي يشبه البرق مصحوبًا بصوت بانفجار. سألت نفسي: هل يواسى الناس أنفسهم أثناء الحروب بأن يتصوروا أنهم في احتفال رأس السنة.

أشعلنا بعض الصواريخ الصغيرة وتبادلنا رمى الورق اللامع على بعضنا، ثم أشعلنا صاروخاً وضعناه على المائدة أماناً. ولما كان هذا أقصى ما يمكن أن يسعدنا من الألعاب النارية فقد دخلنا بعد أن جاءنا العام الجديد المنقذ الذي طرد العدو، وسوف نعيش من الآن فصاعدًا في مملكة محررة.

فرغنا من الشرب وحاولنا أن نلعب لعبة مشتركة إلا أننا فشلنا، فألقينا طريقة الاستخدام في سلة القمامة، ثم بدأنا نغنى الكاريوكا ونلعب بالبلاى ستيشن، فجلسنا مثل دجاجتين القرفصاء أمام جهاز التليفزيون وأخذنا نغني أغنية الأب والابن لأنها سهلة وإمكانية الخطأ فيها قليلة. ثم ضقنا بهذا فأخذنا نتمايل بالميكروفون مثل نجوم الروك ونغنى أغاني الثمانينيات من القرن الماضي إلى أن وصلنا إلى أغنية "٩٩ بالونة" فرفضت أن أغنيها لأن سمعتي لا تسمح بذلك. وبعد أن كررنا عددًا من الأغاني أمام الميكروفون تعبنا جدًا فجلسنا ونحن نتصبب عرقًا وقد احمرت وجنتانا.

قالت أننا: وبعدين؟! الساعة الآن الثالثة صباحًا، وحيث إننا قد تشبعنا بالأدرينالين فلا يمكن أن نكتفي بهذا الاحتفال!

ترددت وأنا أقترح عليها:

- هيا بنا نذهب إلي حفلة ديفيد.

سألتني أننا: أنت متأكدة؟

فكرت قليلاً لأنني لست متأكدة، ولكنني في أشد الحاجة إلى سماع الموسيقى ورؤية الناس وأن أحتفل بحريتي حتى لو كان ذلك مع ديفيد في مكان واحد.

لذلك استجمعنا ما تبقى فينا من طاقة وانطلقنا إلى هناك.

كانت شقة ديفيد مزدحمة ولكن ليس بالقدر المزعج، وهذه هي الميزة في احتفالات رأس السنة؛ فبعد نصف الليل تجد الشباب يتنقل كالرحالة من حفل إلى آخر للبحث عما هو أفضل. رأيت ديفيد فاتجهت نحوه لأتمنى له عامًا جديدًا سعيدًا، أسعده وجودي وضمني إليه ثم صاح في أذني: أود أن أراك ترقصين الليلة يا أنسة.

كان ديفيد هو الذي يتولى بنفسه الـ DJ أثناء الحفل - لذلك لم يشرب وبقي يقظًا طوال الوقت - أحبته بقولي:

- انتظر قليلاً حتى ألتقط أنفاسي!

ثم قدمت له صديقتي أننا فحياها بهدوء ثم انشغل بشيء آخر.

اخليت بنفسني في دورة المياه كي أختبر أحاسيسي ولكنني احتفظت بهدوءي فالأمور تسير على ما يرام، من الواضح أن العام الجديد يبذل جهدًا منذ البداية. أثناء ركوبنا التاكسي أنا وأنا استعدنا وعينا بعد الحماس الهادر الذي بذلناه في الغناء فكان من الضروري أن نشرب مرة أخرى كي نشعر بالدفع، وبعد قليل كنا في أحسن أحوالنا بل وبدأنا ترقص، كنت أرقص فعلاً وأهز جسمي مع كل رقصة بالشكل الصحيح وسط حلبة الرقص المرتجلة. شاركت الجميع

الرقص، سواء كان الشاب جميلاً أم قبيحاً، ثم أخذت أتبادل القبلات مع الشاب الواقف بجانيبي والذي لم أكن أعرفه، شعرت كأني مرافقة لأنني حتى لا أعرف اسمه. ثم دخلنا إلى دورة المياه حيث ضمني إليه بجانب حوض المياه، ساعتها تذكرت ملابسى الداخلية الحمراء الجديدة وشعرت بالسعادة، ولما بدأ الشاب يقترب منى أكثر شعرت أن الأمر لا يعدو أن يكون تصرف مراهق فأبعدته عني وقلت له بعينين لامتعتين:

- شكراً، لقد أمضينا وقتاً جميلاً، ولكنى سأنتصرف الآن؟
أتمنى لك سنة سعيدة؟

ثم انصرفت وتركت ديفيد يتولى تتابع الأغاني، بينما أننا نتحدث مع كل من تقابله دون معرفة سابقة. تبادلنا معها القبلات من خلال رسائل المحمول وخرجت عائدة إلى منزلي؛ فقد كانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف صباحاً وبدأ ضوء الفجر ينيّر السماء، بينما كانت مدينتي هادئة جداً فإن الشباب الذين كانوا أكثر حماساً للألعاب النارية قد شربوا حتى الثمالة وذهبوا ليخلدوا إلى النوم.

لم يسمع في الشارع سوى صوت حدائي يدق على الرصيف حتى شعرت أنني أشبه بطلات الأفلام الألمانية مثل هيكة ماكاتش^(*)

(*) هيكة ماكاتش: (١٩٧١) ممثلة ومغنية ألمانية شهيرة.

وهي تخرج مسرعة من إحدى عمارات برلين القديمة بعد أن صارحت
يورجين فوجل^(*) بحبها وتشعر بسعادة بالغة وملؤها الأمل.

كان عامل الحانة التي تقع بجانب منزلي قد بدأ في تنظيف
المكان فابتسم لي وتمنى لي عامًا سعيدًا.

قلت في نفسي: لقد بدأ فعلاً عامًا سعيدًا، أيها الرجل الطيب.
ورددت له التهئة ودخلت إلى منزلي.

يبدل العام الجديد جهدًا كبيرًا، معي، كما كنت أنا متسامحة
معه. فبرغم ارتفاع إيجار الشقة التي أسكن فيها إلا أنني لم أحمله
الذنب في ذلك ولا حتى ذنب تركي عملي في الحانة. ورغم كل ذلك
فصحتي في تحسن لدرجة أنني لم أقم بزيارة طبيبتي النفسية الدكتورة
كليفه منذ عدة شهور؛ فهي في إجازة وضع وبديلتها لا تعينني كثيرًا،
ثم إنني لست في حاجة لها؛ لأنني أصرف أقراص علاجي بروشنة
من طبيب الأسرة. أما جلسات العلاج لدى أنيت فإني أذهب إليها كل
أسبوعين وفي هذه الأثناء لم يظهر على عقلي أي أعراض. تمكن
العام الجديد بعد مضي عدة أسابيع أن يحرز هدفًا فقد استطاع أن
يوفر لي وظيفة جيدة جدًا.

(*) يورجين فوجل: (١٩٦٨) ممثل ومغن وكاتب سيناريو ومنتج سينمائي
ألماني.

اتصلت بي الوكالة التي كنت أعمل بها في الماضي وطلبت مني أن أعود للعمل ولو بصورة مؤقتة في أحد المشروعات كبدائية، وجدت أن هذا الطلب يعتبر نوعاً من الوقاحة، أليست هذه هي نفس الوكالة التي سحبت البساط من تحت قدمي وتسببت فيما أصاب دماغي. جاءت مقابلتي مع رئيسي السابق جيدة جداً؛ فقد أسرف في إرضائي لأنه يعرف أنها الطريقة التي يمكن بها أن يكسبني.

طلبت منه مهلة للتفكير وحددت مرتباً مرتفعاً. ويا للعجب، لقد وافق على الطلبين.

أبلغته بعد مرور ساعتين فقط بموافقتي على العرض، يبدو أني لم أتعلم كيف أثير اهتمام من يتعامل معي.

تم تكليف الوكالة التي أعمل بها بإعداد احتفال بمرور خمس سنوات على افتتاح قناة أطفال في التلفزيون، لذا يجب أن يكون الاحتفال لائقاً بمناسبة مرور خمس سنوات مع الأطفال الصغار؛ طلب مني أن أعد برنامجاً يتضمن ألعاباً كثيرة وأن أبتكر وجبات مجنونة.

سعدت جداً عندما خصص لي لإنجاز هذه المهمة مكتباً خاصاً لأعمل فيه مع زميلي المفضل ماكس، الذي يعمل أيضاً لدى الوكالة بشكل مؤقت.

كانت لنا معا تجارب سابقة في بعض الاحتفالات تمكنا خلالها من تهدئة بعض الحاضرين الذين فقدوا أعصابهم. أما الآن فقد شعرنا بأننا مديران حقيقيان في مكتبنا الخاص نستطيع أن نعد البرنامج على نحو ما نرى نحن.

لم ننجز خلال أول يومين شيئا سوى الحديث في أشياء بلهاء، فقد تناقشنا كثيرا في طريقة نرد بها على المكالمات التليفونية التي سوف نلقاها من برنامج الأطفال. فكرنا في أن نتجاهل ذكر اسم الوكالة التي نعمل بها، ربما استطعنا أن نستقل فيما بعد عن الوكالة ويتم تكليفنا بأعمال خاصة بنا.

فكرنا أيضا أن نقوم بطبع كروت للتعارف خاصة بناء، إلا أن مديري ستيفان وجد أن كتابة اسمي "كارو هيرمان" ووظيفتي "مديرة برامج السمير" ليس بالأمر الجيد، كما وجد أنه ليس من الضروري أساسا عمل كروت تعارف للعاملين في البرامج المؤقتة. خاب أملي أنا وماكس وقررنا أن نقوم بأنفسنا بصناعة بطاقات تعلق على الصدر كالتي يحملها العاملون في المعارض. أمضينا أنا وماكس عدة أيام في جمع أفكار مرحة وكان من حسن الحظ أن أفكارنا جاءت متقاربة؛ فقد اتفقنا على ألا نستعين بكاء الأطفال وأن نسمح لهم ببعض الدعابات التي يقوم بها الكبار. تصورت مثلا أن يكون من

الطريف أن يتجشأ شخص كبير بصوت عالٍ ثم يدّعي أن الطفل الصغير هو الذي فعل ذلك؛ أنا متأكدة أن الطفل سوف يضحك على ذلك بشدة.

رأينا كذلك أنه من حق الطفل أن يعلن عن سخطه إذا كان هناك سبب لذلك؛ فإذا ضاق طفل بزميله في الحضانة وثار عليه، فما المانع أن يعبر عن ذلك.

كذلك يمكن السماح للطفل أن يختار ملابسه؛ فإذا أراد المراهقة. تبار ما سوف يكون - أن يذهب في أول يوم دراسي مرتديا المراهقة. وبرمان والبوت الكاوتش، فلا مانع عندي ولن أعارض ذلك!! يبدأ الحذر في رأيي فيما يخص الملابس مع بداية فترة المراهقة. ولكن هذه ليست مشكلتنا أنا وماكس، الآن تركيزنا سوف ينصب على المرحلة السنية بين خمس وعشر سنوات.

بدأنا نقدح زناد أفكارنا ونجمع أفكارا لبعض الألعاب، وأعدنا في البداية قائمة بالأشياء التي اتفقنا على استبعادها من الاحتفال، فلا حلول وسط في ثلاثة أشياء:

- المهرج.

- الحيوانات الأليفة.

- رسم وجوه الأطفال في صورة مهرج أو حيوان أليف.

كانت الفقرة الأولى في الحفل هي تقليد ومحاكاة الأهل. قررنا جمع عدد كبير من ملابس الكبار كي يتنكر بها الصغار ويستمتعوا بتقليد أهلهم، ثم نقوم بالتقاط صور عائلية يتولى فيها الأطفال دور الأهل. أعدنا فريقاً لموسيقى الروك وزودناه بألات حقيقية كي يقيم أربعة أو خمسة أطفال حفلاً بموسيقى سابقة التسجيل ويقوموا بدور نجوم عالميين لهم جماهير غفيرة. أعجبت جداً باقتراح ماكس عقد مسابقة في التجشؤ أو التعرف على صاحب الحذاء من خلال رائحته.

فكرت أنا في تحويل لعبة "صلح" إلى لعبة "صلح" والفائز فيها هو من يصيح بأعلى صوت، بدأ الانزعاج على وجه ماكس وهو يقول: ده أمر مزعج جداً؟ قلت له: وهذا ما أريده بالضبط!

رغم أن ماكس شاب هادئ، ذكي ومرح إلا أنه بطيء بعض الشيء، وإن كان هو يعتبر ذلك نوعاً من الاسترخاء. وحيث إننا نكون الآن معاً فريق عمل واحد وحيث إنني أريد العمل بروح الفريق فقد أقلمت نفسي على ذلك.

وبالفعل كنا نجلس في المكتب ثلاثة أيام في الأسبوع ونبتكر معاً كل ما يتعلق بخيال الأطفال، وعندما يشطح خيالي وأبدى رغبة

في أن نقدم للأطفال كمية صغيرة جدًا من المشروبات الكحولية يقوم
ماكس بإعادتي إلى عقلي ويقول:

- أتصور يا كارو أنه ليس هناك أجمل من رؤية، طفل في
الخامسة وهو سكران، ولكنني في الحقيقة أخاف من أن نتعرض
للعقاب.

لم أرغب أن أستسلم وأتنازل عن فكرتي بسهولة، لذلك سألت
ماكس:

- أنت متأكد؟ أنا لا أقول لك أن يشربوا نوعًا عالي التركيز،
بمعنى أن كمية صغيرة تضاف إلى العصير يمكن أن تجعل الموقف
أكثر مرحًا. أنا مثلاً كنت وأنا صغيرة أشرب من كوب البيرة الخاص
بأبي في السر!

حملق ماكس عينيه بشكل مسرحي وقال بنبرة قاطعة: لا.

زمجرت استنكارًا فأبدى ماكس اقتراحًا جديدًا:

ولكن ممكن تجعلي مشروبات الأطفال تشبه المشروبات
الكحولية، كما يمكن إحضار الأكواب المناسبة ونصب فيها العصير،
يصبح عندنا عصير عنب بدلاً من النبيذ، وعصير التفاح بدلاً من
البيرة، وشراب الليمون بدلاً من المشروبات الأخرى!

طلبت منه علي الفور: ساعتها نطلب من الكبار استخدام الأكواب البلاستيك.

رد عليّ ماكس لتهدئتي: طبعاً، طبعاً.

سألته: وكذلك نستخدم سجانر من اللبان؟

أجابني: طبعاً يا "كارو"، هي تبقى حفلة من غير سجانر لبان مع مسحوق فوار كي يشبه المخدرات!

واضح أن ماكس يفهم تفكير الأطفال وطباعهم أكثر مني.

مضى شهر ونحن نعمل معاً في الإعداد للحفل، ووضعنا برنامجاً بدا لنا أنه رائع.

فكرنا عدة أيام كيف نجد بديلاً واقعياً عن الدم، وأن نحاول إقناع أصحاب قناة الأطفال بأن مسابقة أطول كلمة سباب وشتائم ليست إهداراً للإنسانية ولكنها نوع من الألعاب التربوية الممتعة.

كنا نعرض على العميل مرة كل أسبوع ما أجزأه وكان يبدي رضاه إلا أنه لم يقبل فكرة المسحوق الفوار كبديل المخدرات؛ إحقاقاً للحق لم يكن ماكس يرغب في عرض هذه الفكرة أساساً إلا أنني أنا التي أدخلتها سراً ضمن قائمة العرض، عندما تأمل العميل في الفكرة استحسناها ولكنه أكد صعوبة تنفيذها.

اعتدت أن أتناول الغذاء مع ماكس، فكنا في بعض الأحيان نخرج بعد انتهاء العمل لنشرب مشروبًا ونتحدث عن الحب. ماكس يعيش حاليًا مرحلة فارقة في علاقة عاطفية؛ فهو وصديقه دائمًا الخلاف على مدى الشهور الماضية حتى أصبحت فترات خلافهم أطول بكثير من فترات صفائهم. انتبست في سرى وحمدت الله أنني قد مررت بهذه المرحلة وأنهيتها؛ لذلك فأنا أعرف جيدًا مدى صعوبة الانفصال. يبدو أننا نفضل خوفًا بلا نهاية على النهاية المخيفة، نشعر بالخوف من فقدان الطرف الآخر؛ لذلك لم أسد لماكس أي نصيحة. فأفضل شيء بالنسبة له هو أن تبادل صديقه بتركة وإنهاء العلاقة بينهما وبالتالي لا تصبح أمامه فرصة، لقد جربت ذلك وحقق نجاحًا ولكني لن أقول له ذلك، لن أصارحه أيضًا بأنه سيكون في حاجة إلى صديقة مؤقتة خلال المرحلة الانتقالية، وأن مرحلة معاناته من آلام الفراق يمكن أن تستمر لمدة ثلاثة أشهر. مهما كان ما قلته له فلن يجدي شيئًا. لذلك تمنيت في قرارة نفسي سرًا أن يفترق عن صديقه في أسرع وقت؛ لأن ذلك سيعني الخلاص بالنسبة لماكس.

حقق العام الجديد النشيط آمالي بأسرع ما كنت أتصور؛ فبعد بضعة أيام جاء ماكس إلى المكتب مطأطأ الرأس: لقد قرر هو وصديقه أن يفترقا.

قلت له بلباقة: ياها!!

همهم ماكس بصوت منخفض: فعلاً.

شعرت بالمسئولية وقلت له: يا خسارة، وأنت عامل إيه؟

أجابني ماكس: لا أدري، ولكن أنا وهي علي يقين أن هذا هو القرار الصحيح، ولكن الأمر مؤلم.

شعرت فجأة أن قلبي يدق بسرعة؛ فالموضوع يذكرني بمأساتي الشخصية وما عانيته من ألم. وأنا لا أستطيع الآن أن أقوم بدور الصديقة الحقيقية وأن أواسي ماكس؛ لذلك خفضت رأسي وبدأت في العمل. لحسن الحظ لم يعد مطلوبًا منا الآن أن نبتكر ألعابًا مرحة؛ فالمطلوب في المرحلة الحالية هو توفير الأجهزة والأدوات المطلوبة للحفل والقيام بالأعمال التنظيمية. بعد انتهاء العمل عانقت ماكس قائلة:

- ارفع رأسك، ربما تكونان محتاجين إجازة قصيرة؛ فالشخص يعرف قيمة رفيقه عندما يغيب عنه بعض الوقت. على فكرة، ممكن تتصل بي في أي وقت لو احتجت إلى أي نكتة سخيفة. شكرني ماكس الذي انكمش ودخل بجسمه النحيل إلى سيارته.

أجبرت نفسي أثناء عودتي إلى المنزل على تحليل نفسي؛ فمن ناحية شعرت بمدى ما أنا فيه من نعمة مقارنة بماكس، شعرت

بالخجل من هذه الفكرة؛ فأنا لا أريد أن أفكر بهذه الطريقة وأسعد بأن هناك من هو أسوأ مني حالاً، ومن ناحية أخرى شعرت بأن في داخلي ناراً تكاد تشتعل، شعرت بالدوار بمجرد التفكير في الآمي.

شعرت أن جسمي يخدعني ويدعي أنني بخير؛ فمجرد أن أسهو عنه سوف أشعر برائحة النار بداخلي، وإذا خدعني جسمي فإن ذلك يعني أنني أخدع نفسي فلا أستطيع أن أحملَ أحدًا ذنب ما يموج بداخلي.

أصبحت جلسات العلاج النفسي التي ألتقها تصيبني بالتوتر، فقد سئمت الحديث عن نفسي وعن نوبات الخوف التي تنتابني، وأصبحت أشعر بالملل من التحليلات وربط الأمور التي أناقشها مع أنيت ببعضها على مدى السنة شهور الماضية. ستة شهور جمعت فيها حصيلة من المعلومات عن نفسي وتحدثت فيها مع الزملاء والأصدقاء حول ذات الموضوع. كل هذا بدون أي جدوى، فأنا غير قادرة على توظيف هذه المعلومات التوظيف الصحيح. يبدو كل شيء أثناء الجلسات منطقيًا، ولكن عندما أخرج إلى الشارع وسط الناس أقول لنفسي: ما المطلوب مني الآن بالضبط حتى أعود إلى حالتي الطبيعية؟

ترى أنيت مثلًا أنه ليس مطلوبًا مني أي شيء، وأن الأمر ليس مرتبطًا بالتعجيل بالشفاء أو الوصول إلى حالة الكمال. الأمر يتطلب مني فقط أن أقبل الوضع الذي أنا عليه الآن بكل ما يساورني من مخاوف لأن لها ما يبررها.

أما أنا فلست على استعداد أن أقبل هذا الأمر، لقد كنت على مدى سبعة وعشرين عامًا إنسانًا طبيعية ومن ثم لا أستطيع أن أستوعب لماذا لا أعود إلى ما كنت عليه قبل المرض وأبحث عن حل لمشكلتي؛ أتصور أحيانًا أنني معقدة لدرجة تمنعني من علاج حالة نفسية بسيطة؛ أشعر أن داخلي قد امتلأ بطبقات متعبة ومنهكة!

هل أنا في طريقي إلى الشفاء؟ أم أنني أحاول إقناع نفسي بهذا؟ يبدو أنني أحاول أن أقنع نفسي بهذا! ربما أحاول أن أقنع نفسي أنني أحاول إقناع نفسي بأنني في طريقي إلى الشفاء. لقد أصبح رأسي يشبه متاهة من الاحتمالات لدرجة جعلتني ألاحظ أنني لم أعد أتق في نفسي. ملعونة هذه الدنيا!!

اتصل بي ماكس في عطلة نهاية الأسبوع وقال لي: ممكن أستغل عرضك في موضوع النكات السخيفة؟ حاولت كسبًا للوقت أن أبحث في رأسي عن واحدة وقلت: طبعًا، طبعًا، كيف حالك الآن؟

أجابني:

"بدونها! رغم أنني متأكد أنه كان القرار الصحيح، فإن الحياة فارغة بدونها!" بدونها!

تأثرت جداً، وتمنيت لو أن أحداً يتحدث عني بنفس الطريقة. ثم حاولت تغيير النغمة فقلت له: - هل كانت ضخمة لدرجة أنها كانت تملأ الشقة؟

ولما شعرت بسخافة ما قلت اعتذرت له بسرعة.

أجابني: ولا يهمك؟ ما رأيك نروح السينما؟ لا أطيق البقاء في البيت..

ذهبنا معاً إلى السينما واستمتعنا بها؛ لأن ماكس كان يحاول قدر إمكانه ألا يظهر تعاسته.

ويوماً بعد يوم بدأ ماكس يعود إلى نشاطه المعتاد، وكنت أحاول أن أقوم بدور الأم وأسأله كل صباح: شكلك أفضل اليوم! وفي كل مرة بيتسم ماكس قائلاً: أكيد الفضل يرجع لك.

ثم أقهقه ويبدأ كل واحد منا في عمله. وفجأة لاحظنا أن نبرة الحديث بيني وبين ماكس تتغير شيئاً فشيئاً؛ فنظرات ماكس بدأت تأخذ طابعاً جديداً، كذلك دعاباتي. تبادلنا النظرات لكي نبحر بماكس بعيداً عن مشكلته، إلا أننا رسونا في الميناء الخاطئ أو على الأقل

في ميناء غير الذي كنا نريد الوصول إليه. لقد بدأت ألاحظ اهتمامي بملابسي أكثر من المعتاد، كما أصبحت أغمر ماكس بنكاتي ودعاباتي التي تحمل أكثر من معنى، والتي جعلت ماكس هو الآخر يرد على بمثيلاتها.

أتصور أن الأمر أصبح واضحاً للعيان بحيث يشتم أي شخص يراقبنا رائحة الشواء، ويعتبر أن العلاقة بيننا أمر واقع، إلا أننا أخذنا نحن الاثنان نلف وندور حول أنفسنا خوفاً من أن تتحول العلاقة بيننا من صداقة عادية إلى علاقة لها مذاق جديد. فكل واحد منا يتصور أنه ربما كان مخطئاً في إحساسه. كنا نتحدث تليفونياً عندما لا تتاح فرصة للقاء، كنا نتحدث عن كل شيء ما عدا هذا الموضوع، كنا نتحدث عن صديقته السابقة وعن صديقي السابق فيليب، فقد كان الحديث عنهما يبعدنا عن أن نهتم ببعضنا، لم نكن نثق في أنفسنا ولا في أحاسيسنا أو في أحاسيس الطرف الآخر إذا صح التعبير. بمرور الوقت أصبح الأمر لا يحتمل، فلم نعد نستطيع أن نخرج معاً لنتناول الطعام دون أن نقرب من حقل ألغام الألفاظ مزدوجة المعنى. أصبحت أخجل من خوفي وجبني، كم أود أن أتجرأ وأسأل ماكس:

- ماذا يحدث لنا بالضبط يا ماكس؟ إنا سوف نحب بعض

والا إيه؟

ولكن للأسف لم أجروُ على ذلك. ماذا لو كانت هذه العلاقة من
درب خيالي؟ هل اشتياقي إلى شخص أسكن إليه يجعلني أتخيل أموراً
غير حقيقية؟ ماذا لو كان ماكس لا يفكر في الوقت الحالي في أن
يكون هو السكن الذي يعجبني؟

بدأت أعد قوائم بما يعجبني وما لا يعجبني في ماكس مثلما
تفعل المراهقات، حاولت أن أكون موضوعية بقدر الإمكان وشاعرية
عند الضرورة. بدأت أحصى ماذا يعجبني في ماكس، كما لو كنت
أجمع قصاصات؛ كان أولها الهدوء الذي يشع منه، وثانيها ظرفه
الذي يجعله يعرب لي عن فرحته بأنه سيلقاني ثم سعادته بلقائي.
لا يصدر هذا التصرف إلا عن فارس لم يعد موجوداً في هذا الزمن،
ولكن ماكس كان يفعل كل ذلك حتى قبل أن تأخذ علاقتنا منعطفاً
جديداً. هل يكفي أننا نحب مشاهدة نفس الأفلام وسماع نفس
الموسيقى؟ أسأل نفسي: هل تتجاذب الأقطاب أم يتقارب المتشابهان؟
ما هو الأصح؟ هل من علاماته أن يدق قلبي بسرعة عندما نلتقي؟

إذا كانت الإجابة بنعم فهذا أكبر دليل. أشعر داخلي بأحاسيس
كلها رقة وهدوء. اعتبره شيئاً غير طبيعي، فليس لدى وقت لا للرقّة
ولا للهدوء؛ لذلك لا أتصور أنها فكرة جيدة أن تربطني بـماكس
علاقة حب.

اتصلت بنيلسون وقلتُ له: فيه حاجة مش طبيعية بتحصيل بيني

وبين ماكس!

فزد قائلًا: وبغدين؟

أجبتَه بسرعة: أقول لك ماكس، ماكس زميلي في العمل.

فقال: فاهم طبعًا، هذه حاجة جميلة جدًا؛ فأنتم تفهمون بعضكم

بصورة جيدة.

- أعتقد أن علاقتي بماكس علاقة أخوة.

- يا "كارو"، أنا وأنت زي الأخ والأخت.

استشعرت من نبرة صوت نيلسون أن كلامي أثاره.

- أنا فاهمة، بس بداخلي إحساس لا أفهمه؛ مثل زنا المحارم!

- أنا مش عارف فين المشكلة، أنت معجبة بماكس زي ما

فهمت، وأنت كمان تعجبيه، استمرى!

- أنت تأخذ الأمور ببساطة يا نيلسون، افرض أن الموضوع

كله من وحي خيالي، ممكن أكون باتصور أن حاله زي جالي؟

= إزاي تتصورى حاجة زي كده؟

- مش عارفة.

- شفتي؟

- هو الآخر توه خارج من تجربة عاطفية فاشلة، ومش ممكن ينزلق مع واحدة جديدة.

- ولم لا؟

سألت نفسي إذا ما كان نيلسون يحاول أن يلعب دور الشرطي المؤيد أم المعارض. ما أعرفه فقط هو أنني أصبحت شرطياً قد نفذ صبره، فقلت لنيلسون:

- يا نيلسون، حاجة مثل هذه أكيد نهايتها الفشل؛ لأن ماكس يحتاج إلى صديقة للمرحلة الانتقالية التي يمر بها. ولا أريد أن أكون أنا هذه الصديقة المؤقتة، أنا أريد أن أكون الجائزة الكبرى.

- اسمعيني جيداً ياكارو، ما تقولينه مجرد تخاريف. أولاً لأن الانتقال من علاقة عاطفية إلى أخرى دون الحاجة إلى فترة انتقالية ربما يكون شيئاً نادراً، إلا أنه موجود. ثانياً: نظريتك عن المرحلة الانتقالية تخريف لا معنى له. وثالثاً: أنت مش الجائزة الكبرى، أنت نسخة معيبة ولكن نسخة ساحرة وحبوبة. وإذا كان هناك من يرى ذلك فيكون هو الجائزة الكبرى. يكفي هذا، ضيعتي وقتي وأخذت تجلدين نفسك أمامي، اسمعي كلامي، تمسكي به وكفي عن

أن تتشكي وتتباكى؟

- نيلسون!

- نعم؟

- أنت أخذت هذا الكلام من أي فيلم؟

- على فكرة أنتي تغيظي!

- ضحكنا نحن الاثنان، وشكرته على عملية غسيل المخ التي أجراها لي، وأنهينا المكالمة.

- إذن إلى الأمام، إلحقي إقفلي عليه القفص! أعلني حالة الاستعداد. يكفي هذا الآن.

. جلسنا أنا وماكس فوق منط الأطفال الممتلئ بالهواء، أنا أدخن وهو يبدي قلقه خوفاً من أن ينفجر المنط من حرارة السيجارة. كنا قد اقتربنا من منتصف الليل وأوشك الحفل على الانتهاء بعد أن انصرف الأطفال وأولياء أمورهم، ولم يبق سوى مديري المحطة ومديري التسويق المتأنقين، ظلوا واقفين بين الألعاب المختلفة ويتبادلون التهنة وهم يدخنون السيجار. أليس من المؤسف أن يكون المسئولون عن قنوات الأطفال الجميلة الظريفة، هم هؤلاء الشيوخ. ولكن كفاهم أنهم

اضطروا اليوم لاستخدام الأكواب البلاستيكية بعد أن صممنا أنا وماكس على ذلك.

لقد قمت بتجربة كل الألعاب التي قدمناها اليوم مرات ومرات. لقد ملأنا أنا وماكس أفواهنا ببودرة الكاكاو ثم بدأنا في الكلام وحل الفوازير، قمنا كذلك بتجربة العزف ضمن فريق موسيقى الروك وصحنا في وجه لوكاس.

ساعدنا الأطفال على ارتداء أزياء تنكرية وأخضعنا بعض الأهالي لأوامر الأطفال، شربنا معهم عصير التفاح حتى الثمالة ودخنا معهم سجائر اللبان التي تسبب سرطان الرئة. كنا في منتهى السعادة رغم شدة الإرهاق.

خرجنا إلى الهواء الطلق نجر أقدامنا، ومن حولنا الربيع يحاول أن يقنعنا بقدمه. سألت ماكس: ماذا ستفعل الآن؟

- ليس لدى فكرة، وإنّ؟

- أنا أيضًا لا أعرف.

- خيلنا نمشي من هنا لأنني بدأت أشعر بالبرد.

- أنا ممكن أعطيك الجاكت بتاعي.

- إنّ كده بتطعيني في رجولتي!!

. - هو أنا مش مسموح لي أقدم الجاكت بتاعى لصديقي العزيز
علشان أحميه من البرد؟! هذا هو ما يطلقون عليه المساواة يا أستاذ.

. أثناء عودتنا في السيارة كان صوت تَذمر التدفئة يوازي
صوت التذمر داخل رأسي، لقد اشتقت لأي لمسة من ماكس، أن
يمسح علي وجنتي مثلاً أو أن يمسك بركبتي، أتمني ولو أي نوع من
المجاملة أو الملاحظة؛ أرجوك. أنتظر أي علامة تشجعني على اتخاذ
الخطوة التالية. أخرجني ماكس من أفكاره بقوله: تحبي نتفرج على
DVD معاً عندي؟

. رحبت بالفكرة واقترحت أن نشتري بعض المشروبات
الروحية في الطريق. أتصور أن الكحوليات تزيد من شجاعة
الشخص، إن حالي يدعو للشفقة، إلا أن ماكس يشاركني هذه الأفكار
السخيفة؛ من الواضح أن حاله هو أيضاً يدعو إلى الشفقة.

في شقة ماكس احتسنا بعض النبيذ، وشاهدنا أحد الأفلام، كنا
أثناء المشاهدة نعلق على ما نرى، لم نتمكن من التركيز في المشاهدة
ولو لمدة عشر دقائق متصلة... كنا نتكلم وننظر إلي بعضنا البعض
لمجرد الكلام. بدا ماكس متوتراً، وهذا ما أعجبني، يبدو أن قلبه يشعر
بالخوف. عندما انتهى الفيلم اكتشفت أنني لن أستطيع قيادة السيارة بعد
الكم الذي احتسنته من الشراب، فعرض عليّ ماكس أن أبيت عنده.

كنت أبدو كالكاذبة التي تبحث عن حجة لتبرر تصرفها. حاولت أن أدعى الهدوء فقلت له: أفهم من ذلك أنك تريدني في سريرك؟

رد على ماكس بصوت جاد قائلاً:

- هذا ما كنت أنويه منذ أن سمعتك تصيحين أثناء الحفل.

قلت في نفسي: "بهذه السرعة!".

بعد أن قمنا بكل الأعمال التي تسبق النوم من غسل الأسنان، وخلع العدسات اللاصقة، والبحث عن شيء للقراءة قبل النوم، وكذلك ضبط المنبه وإغلاق جهاز المحمول، لم يعد هناك شيء يمكن أن نفعله بعد ذلك للوصول إلى الخطوة الأخيرة. استلقينا بجانب بعضنا بعضاً على السرير في الظلام وكل منا في حالة توتر وتشنج تسري في جميع أعضاء جسمينا، أو على الأقل في أعضاء الجسم التي لا ترتبط ارتباطاً مباشراً بالعلاقة الحميمة.

اضطرت للضحك لأنني تصورت أنه لا فائدة.. ضحك ماكس معي إلا أنه بدا غير واثق من نفسه. سألته بصوت خافت: أليس ممن الغريب أن أكون أنا هنا الآن في سريرك في المكان الذي شغلته واحدة غيري قبل ذلك؟ كنت أشعر في قرارة نفسي بالضيق وعدم الراحة فليس هذا مكاني!

رد ماكس بصوت يغالبه النعاس: بالعكس، إنت لايقة جدًا في

سريري.

عندما قال لي ذلك أخذت يده في يدي وقلت له:

- أنت عارف أنى أتعب من معي جدًا؟

- نعم، أنا عارف؟

عرفت الآن مدى صدق إحساسي، فماكس يعرفني جيدًا،
يعرف حالي عندما أكون نائرة وعندما يعلو صوتي، ورغم ذلك يجد
أنني أناسبه في سريره.

أمسكت يده وضغطت عليها فرد بنفس الضغط على يدي،
استمررنا في تكرار هذه الحركة كما لو كنا قد استغرقتنا في النوم،
حتى رحنا فعلاً في النوم.

عندما استيقظت وجدت أن أيدينا لم تعد متشابكة، فاغتظت
لأنني فقدت فرصة التواصل مع ماكس، فقد كان نائمًا وظهره العاري
المملوء بالنمش ناحيتي. أعجبتني جدًا كل هذا الكم من النمش.

في الصباح وبعد أن تخلصت من تأثير الخمر أصبح من
الصعب على أن أبدأ بالمبادرة. بقيت في السرير مغمضة العينين
وأخذت أفكر، فشعرت بالثورة على ماكس: لقد توقعت منه المبادرة.

وفجأة وقبل أن أقترّب من ماكس فإذا به هو يقترّب منى ويمسك بيدي، يا للمصادفة، بقينا في السرير مستلقين وعيوننا مغلقة، وأخذنا نخطط للخطوات التالية. سألتى ماكس بينما يدير وجهه عنى: كيف كانت ليلتك؟

أحبته: جيدة جدًا رغم أنك شريك سرير غريب على. قلت ذلك وأنا أضع يدي الأخرى على فمي.

قال ماكس وهو ينظر إلى الباب: شكرًا جزيلًا، وأنت كمان تعجبيني كشريكة سرير جدًا.

أعتقد أنه من الواجب أن نغسل أسناننا أو أن نأكل أي شيء، وإلا سوف نبقى طول اليوم ونحن متشابكا الأيدي ومغمضا العينين!

ستكون المخاطرة كبيرة بالنسبة لكلينا لو ترك الواحد منا الآخر يذهب. لذلك بقينا في السرير وبلعنا ريقنا وأخذنا نتحدث. بدأت أيدينا المتشابكة تترك مكانها الثابت كما لو لم تكن حركتها مقصودة - باحثة عن الرسغ والساعد. كنا أثناء الحديث نتحسس ذراعينا وكنا نلقي النكات ومعها قبضة خفيفة بالإصبعين. كنا نتحرك في غاية الحذر خوفًا من حدوث ما يمكن أن يفهم أنه سوء تفاهم. تصرفنا كما لم نتصرف من عشر سنوات مضت، كنا نستفز بعضنا البعض بالكلمات حتى تجيء حركات جسمنا متوافقة مع الكلمات، كنا نتحدث

بأي هراء حتى تتمكن من أن تضطدم أكتافنا ببعضها ووصلنا لدرجة أن ندغدغ بعضنا البعض. إنه شيء مخجل، ولكننا استطعنا بذلك أن نقرب من بعضنا البعض، وعندما كنا نستريح قليلاً من هذه الحركات نكون في وضع متواز، كانت الحركات التي أتينا بها خلال هذه الفترة بطيئة ولكنها تحتاج لالتقاط الأنفاس. ضمنا بعضنا البعض كما لو كنا ملاكمين في الحلبة، ثم يتكرر المشهد!!

أخذت ذراع ماكس بين يدي كما لو كنت أمسك بدمية وقربتها من وجهي، شممت رائحته وأخذ شعره يداعب أنفي، ثم أخذت أقبيل ذراعه متخذة بذلك خطوة تتعدى حدود المسموح به، في المقابل منحني ماكس قبلة على جيبني وأخذني بين أحضانه، أخذنا نتحدث كي نصرف تركيزنا عن تصرفاتنا ولكننا استمررنا في تبادل القبلات على ذراعينا وأكتافنا ورقبتنا وأصابعنا، على رأسينا وكوعينا وأماكن متفرقة من جسمينا ما عدا الفم، فلم تصل القبلات إليه كما لو كان التراجع ما زال ممكناً إذا لزم الأمر، ربما أصاب أحد منا الملل فصاح في رقيقة:

- ما هذا الذي تفعله؟!

وأخيراً وعلى استحياء تلاقت شفتاننا، سألت نفسي لماذا احتجنا

كل هذا الوقت؟

المهم أننا وصلنا إلى المراد. فكانت قبيلات الفم هي المحور
متناسية باقي أعضاء الجسم فلم نعبأ بها، لم يحدث بيننا سوى القبيلات
التي أمطرنا بها وجهينا حتى أحمرًا حمرة شديدة، تبادلنا نظرات
التعجب لما وصلنا إليه. أعجبنى منظر رأس ماكس وشعره وهو ما
زال في السرير، أما هو فلا يجد فيه أي جمال، أخذت أعمل له
تسريحات شعر مضحكة وأبدى إعجابي بوحدات النمش المنتشرة في
جسمه، فقال لي: يمكنك أن تختاري واحدة منها إذا أردت. ورغم
أنني وجدت هذا العرض لا يصدر إلا عن مراهق، إلا أنني تماكنت
نفسي ونظرت إليه نظرة تعبير عن شكري، وحيث إن الاختيار
صعب فقد قلت له: ممكن أخذهم كلهم؟ فرد قائلًا: لا، لازم تختاري.

كلما وضعت عيني على واحدة من النمش تلالأت أخرى أمام
عيني، وأخيرًا وقع اختياري على واحدة من النمش هائمة وحدها
بعيدًا عن باقي النمش. ثم قلت لماكس:

- خلاص، أنا كده أملك واحدة من النمش، إذن لا شيء يقف
في طريق حفل الزفاف؟

ولما ابتسم ماكس ابتسامة غريبة، تمنيت ألا أكون قد تجاوزت
الحدود. ولكنني في الواقع مستعدة أن أتزوج ماكس في التو واللحظة.

إلا أن مثل هذه القرارات لا يتم اتخاذها قبل غسيل الأسنان؛ لذلك تركنا السرير وتبادلنا القبلات في طريقنا إلى مكان لتناول الإفطار والتقهوة.

وفي الطريق بدأ كلانا يسير على استحياء كما كنا فيما سبق؛ فكلمة نحن ما زالت جديدة علينا. بدأ ماكس متسججاً بعض الشيء خوفاً من أن يلتقي بصديقه السابقة في الشارع، بينما كنت أنا أخاف أن أتخطى حدودي؛ لذلك سرنا في الشارع معاً كما كنا: ماكس و"كارو"، وتناولنا إفطارنا وفي عيوننا لمعة خفية.

ثم عدنا إلى منزل ماكس وكلنا حنين للتلامس الذي افتقدناه فترة وجودنا خارج المنزل؛ لذلك بدأنا نتبادل القبلات في المصعد ثم في مدخل الشقة وفي كل مكان، إلى أن وصلنا إلى حجرة النوم، فعلينا الآن أن نعوض ما فاتنا.

ماكس ليس من النوع الذي يحب اللهو ولا الذي يخطط لأحاسيسه؛ فهو يعيش اللحظة الحالية، مما يجعلني أحسده على ذلك. كان ماكس يسعد حين يراني معه ويحزن عندما يبيت وحده، ويقول لي: إنه يفتقدني عندما أغيب عنه ويفرح عندما أعود إليه. ماكس يحب المكرونة التي أعدها له بنفسه. يومئذ لي ماكس بعينه أثناء سيرنا بالسيارة ويقبل ذراعي الأيمن كما لو كان يأكل كوزاً من

الذرة: يأكله صفا صفا مستخدماً يديه الاثنتين، من حسن الحظ أن سيارتي تعمل أوتوماتيكياً فلا أحتاج لنقل السرعات لذلك لا مانع من أن أتركه يقبل ذراعي الأيمن طول الطريق. الأمور كلها تسير على ما يرام وهذا أمر لا أستطيع أن أتعامل معه.

تأملت سعادتي التي أعيشها بارتياح وقلت في نفسي: إذن، أين المشكلة أيتها البلهاء؟ فالسعادة بكل حلوتها تغازلك وتقول لك: يا "كارو"، لا أعرف عما تتحدثين، فكل شيء على أفضل ما يكون!

أما أنا فلست ساذجة؛ لأنني أستطيع أن أميز بين سعادة ورديّة وأخرى حقيقية. سوف أصل إلى لب المشكلة بلا جدال؛ لذلك قررت أن أضع هذه السعادة موضع الاختبار.

الجو حولنا ربيع، أوقفت استخدام أدوية الاكتئاب وحصلت على وظيفة، صحتي بخير وأعيش حالة حب؛ إذن فكل الأمور مهيأة لسريان مادة السيروتونين^(*) بالمعدل المطلوب، إلا أن هذا لم يعجب جسمي الذي تعود على ههددة أدوية الاكتئاب وبدأ يتململ، فرغم أنني قد استغنيت - بمساعدة طبيبتي المعالجة - عن استخدام الأدوية ببطء وبالتدريج إلا أن جسمي بدأ يتآمر. فبدأت أشعر بالدوار لدرجة

(*) مادة السيروتونين: هي مادة تسمى ناقلاً عصبياً يعمل على تنظيم مزاج الإنسان، لذلك يطلق عليه هرمون السعادة. (المترجمة)

أصابنتي بالغثيان وأخذ قلبي يدق مثل الراقص الفاشل بدون أي إيقاع ولا انضباط، إنه ما يسمى خفقان القلب. بدأ شعور بالخوف يرادوني؛ لذلك بدأ قلبي كما بدأت أنا نفسي خلال هذه المرحلة - مرحلة البين بين - يتعثر، نتج عن اضطراب قلبي اضطراب حالتي المزاجية، فالإحساس بالغثيان يثير الأعصاب، أضف إلى ذلك عدم قدرتي على التوصل إلى المشكلة في حالة السعادة التي أعيشها.

أصبحت حساسة جداً: استيقظت ذات مرة مثلاً في منتصف الليل على نوبة بكاء شديدة بدون أي سبب، استيقظ ماكس جانبي، فأخذني بين ذراعيه، وبينما دموعي تنهمر أحاطني ماكس بجسمه كله كما لو كان قد وضع على جسمي غطاء، واستمر على ذلك حتى انتهيت من البكاء ورحت في النوم مرة ثانية. اشترى لي ماكس علقة ضد الغثيان، وداومت جاهدة على الإطلاع على شبكة المعلومات (الإنترنت) حتى أتأكد من أن هذه الأعراض هي فعلاً أعراض القرب من الشفاء وليست مؤشرات لأزمة قلبية، ومن ثم أقنعت نفسي أنها أعراض يمكن تحملها لأنها لن تلبث أن تزول. مرت ثلاثة أسابيع عانيت خلالها من هذه الحالة حتى أنني لم أعد أطبقها، ولم يعد جسمي يتحملها حتى قرر جسمي ألا يستمر على هذا الوضع، فقرر بين عشية وضحاها أن يعمل على خير ما يرام.

شعرت بالراحة؛ فقد عدت لأصبح مثل باقي أطفال الشارع الذي أعيش فيه، الآن تستطيع "كارو" أن تنزل من المنزل لتلعب مع الأطفال.

ورغم كل ذلك استمر مزاجي في الترنح كالمخمور، فما زلت أبحث عن الشعرة في طبق حساء كعادتي، وبدأت أتذمر. أخذت في البحث عن أسباب تافهة يمكن أن تنتهي حالة السعادة التي أعيشها.

شعرت أن ماكس يثير أعصابي؛ فهو بطيء للغاية ولا يجيد التنظيم كما أنه يفتقد القدرة على إدارة الوقت، فلا يحضر في مواعيد أبداً، ويحاول دائماً أن يجد لذلك عذراً فيقول: هكذا أنا؟

أما أنا فلا أعترف بمثل هذا الكلام، فعدم الحفاظ على المواعيد ليس عيباً وراثياً في الجينات، لذلك نحن قادرون على التخلص منه.

ومن صفات ماكس التي تثيرني أيضاً أنه يتحاشى الخلافات، مما أعتبره أنا شخصياً افتقاراً للحماس والحمية؛ فهو مثلاً يتلقى الرسائل الإلكترونية *e-mail* السخيفة التي تصله من صديقه السابقة بكل هدوء؛ فعندما يقرأ الرسالة يغضب للحظات ثم يهز كتفيه ويعتبر الموضوع كأن لم يكن، وكأنما مُسح من ذاكرته. أما أنا فهذا الموقف يثيرني بشدة وأرى أن على ماكس أن يدافع عن نفسه، أن يثور وأن يحتج بشدة. إلا أن ماكس يحب كل الناس ولا يعتبر أي شخص

سخيًّا، حتى وإن كان مقتنعًا بذلك؛ فإنه يفضل ألا يصارح هذا الشخص برأيه ويعتبر أن خير الأمور الوسط.

تثيرني شخصية ماكس كما تثيرني الحموضة التي أشعر بها في معدتي، مما يجعلني أصرخ في وجه السعادة قائلة: مش ممكن يكون هذا هو الرجل الذي اخترته شريكًا لحياتي؟

أما السعادة فتنتظر إليّ بهدوء لأنها تعلم تمام العلم أن ماكس بهدونه يشكل القطب الذي يحقق التبادل المطلوب مع شخصيتي النائرة الراضة لكل شيء.

يتقبل ماكس أنني مدخنة لدرجة أنه اشترى لي طفاية سجائر صغيرة، وزين شرفة منزله بنباتات وزهور كي يكون المكان الذي أدخن فيه جميلًا.

لا يتبرم ماكس عندما أتابع برنامج مسابقات سخي فبل ويتابعه معي رغم عدم رضائه عنه، وزيادة في الإحساس بالمشاركة يختار أحد المتسابقين لتأييده بحيث يشاركني في السخط واللعنات إذا فاز المنافس.

يسعى ماكس جاهدًا أن يتذكر عدد قطع السكر التي أضعها في القهوة، وكذلك الكتب التي أنوى قراءتها وحتى نوع الحلوى التي تسعدني؛ كل ذلك يظهر أدب ماكس وحرصه على إرضائي.

أظهرت لي السعادة كل هذه الميزات وصاحت في وجهي في زهو: أي أسئلة أخرى يا "كارو"؟ ولكني لا أقبل كل ذلك بسهولة، فأنا لا أثق في السعادة ولا حتى في نفسي قيد أنملة، فلا أتصور أن تسير الأمور بسهولة ويسر، فهذا ما لم أعهده أو أعود عليه أبداً. أنا على يقين أنني أنا التي سوف تدمر كل ذلك بأسرع ما يكون؛ فأنا لا أشك لحظة في أن ماكس متمسك بعلاقتنا ولن يفكر في إنهائها، بل على العكس؛ فلم أتعرف حتى هذه اللحظة على شخص صادق وأمين في عواطفه مع نفسه ومعني مثل ماكس.

ورغم كل ذلك فإن رأسي يطقطق مثل محرك بيريفوم (*) المعطوب.

وحيث إنني متقلبة المزاج مثل الأطفال؛ فإنني أفتعل المشاحنات كي أستفز ماكس: فأتعهد أن أبيت بمفردي بعيدة عنه كي أثبت له أن وجوده أو عدمه سيان بالنسبة لي. كما أكرر على مسامعه أن ما بيننا لا يزيد على كونه مغامرة عاطفية وليس علاقة ثابتة، لدرجة أنني بعد شهر من بداية علاقتي بماكس قلت له بصراحة على سبيل الذعابة إنني لست مستعدة أن أوقع معه عقداً لأننا ما زلنا في مرحلة التدريب وفترة الاختبار لم تنته بعد.

(*) محرك أبدي ينتج الطاقة من شيء، ويعطي بذلك المستخدم طاقة مجانية لا نهائية.

أما ماكس فقد بدأ شجاعاً وشاركني الدعابة؛ غير أنني لمحت في عينيه أنه لا يعارض أن تأخذ العلاقة بيننا شكلاً رسمياً، وللحقيقة ولا أنا أيضاً، إلا أنني أخاف أن أفسد كل شيء.

أخاف أن أدخل في هذه التجربة ثم أكتشف بعد أسابيع أن عواظي تتصرف عن ماكس فأبدأ في الإحساس بالملل وأثور لأنفـه الأسباب عندما يقول ماكس أو يفعل شيئاً لا يرضيني؛ وقتها سوف يثور عقلي ويصيح في وجهي:

- شفتي، شفتي أنه ليس الاختيار الصحيح. شفتي؟ شايفاه تافه

إزاي؟

أما الجزء الواعي المتبقي من عقلي فيرد قائلاً: إنه لا يوجد شخص كامل ورائع من جميع الجوانب، وإنه على الإنسان أن يتوقع صعوبات في علاقاته بالناس. ولكن صوت عقلي الهيسـتيري يعلو على كل الأصوات ويصيح: لا وألف لا، لا بد أن يكون الشخص المحبوب هو الكمال بعينه!

همست لـماكس قائلة: ممكن بعد عدة أسابيع يوصل بيننا الحال

أننا لا نطبق بعضاً؟

رد على: يمكن، ولكن ساعتها لن نقدر أن نغير في كده حاجة.

من ناحيتي عندي إحساس إنك أنت الإنسانية التي أريدها!

قلت له: مش يمكن تكون هذه مجرد مرحلة وتمر، يمكن أن
أكون أنا المرحلة الانتقالية في حياتك، وأنت بالنسبة لي الشخص اللي
قدر يرجع لي إحساسي بذاتي؟؟

فرد عليّ: الحقيقة مش عارف! ولكن هو إحنا يعنى لازم
نتجوز بكره على طول؟ خلينا مع بعض طول ما إحنا الاثنين سعداء.
قال ماكس الذكي هذه الكلمات وهو يقبل رأسي التي كنت قد
وضعنها تحت إبطه:

كفاك هذا يا حمالة الهموم وارفعي رأسك من تحت إبطي كي
أستطيع أن أقبلك أنت، لا شعرك!

أتلقي الصفعات من كل جانب من العالم المحيط بي، فقد قالت
لي آنيث الطبية النفسية مثلاً: يا "كارو"، استمتعي باللحظة التي
تعيشينها!!

بينما قال لي نيلسون: ما هذا التخريف، أنت سعيدة
ولا تحاولي إقناع نفسك بالعكس!

أما أمي فقالت لي: رائع يا حبيبتي.

وقالت لي أننا: كل شيء ماشي على ما يرام. فبين بقى
المشكلة، ماكس مش غريب الأطوار زي فيليب ولا معقد زي ديفيد،

ماكس يعرفك من سنين وما زال يراك حلوة، ماذا تريدن أكثر من ذلك؟

قلت لهم كلهم: أنا عارفة، عارفة، بس.. بس؟

يتحملني زيفي بمنتهى الصبر، فعندما أحتاج أن أكون وحدي فإن ماكس يتركني وحدي. وعندما أقرر أنني لا أحتاج لذلك فإنه يستقبلني في أي وقت وبدون استئذان، يغمرني بالقبلات والأحضان والتدليل.

ولما كنا أنا وماكس نعمل في وظيفة حرة فقد تمكنا من تنظيم أوقات عملنا؛ وحيث إن الصيف لا يطاق في المدينة الكبيرة، فقد قررنا أن نمضي خمسة أيام على شاطئ مايوركا^(*)، فحجزنا في فندق ثلاث نجوم يقع على الشاطئ مباشرة وبه حمام سباحة رائع حاز إعجابنا أنا وماكس، بعد أن اتفقنا في الرأي على ألا يكون شكل حمام السباحة تقليدياً، مربع مثلاً أو على شكل كلوي، وإنما رأينا أنه كلما كان به اللغافات وانحناءات زاد إعجابنا به. أخيراً وجدنا ضاللتنا فقررنا أن نحجز عن طريق الإنترنت الذي سارع بالرد وإرسال إشعار الحجز باسم السيد هيرمان وحرمه.

(*) جزيرة «مايوركا»: إحدى أهم وأكبر جزر الباليار السياحية، والتي يقصدها سنوياً أكثر من ١٥ مليون زائر، وتقع بين القارتين الأوروبية والأفريقية في حوض البحر الأبيض المتوسط، حيث يحدها من الشمال جزيرة مينوركا والتي تعني «الصغرى»، ومن الجنوب تقع جزيرة الشبابة «إيبيزا».

باقي أربعة أيام على الرحلة، مما جعلنا أنا وماكس في حالة توتر. اشترينا معًا بعض الكتب وكريمًا للشمس وبعض ألعاب الشاطئ، وحاولت أثناء كل ذلك أن أتقبل وضع وجود شخص آخر معي وألا أتشكك في كل شيء. ولكن في ذات اللحظة التي شعرت فيها بالسعادة ولا أخذ حذري، حدث شيء عرقل مسيرتي فكان أن تعثرت.

بينما أنا أضع المايوه البيكيني في حقيبة السفر إذا بالماضي القريب يلاحقني قبل يوم واحد من سفري. لم أهتم بأشعة الشمس الخفيفة التي تطل على غرفة نومي؛ لأنني أشعر بالسعادة فأنا على موعد مع شقيقة هذه الشمس التي تشرق على إسبانيا، فهي في نظري أكثر جاذبية من تلك التي أراها أمامي الآن.

وبينما أنا أطوى قطع المايوه الصغير إذا بي أشعر بقلق، فلم أهتم بذلك؛ عندي من الأسباب ما يقاوم هذا القلق، إلا أن عصبيتي لم تقبل ذلك وظهرت بوجهها القبيح مرة أخرى. بدأت أشعر بهزة في داخلي ثم تحولت إلى رعشة شديدة. حاولت أن أفنع جسمي أنه ليس لدي وقت لمثل هذه الرعشة وأن أتجاهل ما يحدث بأن أتحرك بسرعة داخل الشقة. بدأت أنقل صفوفًا من الكتب من مكان إلى آخر وأختار بوجه عابس بعض الملابس والأحذية وأضعها داخل حقيبة

السفر، بينما أطلقت الموسيقى عالية حولي كما لو كنت أريد أن يطغى صوتها على الصوت الذي يعلو بداخلي، إلا أنه وللأسف كان أعلى صوتاً من كل ذلك، فكان مثل مغنية لامعة تريد استقطاب المستمع فأخذت تعلو بصوتها فوق صوت الموسيقى.

إن ما يدور بداخلي الآن يشبه نفس الحالة التي مررت بها منذ عام أثناء التسوق؛ شعرت أن وحشاً كاسراً يتسلل ليهددني ويهاجمني، فأخذت أتوسل إليه كي يبتعد عني وأقول لنفسي: احتفظي بهدوئك وسيطري على الأمر. بدأت أحاور نفسي وأوجه لها الأسئلة: ماذا ينقصك الآن؟ ماذا يثير فيك كل هذا الخوف؟ ماذا يؤلمك؟ فرد عليّ صوت بداخلي: لا أعرف ولكن الألم لا يحتمل، لا أستطيع أن أجد سبباً لهذه الحالة، فأنا في حالة جيدة وسوف أسافر غداً مع الشخص الذي اخترته بنفسني، وعندما أعود سوف أبدأ فوراً في تنفيذ مشروع جديد كلفتني به الوكالة التي أسعد بالعمل فيها، لكل ذلك لا أعرف أين تكمن المشكلة؟ وطلبت من هذا الصوت بداخلي أن يتركني لحالي، وأن ينصرف، ولكن من الواضح أن الخوف يحبني جداً وتمسك بي، لذلك بقي معي ولم ينصرف عني.

حاولت أن أهدأ وأن أصرف انتباهي عما يدور بداخلي فتنفست بعمق، أخذت حماماً دافئاً وأمسكت كتاباً أخذت أقرأ فيه، ثم

حاولت أن أنام بينما أشاهد أي تفاهات في التلفزيون، ربما ساعد ذلك على أن أهدأ قليلاً ولكنه ليس الحل، فلا شيء ينفع. فكرت أن أبتلع حبه من الدواء المهدئ الذي يستخدم عند الحاجة ولكنني تراجعته. فقد توقفت عن استخدام دواء الاكتئاب منذ ستة أسابيع، ولا أريد العودة إلى استعمال الأدوية بعد أن نضجت نفسياتي وقررت أن تساعد نفسها بنفسها، فقبعته على الأريكة مثل الكتكات الذي خرج من البيضة لتوه وأنا شبه غائبة عن الوعي.

قلت لنفسي: سوف أقهر هذا الخوف ولن أقبل أن ينتصر عليّ. نجحت بشكل ما أن أوقفه على بُعد ذراع مني قبل أن يصل إليّ. كلفني ذلك قوة وإصراراً كبيرين؛ لأنني ما زلت أشعر بهذا الخوف رغم أنه على مسافة مني ولكنني واثقة أنه لن يتغلب عليّ.

مضى اليوم وفي المساء كانت حقيبة السفر معدة، ورغم أنني كنت أرغب في أن أبيت الليلة وحدي، فإنني ترددت وذهبت إلى ماكس كي أمضي الليلة عنده حتى يكون بجانبني عند الضرورة. أعد لي ماكس الشاي وضممني إليه وأخذ يطمئنني بكلمات رقيقة.

أما أنا فلا أريد أن أشرب ولا أن أسمع؛ ففي داخلي صراع عنيف يزداد سرعة، فطلبت من ماكس أن يتركني وحدي، وأخذت أجول في الشقة مثل المجنونة. أخذت أصيح في وجه ماكس لأن

رائحة الطعام الذي كان قد طلبه لنفسه رديئة تجعلني أرغب في التقيؤ. ثم صرخت في وجهه لأنه يشاهد التلفزيون بدلاً من أن يهتم بي، ثم بدأت أشعر بالبرد الشديد. لم أعد أطيق أي شيء، كل شيء حولي يثير أعصابي، أشعر بأن شيئاً ما بداخلي يؤلمني ويزيدني توتراً. أشعر بأنني أهتز مثل أوتار الكمان، ثم، ثم استسلمت، تناولت الحبة المهدئة ودخلت السرير، وأخذت أبكي حتى جاء ماكس وأخذني بين ذراعيه بينما تتبعث منه رائحة البيترزا ولم يقل شيئاً. أخذت أبكي وأنتحب وأعتذر عن تصرفاتي، لم أستطع التوقف عن البكاء فقد كنت أشعر بالخوف، خائفة من الخوف نفسه وهو يطل على وجهه القبيح ويذكرني بالأيام المؤلمة التي مرت بي ويقول لي: إن الأمور ليست على ما يرام كما تصورت؛ فـ "كارو" ما زالت تعاني ولا تستطيع أن تعتمد على نفسها.

وقلت في نفسي: إنني لن أستطيع وأنا بهذه الحال أن أسافر غداً، ماذا لو أصابتي النوبة وأنا على الشاطئ وسط الناس، من الذي سوف يمد لي يد المساعدة؟ ليس هناك أطباء ألمان. هذا ماكس من روعي وقال لي:

- نامي الآن وبكره الصبح شوفي: إذا كنت قادرة أن تسافري، نسافر، لو لم تستطعي فلا نسافر، بسيطة!

أجبتّه بقولي: بس إحنا دفعنا الاشتراك فعلاً، ولن نسترد منه شيء لو اعتذرنا في وقت متأخر؟

- مش مهم خالص يا "كارو"، أنت تعبانة ولهذا لن نساfer. أنا بكرة ممكن أشوف يمكن نقدر نغير ميعاد الحجز!

ماكس يعرفني جيداً لذلك عرف أنني بحاجة إلى شيء بصرفني عن التفكير، فأدار لي تمثيلية إذاعية.

بدأ القرص المهدئ يأتي بمفعوله وبدأ الخوف ينام بداخلي، ولكن بمجرد نومه استيقظ الحزن بداخلي وأخذ يلعب في رأسي، شعرت كأن الحزن غطاء يمد أطرافه ويلفني داخله. لم أعد أستطيع المقاومة فبقيت في مكاني وتصورت أنني قد نمت فعلاً، فربما لا يستطيع الحزن أن يصل إليّ.

استيقظت في الصباح على أشعة الشمس تطل من خلال النافذة على استحياء، كنت منهكة تماماً مما مررت به البارحة، وكذلك بسبب إحساسي أنني لم أشف تماماً كما تصورت أو كما حاولت أن أفنع نفسي، فضلاً عن أنه مطلوب مني الآن أن أتخذ قراراً، إما السفر أو البقاء هنا. نظرت بجانبني فوجدت جسماً ملؤه السمنش، فسرى داخل جسمي دفء يشبه الدفء الذي ينبعث من جهاز تدفئة السيارة؛ دفء جميل يتدفق بداخلي. حاولت أن أتصور أن السمنش

المنتشر على ظهر ماكس يبدو في هيئة أشكال مختلفة، فلم أفصح في أن أجد سيارة كبيرة أو دبًا أو ما شابه، فكرت في الاستعانة بقلم للربط بين وحدات النمش، ولكني اكتشفت أنني أحاول بذلك أن أصرف انتباهي عن اتخاذ قرار، هل يمكن أن نكون بعد ثماني ساعات فقط من الآن جالسين في الطائرة في طريقنا إلى قضاء إجازة؟ أخذت أراقب نفسي بموضوعية: أشعر أنني أفضل من الأمس بكثير، ولكني لست على ما يرام رغم أن الخوف قد ذهب عني ولو مؤقتًا، إلا أن الذهول يقبع بداخلي. فلم أعد أثق في أحاسيسي ولا في جسمي؛ فالخوف يمكن أن ينقضَّ علىَّ فجأة كما فعل أمس ويلقى حبل رعاة البقر حول رقبتي مثل الذبيحة. أشعر بعدم الأمان والقلق لأنني لا أعرف متى وأين يمكن أن يحدث لي مكروه، أريد أن أكون قادرة على السيطرة على جسمي على الأقل. هل أطلب بذلك الكثير؟؟

لا أعرف على وجه التحديد سبب خوفي من إمكانية الإصابة بمرض السرطان أو انسداد الصمامات حتى أجابتي "أنيت" الذكية: لا يحتاج الأمر لذكاء، فهذه الأمراض تدهام الشخص فجأة ودون مقدمات، ويمكن أن تقضى عليك.

أجبتها بقولي: يمكن أن أموت من الإيدز، ولكنه لا يثير الخوف بداخلي.

فردت علىّ قائلة: ممكن تحمي نفسك من الإيدز،، ولكن ليس من الممكن أن تقومي بفحص للسرطان كل شهرين، معنى هذا أنه من الممكن أن يكون المرض داخلك ولا تكتشفينه إلا متأخرًا جدًا.

صحيح ما تقول "أنيت"؛ فأنا كثيرًا ما أصاب بالتوتر في سريري ليلاً عندما أشعر بأي ألم غير معتاد، وأخاف أن أموت قبل أن يساعدي أو يسعفني أحد.

هذه هي الحال بالنسبة للأشخاص الذين لا يتحملون عدم قدرتهم على السيطرة على الأمور، فيقعون فريسة لمرض لا شفاء منه، نفس الخوف الذي ينتابهم عندما يشعرون بالوحدة، تمامًا كما مررت به مرات ومرات.

إذن، فأنا لذيّ نزوة شديدة الرغبة في السيطرة انطلاقًا من عدم اعتمادي على أي شخص، فأنا أتحكم في وظائف جسمي وعقلي تمامًا لدرجة أنني أتعجب من رغبة كل منهما في الدفاع عن نفسه والإمساك بزمام نفسه. لذلك لا عجب الآن وأنا أرقد في سريري أن يهاجمني الخوف فجأة، فأنا التي أتحمل وزر حضوره. بدأت هضبة النمش تتحرك بجانبتي وتهمهم، ثم استدار ماكس ناحيتي وسألني: كيف حالك اليوم؟

غمرته بالقبيلات وقلت له وأنا أنتهد: مش عارفة، أنا أحسن
كثيراً ولكن فكرة أن أبعد عن البيت كل هذه المسافة تؤرقني، أنا
لست خائفة، ما يخيفني هو الخوف نفسه.

داعب ماكس شعري ونهض من السرير وهو يتحدث عن
الكرواسون للإفطار، وعندما أغلق باب الشقة وراءه اكتشفت أنه
انصرف ليحضر بعضاً من الكرواسون.

تأملت حقيبة سفر ماكس المُعدّة وأنا ما زلت مستأنفة على
السرير وفكرت في حقيبتي التي تركتها في شقتي. فكرت في
جوازات السفر وإمكانية أن نكون الليلة حول حمام السباحة في
إسبانيا نتناول مشروب السنجريا من الأكواب البلاستيكية.

اتصلت بأنيت في العيادة وردت عليّ بالفعل فسألتها إذا لم يكن
لديها عمل في الوقت الحالي. أنا على يقين أن الأطباء النفسيين
يشمون رائحة التوتر عن بعد. حكيت لها عما حدث أمس واليوم
وعما أنوى فعله غداً، وسألتها عن إمكانية حصولي على موعد
لمقابلتها اليوم؛ لقد كنت أريد أن أتحدث إليها قبل أن أتخذ قرار السفر
في إجازة. وفعلاً سمحت لي بمقابلتها اليوم ظهراً، وهو موعد مناسب
جداً لأن الوقت سوف يكون كافياً لي ولماكس للذهاب إلى المطار بعد
لقاء "آنيت"، مما جعلني أشعر بالارتياح. أحضر ماكس الكرواسون

والمربي والقهوة، وأخبرني أنه سوف يسمح لي أن أتناول الإفطار معه اليوم في السرير للظروف الحالية.

أثار هذا الأمر ضحكي لأنني أنا التي كنت أمنع تناول أي مأكولات في السرير؛ فأنا أكره الفتات الذي يتساقط أثناء الأكل، أما اليوم فالفتات هو أهون الأضرار. أخذت ماكس عن خططي بينما فمي ممتلئ بالطعام.

قلت لماكس: بعد الإفطار نجمع حقائبك ونذهب إلى شقتي ونحضر حقائبي أنا، بحيث نكون مستعدين تمامًا للسفر، وبعدها نذهب بكل الحقائب لجلسة العلاج النفسي. ساعتها سوف أقرر إذا ما كنت قادرة على السفر أم لا.

استحسن ماكس الفكرة رغم أنها سوف تلغي فكرة محاولة تغيير الحجز، شعرت بالحرص الشديد فتساقطت الدموع من عيني وقلت لماكس:

- أنا آسفة أنني سبب لك كل هذا التوتر!

رد ماكس قائلاً: يا عبيطة، أنا عارف من الأول إنك متعبة.

قلت له: لا.. آسفة، لو لم نساfer، ممكن أصلح الموضوع وأدفع لك المبلغ الذي ضاع في الهواء بسببي، ولكن بالتقسيط!

- ممكن تهدي نفسك بعض الشيء، تكاليف الرحلة كلها ليست بالكبيرة، كمان نحمل هم الفلوس، لو إننا فعلاً لن نساقر. هدوء من فضلك!

ساعتها شعرت أنني فعلاً قد هدأت بعض الشيء؛ فأياً كان القرار فإن رفيق الرحلة سوف يستمر في حبه لي.

لم تأت زيارة "آنيث" بجديد، حكيت لها عن الخوف الذي أشعر به وسألتها إذا كانت هذه الأعراض هي أعراض مرحلة سحب الدواء من الجسم، لقد جاءتني هذه الفكرة في السيارة وأنا في طريقي إلى هنا. استحسنتها كثيراً لأنها لو صحت فسوف أعتبر هذا التفسير سليماً وأغلق ملفه لأنه مقنع و بهذا أستريح.

وحيث إن "آنيث" من أشد المؤيدين لنظرية فرويد وتمارس العلاج النفسي فإنها لا تفضل استعمال الأدوية إلا أنها لم ترفض فكرتي تماماً، أما تفسيرها فكان كالاتي:

ربما أصابك خوف مما يعرف بهلع اللحظة الأخيرة، فالسفر في إجازة مع ماكس هو خطوة مهمة في علاقتك به، أليس كذلك؟

همهمت بكلمات غير مفهومة؛ لأنني لم أكن أرغب في أن أتنازل عن فكرتي في اعتبار هذه المرحلة هي بسبب الكف عن تناول

الدواء، فهو مبرر أفضل من أن تصف لي "آنييت" أن الموضوع معقد. ابتمت "آنييت" قائلة:

- قلت لي: إن الموضوع بدأ وأنت تعدّين الحقائق قبل سفركم بيوم واحد، وقلت لي كذلك: إنك من أسابيع مرت لم تكوني مطمئنة لعلاقتك بماكس ولا حتى لنفسك.

جلست في الكرسي الدوار وأخذت أمد شفتي السفلى مثل الطفل العنيد المتذمر.. استرسلت "آنييت" في الكلام قائلة:

- أعتقد أنك خائفة من أن تُحرمي من هذه المشاعر الجميلة، أو أن تزول عنك. وتصورت أن هذه الإجازة فرصة كي تتدمجا أكثر؛ لذلك فأنت خائفة من أن تكون الخسارة أكبر إذا ما افترقتما. ولكن دعيني أقول لك يا "كارو": إن هذه هي الحياة. أتذكر أنك قلت لي ذات مرة: إنك مستعدة للمقامرة، وإنك لا ترفضين السقوط إذا ما كنت قد مررت بمرحلة صعود سابقة.

فكرت في كلام آنييت ووجدته معقولاً إلا أن شيئاً ما بداخلي يمنعني من أن أحس هذه الكلمات، مما يمنعني من الشعور بالراحة التي لم أشعر بها منذ حوالي سنة رغم وجود تفسير منطقي للأمر. وكما هي عادتي ورغبة مني في الوصول إلى ما أريد أن أسمعته صحت قائلة: طيب! كيف أتخلص من هذا الإحساس!؟

ابتسمت "أنيت" ابتسامتها التي اعتدت عليها وقالت:

- يلزم أن تتعلمي أن تسمحي لهذه المخاوف بأن تطفو على السطح، فهي إشارة إلى أن جسمك يريد أن يبلغك رسالة.

ولما كانت هذه هي المرة المائة التي أسمع فيها هذا الكلام فقد قلت لها وأنا نائرة والدموع تترقرق في عيني: - أنا لا أريد أن أسمح للخوف بأي شيء؛ فالخوف شيء فظيع وغير محتمل. ممكن تفهميني كيف يمكنني أن أعيش مطمئنة وأنا عارفة أن الخوف متربص بي وممكن يفاجئني في كل لحظة؟ أنا تصورت أنني شفيت وبقيت سليمة؟

- لا تنسي يا "كارو" أن حاجات كثيرة تغيرت، حياتك أصبحت أفضل وأجمل وأكثر توازناً عن السنة الماضية، لا بد أن تعرفي أن نفسيتك لن تتغير وتتجدد بالكامل. كنت تعاني من مخاوف ثقيلة وفضيحة تراكمت بداخلك على مدى سبع وعشرين سنة، مش ممكن طبعاً تتخلصين منها مائة بالمائة.

سألته بصوت منخفض: يعني أسافر مايوركا واللا لا؟

- مش أنا التي تقرر ذلك، فإذا كنت ناولية أن تسافري ممكن أكتب لك بعض نقط مهدئة طبيعية تأخذينها معك. مرضى كثيرون عندي استخدموها واستراحوا عليها. ممكن تأخذينها أول ما تشعرين

بالقلق، عدا هذا فأنت تتصرفين في حالة الطوارئ بطريقة سليمة بأن تحاولي أن تهدئي وأن تبخثي داخلك عن سبب الخوف وتحليله وأن تصرفي انتباهك عنه بعمل شيء آخر.

طلبت منها زيادة في الاحتياط أن تكتب لسي النقط المهدئة وقرأت اسمها "نقط Rescue"؛ فشعرت بشيء من الاطمئنان.

ودعنتي "أنيت" بعناق حنون ثم خرجت من العيادة إلى المدينة الدافئة، والآن على أن أتخذ القرار. جلس ماكس يقرأ خارج العيادة في انتظاري، وعندما رأني ظهرت على وجهه ابتسامة ليس بها أي ترقب؛ فأياً كان قراره فإنه سوف يقبله.

- قلت له: بينا على المطار؟

- سألني بقلق: أنت متأكدة؟

- مش قوى، بس أنا عايزة أسافر فوراً.

- هذه هي ما تسمى إجازة آخر لحظة؛ يعني إجازة

- *Last-Minute*

وجدت مايوركا كما هو متوقع، كما يكرهها الجميع وكما أحبها أنا؛ الناس حولك في كل مكان، كبار وصغار، في كل مكان الألعاب التي تملأ بالهواء، والمشروبات لا حصر لها، أما عن بوفيه الطعام؛

فحدّث ولا حرج، فهناك من الطعام ما لذ وطاب، الفتيّات في المراقص (الديسكو) يرقصن بدون أن يعوق حركتهن أي شيء، هذا هو الجو الذي أفضله وأحبه، ولو كنت في منزل صغير هادئ، - في منطقة التو سكانا مثلاً - لما تحملته البتّة، فأنا أحتاج الحياة من حولي، صحيح أنني لا أريد الاختلاط بالناس، ولكني أحتاج أن أراهم وأن أشعر أنني لست وحدي.

مرت خمسة أيام كاملة لم نعمل فيها شيئاً؛ فلم تكن لنا رغبة في مشاهدة معالم الجزيرة، لم نعمل سوى أن نقرأ، ونحن مستقلون في الشمس، نسبح ونأكل ونتبادل القبلات. تركنا كل ما يمكن أن يثير الأعصاب أثناء الإجازة، فماكس يشاركني عدم الرغبة في التجول داخل الجزيرة، ولا مشاهدة معالمها الأثرية، ولا حتى ممارسة الأنشطة الرياضية، فلا نحن نريد أن نسبح مع الدولفين، ولا مشاهدة الحيتان، كما لم نرغب في استئجار بانانا بوت، ولا الرقص بحماس في الديسكو.

لقد شكلنا لأنفسنا جزيرة خاصة بنا وسط كل هؤلاء الناس؛ شعرنا بالاطمئنان وسط هذه الحياة الصاخبة، فتصورنا أننا نشاركهم فيما يفعلون، وعندما يأتي المساء، كنا نشعر مثلهم بالإرهاق.

التقطنا كثيراً من الصور، لنا نحن الاثنان فقط، كيف يبدو عندما نأكل، ونحن نغازل بعضنا بعضاً، حتى ونحن نائمان.

كنا نشرب كل مساء مشروب السنج ريا الشهير، بينما نحن نلعب الورق في شرفة الفندق، شربنا من الأكواب والزجاجات، وحتى من الأكواب المخصصة لفرش الأسنان.

ورغم أننا أمضينا الإجازة مثل أشخاص في الخمسين من عمرهم، إلا أن هذا هو نوع الإجازة الذي أفضله.

بدأ جسمي يشعر بالاسترخاء، إلا أن الخوف قد حاول بين الحين والآخر أن يتسرب إليّ خلال الإجازة، وقتها أشعر بالرعشة، فأسارع بتناول نقط "آنيت" السحرية، ثم نسير أنا وماكس بأقدامنا الحافية على الشاطئ، حتى تعود الأمور إلى طبيعتها. وفجأة أتصور أنني أفقد كل علاقة بماكس، لمجرد كلمة أو تصرف يأتي به، حتى لو كان تافهاً، كما لو كانت العلاقة بيننا تشبه التلامس المتقطع، تارة يصبح كل شيء على أفضل ما يكون، وفجأة لا أشعر تجاهه بأي عاطفة، ولا ألبث أن أجدّها تعود، خلال هذه الفترة تمر دقائق، وربما ساعات، يلعب الشيطان خلالها برأسي، خلال اللحظات التي لا أشعر فيها بالسعادة.

لست ساذجة كي أتصور أن الأمور تسير دائماً بلا مشاكل، حتى أجمل العلاقات يأتي عليها لحظات، يتمنى كل طرف فيها أن

تجلى مصائب الدنيا على الطرف الآخر، ولكن أتصور أن هذا يحدث بعد مرور مدة طويلة على العلاقة، اكتشفت أنني لا أعرف شيئاً عن الحب، ولا عن العلاقات الطبيعية بين الناس، أقل مشكلة تجعلني أتردد، فعندما أفكر مثلاً أن مايوه ماكس الغريب، ربما يكون سيئاً في انفصالي عنه، وفي لحظة، أجد نفسي أتراجع في قراري، يصيني هذا التردد، وحالة البين بين بالدوار، وأشعر أنني جبانة.

لم أرغب حتى الوقت الحالي أن أوقع عقداً ثابتاً مع ماكس، ولكنه سوف يبقى بالنسبة لي هاوياً، ربما يمكنني القول: إنه الزبون الدائم لدى. لا يعني هذا أنني أحاول أن أنظر حولي، بحثاً عن شخص آخر، أو عن حياة مختلفة، من المؤكد أن ماكس هو الساكن الوحيد في وكالة قلبي، ولكني لا أجد في نفسي الثقة الكافية للدخول في علاقة دائمة.

رغم أننا في فصل الصيف فقد استقبلنا ووطننا بذراعين مفتوحين، ومبليين، عدنا إلى وطننا، بعد أن أحرقتنا الشمس من شدة تعرضنا لها، وبيبطون ممثلة ظهرت أماننا، من كثرة الطعام والشراب أثناء الإجازة.

رغم أن الجو الممطر يثير غضب الكثيرين، إلا أنني أحب هذا الجو. يتحدثون في الراديو عن أبرد صيف منذ عدة سنوات،

ويسمعوننا موسيقى تنتقد سوء الأحوال الجوية؛ فإثناء عودتنا في التاكسي، سمعنا المذيع يتساءل مرتين: متى سوف يعود الصيف الحقيقي؟ أما أنا فأشعر بالسعادة لعودتي، رغم أنني قد أمضيت إجازة رائعة، وأتسوق إلى اللحظة التي أدخل فيها إلى سريري الوثير، وأن ارتدى الملابس الثقيلة، فأنا في حاجة دائمة إلى التغيير.

أمضى كل واحد منا أنا وماكس الليلة في شقته، فماكس يذهب مبكراً إلى عمله، أما أنا: فأريد أن أدخل إلى نفسي؛ لأنني أخاف أن أفقد استقلالي الذي اكتسبته بشجاعة، خلال الشهور الماضية، فيجب أن أكون محصنة في حالة انفصالي عن ماكس. لا أريد أن أفقد الخيط الرفيع الذي يربطني بذاتي؛ لذلك قررت أن أبيت ثلاث ليالٍ على الأقل كل أسبوع في شقتي، رغم أن ماكس يجد أن هذا هراء، صحيح أنه لم يصارحني بذلك، لكنني أشعر بذلك.

حاولت في اليوم التالي أن أعيد ترتيب البيت، فتخلصت من الطعام المتبقي من الأسبوع الماضي، وأفرغت الطفايات من أعقاب السجائر، لا أريد أن تأتي شقتي عندي في المرتبة الثانية؛ لذلك أخذت أنظف وألمع كل جزء فيها، بما في ذلك النوافذ.

اطلعت على الرسائل الإلكترونية الخاصة بي، لا لأنني أنتظر رسائل، ولكن لأن هذا هو الأمر المعتاد، وبالفعل وجدت رسالة من

الوكالة الإعلانية التي أعمل بها، يطلب مني فيها ستيفان - المدير الذي أعمل تحت رئاسته أحياناً - أن أقوم بتنظيم لقاء إعلامي.

وصلتني أيضاً رسالة من صديقي - غير المؤكد - ماكس يقول فيها: إنه يفقد الأجزاء التي لم تحرقها الشمس في جسمي.

كُتبت لستيفان بالموافقة على العرض، بشرط أن يسمح لي بتنظيم بعض الأشياء بدون مشاركة توماس جوتشالك. أما ماكس فكُتبت له: إنه يسعدني أن نلتقي على عشاء فاخر خلال الأيام القادمة، وأبلغته أنني ما زلت في حاجة إلى الانفراد بنفسي، حتى أشعر بأنني أفقده فعلاً. أريد إجابة قاطعة من أحاسيسي تجاه ماكس، وبالفعل جاءت الإجابة في قلب الليل. استيقظت حوالي الساعة الثالثة صباحاً وأنا غير قادرة على التنفس، قلبي ينبض بشدة داخل صدري، جسمي كله ساخن، كما لو كان يكوى بالنار، شعرت وكأنني أفف وسط عاصفة.

لقد تمكّن مني وحش الخوف، وهاجمني أثناء النوم، عاتبته بأن هذا ليس من شيم الفرسان الإنجليز، ثم قررت أن أجتهد لأنقذ نفسي.

فكرت في أمي، ولكنها قالت لي: إنني لست في حاجة إلى طبيب الطوارئ، فما أعاني منه ليس أزمة قلبية، ولكنه نوبة خوف، وعلى أن أتعامل معها بنفسي.

بدأت أنتفس بانتظام، وخرجت إلى الشرفة بملابسي الداخلية، ولكن الوحش الكاسر يعرفني تمام المعرفة، واستعد لذلك، فسخر مني قائلاً: لا داعي لهذه الحركات معي. استمر الصخب داخل جسمي، بحيث انتابني شعور، بأني أريد أن أهرب من هنا، وأجرى بعيداً عن هنا، ولكني غير قادرة على الجري، وحتى لو كان بمقدوري ذلك، مم أهرب؟ ومن أين لي بمكان أشعر فيه بالأمان؟

وفجأة بدأت أقنع نفسي بأنني في أمان، وأنه لن يحدث لي أي مكروه، ورغم أن الهدوء كان يسود المكان حولي، فقد كانت بداخلي حرب طاحنة.

لن أبكي الآن، فليس هناك وقت للبكاء، توجهت بساقين مرتعدتين إلى الحمام بحثاً عن الأقراص الزرقاء، ولأنني أرتعد فقد سقط القرص الأول على الأرض، ثم ابتلعت القرص الثاني وعدت إلى سريري وأنا أترنح.

حاولت أن أشغل نفسي بأن أقوم بعدّ الخطوط الموجودة في غطاء سريري، ولكن شعرت بطنين في أذني، وضربات قلبي لا تريد أن تهدأ، شغلت نفسي بأن أعدّ أسماء المقاطعات الألمانية المختلفة، ولكن بلا فائدة؛ فالقوة المسيطرة على حاضرة بشدة، ولا تقبل أن يطغى عليها أحد، فصاحت في وجهي بقولها: "عليك أن تحاربي للحصول على حَقك في المشاركة في الحياة".

في السرير، انكشيت في نفسي، بحيث أصبحت في أصغر حجم ممكن؛ فلو تم إرسال كترد في البريد الألماني، لما تكلف أكثر من عشرة يورو لا غير، وفي ببطء شديد بدأ قرص الدواء يأتي بمفعوله.

في الصباح لم يتغير شيء، فقد تمكن منى الخوف، فعندما استيقظت، شعرت بأن جسمي كله مسام مفتوحة، فقد تأكدت أنني لن أستطيع أن أخدع نفسي بعد اليوم، وأقول: إن هذه النبوة كانت استثناءً وعارضاً غير مدروس في رأسي، لن أتلقى مكاملة تبلغني بالآتي:

"صباح الخير يا سيدة هيرمان، محدثك هو مولر، من مركز التشغيل، لقد حدث أمس شيء خارج عن إرادتنا، فقد أخطأ المتدرب الجديد بالأمس، وقام بتبديل بعض الكابلات دون قصد، نرجو المعذرة إذا كان ذلك قد تسبب لك في بعض الاضطرابات، نعدك ألا يتكرر هذا الأمر".

لا، لن يحدث ذلك، وعلى أن أقر أن هناك خللاً ما بداخلي، فقد أصبت بالجنون، وأصبحت في حاجة إلى مساعدة، لقد خسرت المعركة؛ لأنني أخطأت في كل ما فعلت خلال العام الماضي، لقد أعدت الممثلة المتمكنة بداخلي سيناريو متقناً بعنوان "شفاء نفسي"، لدرجة جعلتني أصدق.

أما الآن فقد نظر إلى الواقع شذراً، وأبلغني بما هو أسوأ. ليس هذا فقط، فلو افترضت أن الأمور تسير على ما يرام، كيف يمكن لي أن أجعلها تسير على ما يرام فعلاً؟ كم تمنيت أن أكون أكثر غباءً، وأن أقبل فكرة اعتبار الأمور: كما لو أن! أريد أن أكون ممثلة فاشلة أو كاذبة. كي أقتنع بذلك، أرجوكم جميعاً: أريد أن أتعافى، وأن أعود إلى ما كنت عليه.

لاحظت أنني لا أعرف رأسي من رجلي، ومشوشة جداً، فأخذت علبة سجائري، ولملمت سيقاني، وخرجت من المنزل، إلى أين؟ لا أعلم، أريد فقط أن أذهب بعيداً عن هنا، أخذت أتجول في المنطقة المحيطة بالمنزل، وأنا أبكي وأدخن.

اتصلت بآنيث وماكس، وتركت لهما رسالة باكية على جهاز تسجيل المكالمات، وأخيراً اتصلت بعيادة الطبيبة النفسية الدكتوراة كليفة، رغم علمي أنها في إجازة لرعاية طفلها، طلبت القائم بالعمل في عيادتها، أخذت نفساً عميقاً وتحديث إلى الممرضة.

قالت لي بصوتها الرفيع: مدام هيرمان، لم تحضري إلى العيادة منذ فترة طويلة، حوالي تسعة أشهر، أليس كذلك؟

قلت لها: إنني أعاني منذ أن توقفت عن تناول أقراص العلاج؛ لذلك أريد أن أتحدث إلى الطبيب، أجابتي بقولها: آه، إنك لم تتعرفي على الطبيب الجديد! للأسف لا يمكن الحصول على مواعيد اليوم،

فالدكتور مشغول جدًا، ما هي الحالة بالضبط؟

قلت بشجاعة: لا أعرف بالضبط، ولكن الحالة ليست من
السوء، بحيث إنني أبحث عن موس الحلاقة كي أتحر به، ولكني
رغم ذلك لا أريد الانتظار للغد.

ردت الممرضة: ها هو الدكتور قد حضر، سوف أوصلك به.

رد على صوت رجالي: أهلاً يا سيدة هيرمان، كيف حالك؟

ولما لم أكن أطيق العبارات الجوفاء، فقد قلت له:

- مع احترامي الشديد لشخصك، عليك أن تتصور حالي، وأنا

أتحدث باكية إلى الممرضة، وأطلب منها موعدًا فوراً!

جاء سؤال الطبيب بموضوعية شديدة، حيث إنه قد تعود على

ما هو أعنف من ذلك عبر التليفون:

- أين تكمن المشكلة بالضبط؟

أمطرته بالأسئلة؛ لأن صبري قد نفذ، وأردت أن يعرف

الطبيب حالتي، ويساعدني:

- لا أعرف من أين أبدأ، انتهيت من استخدام حبوب علاج

الاكتئاب منذ عدة أسابيع، وما هي حالتي الآن سيئة جدًا، هل هناك

علاقة بين الاثنين؟ هل المطلوب مني العودة إلى تناول الأقراص؟
هل أصبت بالجنون؟ اعتقدت أنني شفيت!

رد الطبيب: لا أستطيع أن أجيب عن كل هذه الأسئلة من
خلال التليفون.

- مفهوم طبعًا، لذلك لم أطلب استشارة تليفونية.

- سوف أحاول أن أجد لك موعدًا اليوم بأي طريقة، هل
يناسبك الساعة الخامسة والنصف مساءً؟

- جميل، شكرًا جزيلاً، وأعتذر عن حالتي المشوشة.

لاحظت أنني قد رفعت صوتي، مطالبة بما أريد، طبعًا! هذه
أنا! أعترف بأن تصرفي لم يكن مقبولاً.

شعرت ببعض الهدوء؛ لأنني أريد أن أستخرج كل ما عندي.

ها أنا ذا وقد تجردت من كل شيء، أعرض عليكم كل
أسراري، كل مخاوفي، كل قلقي، كل آثامي، سوف أسمح لكم
بالاطلاع على كل كبيرة وصغيرة، وسوف أجيب عن كل الأسئلة
بصراحة شديدة، بقدر ما أستطيع، سوف أضع كل الأحمال عن
كتفي، وأعترف بكل خطاياي، لن أكذب بتاتًا، سوف أتصرف دومًا
بطريقة صحيحة، ولكل ذلك أرجوكم، أخرجوني من محنتي!

اتصلت بي "أنيت" ردًا على مكالمتي، فعرضت عليها المشكلة، وأنا أبكي: ماذا حدث لي بالضبط، ولماذا يحصل مرة ثانية؟ هو أنا بعمل إيه غلط؟

حاولت "أنيت" أن تهدنني قائلة:

يا "كارو"، أنت لا تعملين أي شيء خطأ، أعتقد أن المشكلة في تماديك في العلاقات؟

- ماذا يعني هذا؟ لا أفهمك، تماديت في علاقتي مع من؟

- في علاقتك بنفسك، وبالآخرين، وبماكس بالذات، وهذا هو ما يخيفك.

أربكني هذا الكلام، فتراقصت أمام عيني كل مواقف ومعلومات العام الماضي، تمامًا مثل الموسيقى الإلكترونية، ومضات سريعة، جعلتني من شدة ضوئها لا أستطيع الرؤية، هل يمكن لأحد أن يساعدي، ويخفض هذا الضوء، ويعيد تشغيلي مرة أخرى، لا أريد هذه المرة أن أعرف أي شيء، ولا أن أستخلص أمرًا، ولا حتى بحث عن شيء كي أفهمه، لا أريد إلا أن أكون، وحبذا لو كنت بصحة جيدة، ثم سنت لأنبت كالطفل الصغير:

هوك، لم أعد أتحمل، أرجوك ساعديني على الشفاء.

تماديت قائلة:

لا تخافي يا "كارو"، أنت قادرة على ذلك، وسوف ننجح، ولكن اتركي لنا بعض الوقت، اصبري قليلاً.

وافقتها رغم أنني لم أفهم ماذا تقصد؟ ولكني لا أريد أن أعرف ماذا تقصد؟ فقد تعبت، أنهيت المكالمة بقولي: موعدنا بعد غد.

عرضت على "أنيت" الحضور قبل الموعد بقولها:

- ممكن تحضري قبل ذلك لو أردت.

يبدو أنها قلقة على، ولكني لا أرغب في الذهاب إليها قبل الموعد، حدثتها عن مواعيدي مع الطبيب النفسي اليوم، وأعتقد أن هذا يكفي.

جلست على الرصيف في الشارع، وأخذت أدخن سيجارة، وفجأة شعرت أنني قد هبطت من أعلى إلى الأرض. فقد تم إخطار جميع المسؤولين، ويمكن للعمل أن يبدأ مرة أخرى، شمريت عن ساعدي وقلت: هيا إلى إعادة البناء يا "كارو"، فليبدأ العمل.

اتصل بي ماكس وقال: آسف، كنت في اجتماع، ما أخبارك؟

أجبتّه بصوت واثق ما لبث أن تحول إلى بكاء، فقد جاء صوت ماكس المألوف بالنسبة لي ليظهر لي أنني ما زلت في حاجة إلى من أركن إليه:

أحسن الآن، أنا على موعد مع الطبيب النفسي اليوم، وكم ان اتصلت بأنيت.

رد على بقوله: تحبي نروح نأكل آيس كريم قبل ميعاد الدكتور، أنا ممكن أحصل على إجازة باقي اليوم ، أو تفضلي أن تبقى وحدك هذه الفترة؟

جاء العرض في مواعده، فلم يكن يسعدني الآن أكثر من أن أتناول الآيس كريم مع صديقي - المؤقت -، فلا أريد أن أبقى وحدي، ولا أريد التفكير في أي شيء، لذلك مررت على ماكس في الوكالة، واصطحبته إلى إحدى الحدائق، جلسنا نتناول الآيس كريم - السويدي - وأخذنا نراقب بعض الناس، ممن يمارسون رياضة المشي في الحديقة، شعرت براحة تسرى في داخلي، وشعور بقبول للواقع.

قلت لنفسي: ما حدث قد حدث بالفعل، وسقط الطفل في البئر، فلا طائل من وراء الصياح والتحذيرات، ومطالبته بالحرص، لقد جاء الآن دور عملية الإنقاذ.

الإكتئاب حدث سخيـف!

كم هي مستخفة بالمتلقي، تلك الجملة، التي يقولها طبيب نفسي، الذي يشبه نجوم البوب!

جلست أمام طبيبي في عيادته، التي هي في الواقع عيادة
الدكتورة كليفة، وتأمّلت مشروب البيوناده الموضوع أمامه.

سوف نبدأ معاً من نقطة الصفر، ولكن علينا الوصول للهدف
بأقصى سرعة، وفي أسرع وقت، ساعتها فقط سوف أثق في
تشخيصه، وبناء عليه، قمت بتسميع ملخص أحداث العام الماضي،
بداية من فقدي لموقع عملي، وانتهاءً بصديقي المؤقت، الذي يجلس
في انتظاري خارج غرفة الكشف.

لخص الطبيب المؤقت الوضع في كلمات قليلة:

- بمعنى أنك توقفت عن تناول حبوب الاكتئاب منذ ستة

أسابيع، بعدها بدأت تتأبك نوبات من الخوف!

- بالضبط، لذلك أريد أن أعرف من سيادتك السبب، هل هناك

علاقة بين نوبات الخوف والتوقف عن استخدام الأقراص؟ هل يعني

ذلك أنني إذا توقفت عن الدواء، سوف أستمر في الشعور بالخوف؟

هل المفروض الآن أن أعود إلى استخدام الدواء؟ ولو كان الأمر

كذلك، فلماذا؟ ماذا يحدث لي بالضبط؟ كيف يمكن أن أعود إلى

حالي الطبيعية؟

ابتسم الطبيب وقال:

- واحدة، واحدة يا سيدة هيرمان. أنا لا أعرف حالتك بالتفصيل، كي أستطيع أن أقول لك أين تكمن المشكلة بالضبط؟ لا أعتقد أن إصابتك بنوبات خوف بعد التوقف عن استخدام الأقراص، كان من قبيل الصدفة، السؤال الآن هو: لماذا توقفت عن استخدام الأقراص؟

قلت له:

- الواقع أني أستخدم هذه الأقراص منذ أكثر من سنة، وكانت حالتي قد بدأت فعلاً في التحسن، واستقرت الأمور، وتصورت أن الأمور أصبحت على ما يرام، ثم فوجئت بأنني بدون دواء، مجرد شيء مهلهل، وأني غير قادرة على الاستمرار في الحياة، إنه إحساس فظيع!

انتهيت من كلماتي، وأجهشت بالبكاء. تأملني الطبيب - نجم البوب - كما لو كنت حيواناً مسلماً، ثم أخذ يدون بعض الملاحظات في الملف الخاص بي أمامه.

همهمت بكلمات وأنا أبكي:

- لم أعد أعرف من أنا بالضبط؟ ومن أصدق؟ أشعر بأن كل شيء بداخلي معقد.

ناولني الطبيب منديلاً، بدأت أشعر أنه يتفهم الموقف، ثم قال:

- الواضح أنك لا تدركين أهمية العقد! العقد تربط الأشياء ببعضها، وليس من الحكمة أن نحل العقد على وجه السرعة، ربما كان من الأفضل، أن نحتفظ بها بعض الوقت لنحمي أنفسنا.

تأملت كلمات الطبيب، فوجدت فيها تشبيهاً جميلاً، توقفت عن البكاء، وقلت لنفسي:

ليس من الضروري صرف كل أشباح الماضي، والحاضر، والمستقبل في التو واللحظة، استجمعت أفكارى وقلت للطبيب:

- أنا لازم أبدأ في ترتيب الأمور، من المؤكد أن هناك شيئاً غير سليم، ونوبات الخوف دليل على هذا. لا يمكن أن أتعاش مع هذه النوبات، ولا طبعاً يمكن أيضاً أن أتناول دواء علاج الاكتئاب باقي عمري؟

سألني الطبيب بتحدٍ وهو يرشّف رشفة من مشروبه: ولم لا؟

- لأن هذه الحبوب تعالج الأعراض فقط، وأنا أريد معرفة السبب، وأن أمحوه تماماً، كي أستطيع أن أعيش مثل الناس الطبيعيين.

فجأة قال الطبيب بعصبية:

- مدام هيرمان، أرى رغبتك في عدم الاستمرار على الحبوب أمرًا محمودًا، ولكن صدقيني، عندي من المرضى من هم على استعداد أن يفعلوا أي شيء، في مقابل زيادة الجرعة التي أكتبها لهم. افرضي أنك تتناولين أقراصًا لعلاج ضغط الدم أو أي مرض في القلب، هل تسألين عن تأثيرها أو المدة التي سوف تستخدمينها خلالها؟ أنت تستخدمينها لأنها تساعدك، لا أفهم لماذا يرفض الناس هذا الأمر مع الأمراض النفسية، ويريدون أن تسير الأمور من تلقاء نفسها، هل يطلب أحد ذلك من ضغط دمه؟

أعتقد أن الطبيب قد أعطاني بذلك دُشًا محترمًا، ولكني لن أستسلم بسهولة، فقلت له: لكن التشبيه غير صحيح؛ فالحبوب تمنحني الإحساس بكوني في حالة جيدة، بينما بداخلي فوران شديد، لدرجة تجعلني أشعر بأن اللهب سوف يخرج من أنفي، أنت فاهم ماذا أقصد؟

حملق الطبيب - نجم البوب - في وجهي صائحًا:

- أنا لم أقل إنك سوف تستخدمين الأقراص باقي حياتك، كل ما في الأمر أنني لا أعتقد أن توقفك عن الأقراص قبل أن تشفى تمامًا فكرة صائبة.

- لكن حالتني كانت جيدة، بل جيدة جدًا، عدت لعملي مرة أخرى، وأعيش حالة حب، هل هناك ما هو أفضل؟

- ولكن لديك بعض الشكوك في هذه العلاقة!

- قلت له بصوت متذمر:

- لا، أنا عندي شك في نفسي بشأن هذه العلاقة، فلم أعد أتق في نفسي، فضلاً عن أن هذا الموضوع ليس له علاقة بوضعي الحالي.

رد على الطبيب بنفس النبرة:

- من الذي قال لك هذا؟

- أردت أن أداعبه فقلت له:

- نبرتك في هذا الأمر تشبه نبرة "أنيت"، أخصائيتي النفسية!

رد مكملاً الدعابة:

- وكيف هي نبرة أخصائيتك؟

- تقول: إن مشكلتي تكمن في مفهومي للعلاقة بيني وبين نفسي، وبينني وبين الآخرين.

- هذا يعني أن أخصائيتك النفسية ليست سيئة!

أعلن عن إعجابي بطبيبي النفسي - نجم البوب -، رغم أنه يبدو جامداً ومعجباً بنفسه، مثل إعجابي به؛ فهو حاسم ومباشر في

كلامه، يمكك بزمام الأمور ويعاملني بخشونة، لأنه لم تفزعه
طريقتي في الحديث.

صارحته بكل هذا، بل وقلت له: إنه ظريف ومتعب فسي ذات
الوقت. رد على قائلاً:

- صدقيني، أنا أيضاً أجد أن الأمر متعب معك، فأنا لا أتعامل
مع كل المرضى بهذه الطريقة، صعب جداً أن أصل إلى مفاتيح
شخصيتك، أشعر أنني في حاجة إلى (شنيور)، كي أتمكن من الدخول
إلى شخصيتك، ممكن أن أشبهك بحائط خرساني، فأنت تغيرين مسار
الحديث بسرعة، وتطلقين النكات، وتتشرين حولك سحراً وجاذبية.
قلت له بصوت حازم.

- أريد أن أعرف تشخيصك لحالتي، وبصراحة؟

- الحقيقة، لا أعرف بالضبط؛ لأننا لم نتحدث معاً بما فيه
الكفاية، ولكني أعتقد أنك تعانيين من اكتئاب حقيقي، بل وأتصور، أنك
تعانيين منه منذ مدة طويلة، لدرجة أنه أصبح على مدى السنين
اكتئاباً مزمناً، اكتئابك من النوع الذي يستطيع أن يخفي نفسه بصورة
كبيرة، واستطعت أنت أن تبني له درعاً واقياً.

أصببت بدهشة شديدة، فلم أكن أرغب في أن أسمع هذا الكلام،
أنا لا أعاني من الاكتئاب، ربما يميل مزاجي أحياناً إلى الكآبة بسبب
الظروف، ولكن هذا لا يعني أنني مصابة بالاكتئاب. قلت له بشجاعة:

- لا أعتقد هذا، فأنا لا أشعر بالحزن، ولا أمضى وقتاً طويلاً في التفكير والتأمل، ولا أعاني من مشاكل في النوم، ولا دوافع مضطربة.

كانت هذه هي أعراض الاكتئاب التي أعرفها.

رد الطبيب بهدوء: سيّدة هيرمان، خلال النصف ساعة التي جلست فيها أمامي، بكيت ثلاث مرات، وقمت أنا بوضع خط تحت كلمة اكتئاب ثلاث مرات.

ثم قام بوضع الدقتر أمامي، ليريني الخطوط التي وضعها. صحيح! لقد بكيت، ووضع هو خطوطاً. استرسل الطبيب في الحديث قائلاً:

- في اللحظة التي تبكين فيها، يبدو عليك الحزن الشديد، وعندما يظهر عليك الاكتئاب، يظهر لفترة قصيرة، فإذا لم تلاحظيه بدقة، فإنه لا يلبث أن يختفي، ويختبئ خلف خوفك على سبيل المثال. لقد قلت بنفسك: إنك تتناولين الأقراص عند إصابتك بنوبة خوف، فتشعرين بمفعولها وتهدئين، ولكنك تشعرين بعدها بخذلان وانقباض شديد.

- هذا هو ما أشعر به الآن، تماماً وبمعني الكلمة.

امتأأت عيناى بالدموع؁ ولكنى حاولت ألا أأعلها تنهمر؁ فلم يعد لى أى دليل على عكس ما قاله الطيب. طلبت منه فترة استراحة قصيرة؁ ذهبت إلى المرحاض؛ كى أأمع شتات نفسى؁ ولكنى لم أستطع؁ ألسـت على المرحاض؛ وأأذت أرك رأسى على إيقاع فوضى الأفكار التى تدور فيها؁ وعندما عدت إلى مكتب الطيب؁ حاولت أن أطف الجو بيننا بدعابة فقلت له:

- كررت أأصائبتى النفسية قولها إننى أفتقد الشعور بذاتى؁ وأياً ما كان معنى هذه العبارة؁ فأرجو أن نتأملها معاً؁ حتى لو لم يكن رأينا فى صالح "أنيت" التى تولينى رعاىة شديدة.

الواضح أننى لم أحسن عرض الدعابة؁ فقد رد على الطيب قائلاً:

- من قال لك إن هذه العبارة غير صحيحة؟ أنت فعلاً لا تشعرين بذاتك لدرجة أنك لم تلأظى أنك مصابة بالاكئاب.

شعرت بأن الطيب قد أأرجنى بدرجة شديدة؁ مما أصابنى بشيء من الضيق؁ أعتقد أنه لا يمكن لأأد أن ينكر على أقى فى دعابة ألقياها على شخص ما؁ هذه هى فلسفتى الخاصة؁ ولكنها من المؤكد ليست فلسفة الطيب؁ مع الأأذ فى الأعتبار أنه لا يطيقنى؁ وأعلم جيداً؁ أنه يريد أن يأرجنى عن صمتى.

قال لي الطبيب:

مدام هيرمان: ألم تلحظي أي شيء؟ أنك في منتهى الذكاء، والواضح أنك تملكين قدرًا كبيرًا من معدل ذكاء شعوري بمعنويات الآخرين، إلا أن كل هذه الصفات لا تنطبق عليك أنت، ولا تتفذيها مع نفسك، فأنت تسرعين الخطأ أمام أحاسيسك، حاملة لوخًا كبيرًا يمنع نفاذها إلى داخلك.

قلت له وأنا أشعر بالفعل بثقل اللوح الخشبي أمام رأسي: ياه؟؟

رد على بقوله:

- هل تعلمين أن النفس البشرية تستخدم عجزها عن الإحساس بالأشياء عند الصدمات كدرع واقٍ، تحتمي خلفه، كل هذه أشياء طبيعية، بل ومفيدة؛ لأنها تحميك من الإحساس بما لا تطيقين ولا تتحملين، فهناك شيء مجهول جعلك ترغبين في حماية نفسك، فأنت لا تشعرين بذاتك إلا عندما يفوت الأوان، وعندما تفرغ أحاسيسك شحنتها على هيئة نوبات من الخوف. علينا الآن أن نبحث عن الأشياء التي يمكن أن تكون قد أدت إلى هذه الأعراض.

ها أنا قد عدت إلى العنصر الأساسي في حياتي، حيث أستطيع أن أتحدث عن نفسي، ومن ثم ألقيت أسرار طفولتي بابتسامة خالية من التكلف أمام الطبيب، حتى اهتز المشروب الذي وضعه الطبيب أمامه، إليكم ما أحتفظ به في خزانة ذكرياتي:

أولاً: اعتداء جنسي من أحد أقرب أقاربي.

ثانياً: ضرب، وافتقار للحنان من أم غير قادرة على تربية ابنتها، مع الأخذ في الاعتبار، أنها كانت هي نفسها تعاني من الاكتئاب.

ثالثاً وأخيراً: أب لم يستطع أن يقنعني بأنني وحدي محور حياته، رغم الحالة التي أنا عليها.

- تفضل أيها الطبيب، وأختر ما يحلو لك من هذه الأسباب!

ولولا أنني رأيت ملامح وجه الطبيب - ولحساسية الموقف - لصحت بصوت عال: انتهى الدور وماتت الشاة (كما يحدث في لعبة الشطرنج)!!

بدت الدهشة على وجه الطبيب، فأنا أنسى دائماً أن الحمل الثقيل الذي أحمله على كتفي لا يدعو إلى الفخر، ولا الزهو.

لخص الطبيب الموقف في كلمات قليلة:

- هذه ثلاث صدمات، قد تكفي الواحدة منها وحدها، لتصل بك إلى ما وصلت إليه الآن، ورغم أن تشخيص حالات الاكتئاب يحتاج إلى بعض التآني والتروي، إلا أنني أستطيع أن أؤكد في هذه الحالة، وبنسبة مائة بالمائة، أن هذه هي أسباب الحائط الواقى، الذي أقمته بداخلك، فهذه نتيجة طبيعية.

كان تشخيصه واضحًا مما جعلني أصمت تمامًا، نظر إلى الطبيب باهتمام وسألني:

- ما هو إحساسك الآن؟

- أنا حزينة!

- لماذا؟

- لا أعرف، ربما لأنني أشعر أن هذا الأمر غير منصف؛ فلم يعاملني أحد من هؤلاء الأشخاص بطريقة سليمة، لم تكن هذه طريقة للتعامل مع طفلة، وثورتي الآن، لأن الأمور كان يمكن أن تكون مختلفة تمامًا.

- بالضبط، أما الخبر السعيد؛ فهو أنك تشعرين الآن بشيء داخلك.

- نعم. الموقف هنا بسيط، أما المواقف الأخرى، فليست من السهولة بمكان، بحيث يمكن تحليلها، هذه هي مشكلتي، نوبات الخوف تتناوبني في أوقات لا أشعر فيها بالحزن، بل وتسير الأمور فيها على أفضل ما يكون، وقتها أبدأ في التفكير والتعمق، وأحاول أن أدمج في رأسي أشياء لا تمت لبعضها بأي صلة. ساعتها أشعر أن رأسي يشبه لعبة إيجاد قطع الصورة، وضمها لبعضها، ولكنها سيئة الصنع،

لدرجة أن قطعها لا تصلح لأن تكمل بعضها، مما يثيرني بشدة، ويدفعني للبحث عن سبب، تتنازع الأفكار في رأسي مثل مجموعة من أطفال الحضانة، كل واحد منهم يصيح، ويرفض أن يقف مع باقي المجموعة في صف واحد.

- إذن عليك أن تقلعي عن ذلك!

- عن ماذا؟

- عن التفكير.

خرجت بعد ساعة من عيادة طبيبي النفسي الجديد وقد تمكنت من الحصول على موعد جديد، وكذلك على روضةً لأصرف حبوب علاج الاكتئاب.

وجدت ماكس ما زال جالسًا في غرفة الانتظار، ويتصفح نشرة عن مرض "فرط النشاط" (هيبير أكتيفيتي)، أعتقد أنه مرض لا يمكن لماكس أن يصاب به أبدًا.

شعرت بتأنيب ضمير لتركي له طول هذه المدة في انتظاري، فالشمس مشرقة في الخارج، ولو كنا نعلم أني سأحتاج هذا الوقت الطويل، لكان بإمكان ماكس أن يخرج للتنزه وشرب القهوة، إلا أنه فضل أن يجلس في انتظاري وسط مرضى نفسيين. شعرت تجاهه بعاطفة جياشة، وقلت له وأنا أضمه إليّ:

- أنا آسفة أن الموضوع استغرق كل هذا الوقت!

- ليست مشكلة.

- لا، بل مشكلة.

- لا.

- لا، بل هناك مشكلة.

- عندما أقول لك يا "كارو" ليست مشكلة، يعني أنها فعلاً

ليست مشكلة. انتهينا!

طُبعَت قبلة على صدر ماكس، حيث لم تمكّني قامتي من الوصول لأعلى من ذلك، ثم خرجنا من العيادة، بعد أن كنا قد اقتربنا من المساء، ما زال الجو دافئاً، فتوجهنا إلى المنتزه.

لم يسألني ماكس كثيراً، فهو يعلم تماماً أنني سوف أحكي له، عندما أصل إلى حالة تسمح لي بذلك. بينما أنا مستقّية على ظهري، وأأمل الشجر من حولي، أخذ ماكس يقرأ في كتاب، ويلعب بأصابعه في (صرتي). كنت أحاول تلخيص زيارتي للطبيب النفسي، وأهميتها بالنسبة للفترة القادمة، لم أتصور أبداً، أنني قادرة على أن أقلع عن التفكير والتحليل، ولا عن رغبتني في فهم كل شيء، وتغييره، لقد

اعتبرت كل هذه المراحل، هي دوري الوحيد في هذه اللعبة: أن أفهم وأطبق ما فهمت. تذكرت الكلمات التي قالها لي الطبيب:

- أقلعي عن التفكير، لا تداومي على التفكير في ذاتك، ولا في الحلول الممكنة، ابتعدي عن الأحاديث الفلسفية مع علماء النفس الجالسين حول طاولة المطبخ، لا تقتربي من جنون، أنت قريبة منه بالفعل، فحياتك الآن مستقرة، حاولي الاستمتاع بها.

رغم أنني لمحت في وجه الطبيب ملامح أفراد فريق الهيبيز، فابنيتي وجدت أنه محق فيما قال، وربما كانت الفرصة الوحيدة لقبول الأمور، هي عدم التفكير فيها. عليك أن تبحثي عن المساعدة، وأن تلقى بالمسئولية عن كاهلك، عليك أيضاً أن ترضي بالأمر الواقع، وتكفي عن الصراع.

لقد نصحتني الطبيب النفسي بعدم المبالغة في الذهاب إلى جلسات العلاج النفسي، واقترح عليّ أن أكتفي بجلسة واحدة كل ثلاثة أسابيع، لا لأنه من غير المؤيدين لجلسات لعلاج النفسي، ولكن لأن الشخص في مثل حالتي يكون ضعيفاً، مما يفضل معه البعد عن تحليل الأمور أو الحديث عن الذات.

إن فسوف أعود لاستخدام علاج الاكتئاب. أعلم أن تأثير المادة الفعالة يبدأ بعد تناول الأقراص بفترة بسيطة؛ أي أنني لن

أشعر بالخوف بعد اليوم. شعرت وأنا مستلقية في المنتزه، والنمل يسرح فوق جسمي ويعمل على إعداد بنيته التحتية، بأن هدوءاً ما يسرى بداخلي، اقتنعت بالخطة الجديدة، لقد وجدت أخيراً قطعتين متكاملتين من لعبة القطع المتكاملة، قررت أن أتوقف عن التفكير، وأن أستمتع بحياتي السعيدة؛ فحياتي فعلاً سعيدة. هذا ما أكدته لي الإصبع الذي يداعب (صرتي).

إذا كانت الأقراص سوف تقوم بتنظيم ما يدور في رأسي، فلمَ لا؟ ربما استطاعت بعض الأمور أن تحل نفسها بنفسها، على مدى الأيام. فحل العقدة يكون أسهل، عندما نتركها تحل من نفسها، ودون استخدام العنف ولا القوة، إذن... اتركها تحل نفسها بنفسها، وأقلعي عن التفكير، وليكن ذلك من الآن فصاعداً.

خاتمة

استيقظت قبل ماكس لقضاء حاجتي، كما أردت أن أغسل أسناني، قبل أن أتلقى قبلة الصباح الأولى، ولكن الواضح أن ماكس كان قد استيقظ قبلي، فقد سبقني، ووضع لي معجون الأسنان فوق فرشاة أسناني، فضلاً عن وجود شيء جديد فوق رف الحمام، لقد قام ماكس بوضع كوب ماء على الرف، ووضع بجانبه أول قرص من أقراص علاج الاكتئاب.

وقفت لعدة لحظات دون أن أتحرك، كي أتأمل هذا المنظر الرومانسي، ثم استدرت دون أن أغسل أسناني، وعدت بثقة كبيرة إلى سريري.

- استيقظ يا صاحب النمش، إذا سمحت؟
- لا تسميني صاحب النمش.
- أنا أسميك كيفما أشاء.
- لا، لا يمكنك ذلك طالما لا يوجد بيننا عقد.
- هذا هو الموضوع الذي كنت أرغب أن أتكلم معك بشأنه.

المؤلف في سطور:

سارة كوتنر

سارة كوتنر من مواليد عام ١٩٧٩ في مدينة برلين، تعمل مقدمة برامج، ذاعت شهرتها من خلال برنامجها "استعراض سارة كوتنر"، وكذلك برنامج "كوتنر"، كما عملت مع محطة *ARD* لعدة مرات، كان آخر برامجها هناك بعنوان "إعلانات سارة كوتنر المبوبة". صدرت لها مقالات مجمعة، سبق نشرها في العمود المخصص لها في جريدة "زود ويشة" *Sd2*، وجريدة "ميوزيك إكسبريس"، في كتاب أصدرته دار نشر "فيشر"، والتي صدر عنها أيضا كتاب يضم مقالات "طبقة عمود الثلج الرقيقة لنصف ثلثي المعرفة"، وكذلك "تواجد الحاضر المستمر والمرهق".

تعيش سارة كوتنر في مدينة برلين، التي تحبها، وتعد رواية "نسخة معيبة" هي باكورة رواياتها..

المتّرجم فى سطور:

ناهد شفقى رضوان الديق

المؤهلات العلمفة:

- لفسانس اللغة الألمانية وآدابها (كلفة الآداب - جامعة القاهرة)
- ماجستير اللغة الألمانية وآدابها (كلفة الآداب - جامعة القاهرة)
- دكتوراه الأدب الألماني جامعة هايدلبرج (ألمانيا الغربية)

المناصب الإدارية:

- مفر مركز اللغات الأجنبية والترجمة التخصصفة (جامعة القاهرة
٢٠٠٧ - ٢٠١٠)
- رؤفس قسم اللغة الألمانية وآدابها (كلفة الآداب جامعة القاهرة
٢٠٠٥ - ٢٠٠٧)
- المفر المصرى والممثل القانونى للمدرسة الألمانية الإنجلففة -
القاهرة ١٩٩٤ - ٢٠٠٤)
- المشاركة فى المؤتمرات والندوات فى الداخل والخارج (مصر،
كندا، ألمانيا)

- المشاركة فى إصدار مجلة الدراسات الجرمانية (كلية الآداب -
جامعة القاهرة)

- الإشراف على الرسائل العلمية الجامعية ومناقشتها (جامعات
القاهرة، عين شمس (الألسن - التربية)، حلوان، الأزهر، المنيا.

عضوية الجمعيات واللجان العلمية:

- عضو اتحاد الجرمانيات الدولي (IVG)

- عضو مؤسس لفرع جمعية اللغة الألمانية بمصر (Gfds)

- عضو اتحاد خريجي جامعة هايدلبرج.

- عضو اللجنة العلمية الدائمة (لجنة اللغات) المجلس الأعلى
للجامعات.

- عضو اللجنة العلمية الدائمة (اللغة الألمانية) جامعة الأزهر،
عضو اللجنة العلمية - أكاديمية الفنون.

التصحيح اللغوى: رفیق الزهار
الإشراف الفنى: حسن كامل

عملت سارة كوتنر منذ العام 2000 مذيعة في الإذاعة الألمانية، ثم مقدمة برامج حوارية في التلفزيون، وصحفية ذات عمود ثابت في جريدة ألمانية معروفة.

وفي عام 2009 فاجأت كوتنر الجميع بنشر أول رواية لها بعنوان "نسخة معيبة". وعلى الرغم من أنها باكورة إنتاجها الروائي، فإن الرواية استمرت لعدة شهور على رأس قائمة الكتب الأفضل في ألمانيا. وربما يمكن إرجاع نجاح الرواية إلى كونها ليست مجرد وصف تجربة سيدة شابة تفقد عملها، ويتركها صديقها فتصاب بحالة اكتئاب، استمرت لمدة عام، لكنها جاءت في الواقع لتلمس روح العصر بصدق متناه، وتخاطب الرجل والمرأة والشباب والشيوخ على حد سواء.